بسم الله الرحمن الرحيم

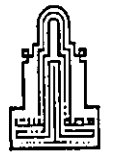

جامعة آل البيت

كلية الآداب والعلوم

قسم اللغة العربية

أدب المرأة النثري

من العصر الجاهلي حتى نهاية القرن الثاني الهجري

Women Literary Prose Writing

(From the Per-Islamic Times Until the End of 2nd Century A.H.)

إعداد:

أمينة عبد المولى محمد الحراحشة

إشراف:

الدكتور محمّد محمود الدروبي

١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م

أدب المرأة النثري

من العصر الجاهلي حتى نهاية القرن الثاني الهجري

Women Literary Prose Writing

(From the Pre-Islamic Times Until the End of 2nd Century A.H.)

إعداد:

أمينة عبد المولى حمد الحراحشة

الرقم الجامعي (٩٩٢٠٣٠١٠٠٤)

إشراف:

الدكتور محمد محمود الدروبي

أعضاء لجنة المناقشة		التوقيع
د. محمد محمود الدروبي	(مشرفاً ورئيساً)	
أ.د. عبد الجليل حسن عبد المهدي	(الجامعة الأردنية/ عضواً)	
د. عبد الرحمن محمد الهويدي	عضواً	
د. محمد موسى العبسي	عضواً	

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها في قسم اللغة العربية في كلية الآداب والعلوم في جامعة آل البيت .

نوقشت وأوصي بإجازتها بتاريخ: ١٦ / ٧ / ٢٠٠٣م

الإهداء

إلى من رعى هذا الزرع نبتة صغيرة لتكون شجرة مثمرة، وحالت الأقدار ألا يراها....

والدي الحبيب طيب الله ثراه

إلى نبع الحب والحنان والحضن الدافئ....

أمي الغالية أمد الله في عمرها

شكر وتقدير ،،

الشـــكر لله علـــى عظيم فضله وجزيل مَنِّهِ أن أتمَّ عليّ نعمته، ووفقني إلى إنجـــاز هـــذا العمل خدمة للعربية الشريفة وأدبها العذب الدين الحنيف الذي رعى المرأة حق الرعاية.

وأتقـــدم بـــأعظم التقدير وخالص الشكر والعرفان لأستاذي الدكتور محمد محمـــود الدروبـــي الذي شرفني بالإشراف على هذه الرسالة ورعاها بكل صدق وإخـــلاص وأمانـــة، ولـــم يبخل بجهده ووقته، فجهده موصول في كل مرحلة من مـــراحل إعـــداد هـــذا العمل وإنجازه، فجزاه الله عني خير جزاء، ومتعه بموفور الصحة والعافية.

كما أتقدم بالشكر الجزيل لأساتذتي الفضلاء أعضاء لجنة المناقشة لتكرمهم بمناقشـــة هذه الرسالة، وإبداء ملاحظاتهم القيمة، الأستاذ الدكتور عبد الجليل حسن عـــبد المهـــدي، والدكـــتور عبد الرحمن محمد الهويدي، والدكتور محمد موسى العبسي.

ويســـعدني أن أشـــكر لزوجـــي دعمه المعنوي المتواصل، وكذلك إخواني وأخواتي الأعزاء وصديقاتي فلهم جميعاً عظيم الشكر والتقدير .

الباحثة

المحتويات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	ب
شكر وتقدير	ج
فهرس المحتويات	د- و
الملخص بالعربية	ز
المقدمة	١-٣
الفصل الأول: مكانة المرأة الأدبية واتجاهات نثرها وأعلامه ومصادره وما بقي منه	٤-٣٣
- مفهوم أدب المرأة النثري	٥-٦
- مكانة المرأة الأدبية حتى نهاية القرن الثاني الهجري	٦-٢٣
١- في العصر الجاهلي	٦-٩
٢- في عصر صدر الإسلام	٩-١٣
٣- في العصر الأموي	١٤-١٦
٤- في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثاني الهجري	١٦-١٨
- نتاجها النثري	١٨-٣٣
١- فنونه	١٨-٢٣
٢- أعلامه	٢٣-٢٥
٣- مصادره	٢٦-٢٨
٤- ما بقي منه	٢٨-٣٣
الفصل الثاني: فنون المرأة النثرية	٣٤-١١٩

أولاً: الخطابة	٣٥-٦٦
١- في العصر الجاهلي	٣٥-٣٩
٢- في صدر الإسلام	٣٩-٥٣
٣- في العصر الأموي	٥٣-٦٢
٤- في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثاني الهجري	٦٣-٦٦
ثانياً الوصايا	٣٤-٦٦
١- في العصر الجاهلي	٦٧-٧٥
٢- في صدر الإسلام	٧٥-٧٦
٣- في العصر الأموي	٧٦-٨٠
٤- في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثاني الهجري	٨٠-٨٤
ثالثاً: الرسائل	٨٥-٩٥
١- في العصر الجاهلي	٨٥-٨٦
٢- في صدر الإسلام	٨٦-٩٠
٣- في العصر الأموي	٩٠-٩٢
٤- في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثاني الهجري	٩٢-٩٥
رابعاً: المناظرات والمحاورات	٩٦-١١٢
١- في العصر الجاهلي	٩٦-١٠٣
٢- في صدر الإسلام	١٠٣-١٠٥
٣- في العصر الأموي	١٠٥-١٠٩
٤- في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثاني الهجري	١١٠-١١٢
خامساً: الأمثال	١١٢-١١٩
الفصل الثالث: الدراسة الفنية	١٢٠-١٦٧
أولاً: الأسلوب	١٢٠-١٥٣
- الأسلوب الإنشائي	١٢٠-١٢٤

- الأسلوب المصنوع	١٢٤-١٢٩
- الأسلوب المرسل	١٢٩-١٣٥
- الإسهاب والإيجاز	
- الإسهاب	١٣٦-١٤٠
- الإيجاز	١٤٠-١٤٤
- التكرار	١٤٤-١٤٥
- الاقتباس والتضمين	١٤٥-١٤٩
- مزج الشعر بالنثر	١٤٩-١٥٣
ثانيا: اللغة	١٥٣-١٥٦
ثالثا: البناء الفني	١٥٧-١٦٢
رابعا: الصورة الأدبية	١٦٣-١٦٧
الخاتمة	١٦٨
المصادر والمراجع	١٦٩-١٧٨

ملخص الرسالة

تتـــناول هـــذه الدراسة أدب المرأة النثري من العصر الجاهلي حتى نهاية القرن الثاني الهجـــري، دراســـة موضـــوعية وفنـــية، فالمـــرأة العربـــية طرقـــت باب النثر، ونوعت في موضـــوعاتها، إذ ألقـــت الخطب، وقدمت الوصايا، وناظرت الرجال، وكتبت الرسائل، وذهب بعض كلامها أمثالاً وحكماً، إلا أن ما وصل إلينا من أدبها النثري قليل إذا ما قيس بشعرها من جهة، أو بنثر الرجل من جهة أخرى.

وقـــد جـــاءت الدراســـة في مقدمة وثلاثة فصول، أما المقدمة فتضمنت أسباب اختيار الموضوع والهدف من الدراسة، والدراسات والسابقة، والمنهج الذي اتبعته الباحثة.

تضـــمن الفصل الأول من الدراسة توضيحاً لمفهوم أدب المرأة النثري ثم مكانة المرأة النثرية في العصر الجاهلي وصدر الإسلام والعصر الأموي والعباسي حتى نهاية القرن الثاني الهجري، كما تضمن اتجاهات نتاجها النثري ومصادره وأعلامه وما بقي منه.

أمـــا الفصـــل الثانـــي فكان دراسة موضوعية لأدب المرأة النثري، إذ تناولت الباحثة الفـــنون النثرية التي تناولتها المرأة العربية وأغراضها من الخطب، والمناظرات والمحاورات والوصايا والرسائل والأمثال على النهج نفسه.

وعقـــدت الباحثة في الفصل الثالث دراسة فنية لفنون المرأة النثرية من حيث الأسلوب، وعرضـــت فـــي ذلـــك للأســـلوب الإنشائي والمصنوع والمرسل ومن ثم الإيجاز والإسهاب والـــتكرار والاقتباس والتضمين ومزج الشعر بالنثر، ثم النواحي الفنية الأخرى من حيث اللغة والبناء والصورة الأدبية.

وتوصـــلت الدراســـة إلى أن المرأة العربية عرفت فنون النثر وأجادت فيها من خطب ورسائل ووصايا ومناظرات وأمثال كما نوّعت في موضوعاتها غير أن الطابع السياسي غلب على خطبها ورسائلها ومناظراتها في حين كانت أغلب وصاياها تتناول جوانباً اجتماعية.

كمـــا توصلت الدراسة إلى أن المرأة العربية نوعت في أسلوبها فتراوح بين الإنشائي والمرســـل والمصـــنوع حيناً، وبين السرد والحوار حيناً آخر، والإيجاز والإسهاب، وقد تأثرت فـــي العصر الإسلامي بالقرآن الكريم والحديث الشريف، فاقتبست منه، ومزجت الشعر بالنثر في بعض نصوصها، مع التزامها بالشكل التقليدي في بناء فنونها النثرية.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، من يهده الله فهـو المهتد، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، أما بعد:

فقـد شاركت المرأة العربية مشاركة واضحة في تشكيل البناء الاجتماعي قبل الإسلام وبعـده، وكـان حضورها مهما في مشاهد الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، ومـع أن هذا الحضور كان يتفاوت أحياناً تبعاً لمتغيرات المجتمع نفسه، وما يسوده من أعراف وقـيم وتقالـيد، إلا أنه من المؤكد أن مشاركة المرأة تنامت بشكل لافت، ولا سيما بعد ظهور الإسلام الذي أفسح للمرأة منزلة كريمة غذت دور المرأة على صعد الحياة المختلفة، وحررت عقلهـا وإرادتهـا، فانطلقت المرأة -بهمةٍ واقتدار- تخوض غمار الحياة وتمد المجتمع بطاقات جديدة.

وارتـادت المرأة في هذه السبيل شعاب الأدب، شعره ونثره، وضربت بسهم وافر في الشـعر علـى وجـه خاص، يدل على ذلك ما يطالعه المرء من أسماء عشرات الشواعر في الجاهلـية والقـرون الثلاثة الأولى، وقد تركت بعض هؤلاء الشاعرات دواوين شعرية مستقلة لقيت العناية قديماً وحديثاً، إلى جانب ما تغص به المظان العربية من القصائد والمقطعات التي أنشـأتها المقـلات من الحرائر والجواري على مدار حلقات المدة الزمنية الممتدة من الجاهلية إلى نهاية القرن الهجري الثاني.

لم تغتمر المرأة في هذه المدة حومة البيان الشعري فحسب، بل ولجت إلى ميدان النثر أيضـاً، وتعددت مواهبها النثرية بتعدد أجناس النثر الفني نفسه، فألقت الخطب المؤثرة ونوعت فـي أغراضها وفق ما يقتضيه المقام، فألقت الخطب السياسية والاجتماعية واستطاعت ببيانها أن تؤثـر فـي جمهورهـا في مختلف مستوياته، وفضلاً عن ذلك فقد أوصت فكانت وصيتها عامـرة بمعاني الحكمة والخبرة العميقة وعبرت في وصاياها عن حرصها على أبنائها وبناتها وزرع القيم السامية والأخلاق الحميدة في شخصياتهم.

وتعلمـت المـرأة الخـط والكـتابة فكتبت الرسائل على اختلاف أغراضها السياسية والاجتماعـية بإيجـاز وإسهاب، مصورة أكثر ما يجوس في نفسها من المشاعر والأحاسيس والعواطـف، ولـم تكـتف بذلك بل نجدها تناظر الرجال وتحاورهم وتبدي رأيها وتدخل على الخلـيفة وتـناظره لا تخشـى في الحق لومة لائم، فكانت لها مناظرات سياسية وأخرى أدبية

واجتماعـية، وذهبت أقوالها أمثالاً يستشهد بها في مواقف مشابهة في الحياة على مر العصور ولم تكن أقل قدرة من الرجل عن بث أقوالها وحكمها.

يمثل النص النثري الذي أنتجته المرأة لوناً مميزاً من ألوان الأدب، فهو وإن تقاطع مع الـنص الـذي أبدعـه الرجل إلا أنه يقف غالباً في الوجهة المقابلة، متميزاً بمذاق يلائم أنوثة المـرأة وأحاسيسـها الرقيقة ومشاعرها الدافئة وعواطفها الحارة. ولعل الاهتمام بدراسة ذلك النـتاج الثر الذي أبدعته المرأة نثراً يكفل للدارسين الاطلاع على وجه جديد من وجوه المرأة العربـية الناثرة وتغيير بعض الآراء المغلوطة حول دور المرأة في الحركة الأدبية وما قدمته من النماذج الفنية النثرية الناضجة التي ظل الاعتقاد سائداً بأنها حكر على الرجال دون النساء كمـا في الخطابة مثلاً. لاحظت الباحثة أن أكثر الدراسات المعاصرة انصبت على شعر المرأة أو صـورتها فـي الأدب، واكتفـت بالإشارات السريعة إلى أن المرأة قالت في بعض الفنون النثرية وكثيراً ما كانت الدراسات تسوق بعض النماذج المنثورة التي أبدعتها المرأة على سبيل التمثـيل لا التحليل، ومعنى ذلك أن هذا الصنف من الدراسات يقف عند حدود بعينها، ولا يمد الدارس إلا بنزر يسير من المعلومات التي تسعفه في الدراسة.

وأهم ما يمكن الإشارة إليه من الدراسات المتعلقة بالموضوع دراسة واجدة الأطرقجي "أدب المـرأة في العصر العباسي" إذ تناولت بإيجاز جهود المرأة العربية في الخطب والرسائل والتوقـيعات. كمـا يشـار في هذا الصدد إلى دراسة سهام الفريح "الوصايا في الأدب العربي القديـم" إذ وقفـت عـند بعض وصايا النساء وقدمت تحليلاً لها. ومن ذلك دراسة ليلى صباغ "المـرأة فـي الـتاريخ العربـي" إذ ألمحـت سريعاً إلى نصيب المرأة من الخطب والرسائل والأمـثال. وأخـيراً وقف محمد الدروبي في كتابه "الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري" عند بعض الرسائل التي كتبتها المرأة في العصر العباسي.

وهـذا يعنـي أن الأدبـيات المكتوبة حول الموضوع لا تمثل سوى حواش وتعليقات وإشـارات موجزة لا تفي بالصورة المطلوبة، مما يتطلب رجوعاً إلى المصادر العربية القديمة وإقامة الدراسة اتكاء على النص نفسه، مع الإفادة من ملابساته وما يحوطه من الخارج. ومن أهـم المصادر القديمة التي أفادت منها الباحثة كتاب "بلاغات النساء" لابن طيفور، و"نثر الدر" للآبـي، و"العقـد الفـريد" لابـن عبد ربه، وكتاب "البيان والتبيين" للجاحظ،و"مجمع الأمثال" للميداني، فضلاً عن المصادر التاريخية أمثال "الفتوح" لابن أعثم، وكتاب "تاريخ مدينة دمشق" لابن عساكر.

وتقـــوم الدراســـة على تحديد المفهوم أولاً لمعرفة حدود الموضوع المختلفة، ودراسة مصـــادره واستجلاء ملامحه وقضاياه، وتعمد الدراسة من ثم إلى تناول المضامين بالنظر إلى الفـــنون النـــثرية نفســـها من خطبة ووصية ورسالة وتوقيع ومثل ومناظرة، وقد رأيت أن هذا التصـــنيف وفق الأجناس الأدبية هو الأقدر على الإحاطة بالموضوع وتقديمه في صورة دقيقة ناصـــعة، وتفـــرد الدراســـة بعـــد ذلك مساحة للدراسة الفنية فتتناول الأساليب واللغة والبناء والصورة الأدبية.

تفـــيد الدراسة من معطيات المناهج بقدر ما تأذن به الروح العلمية، فهي تأخذ بالمنهج الاستقرائي في قراءة الظاهرة واستقصائها في مظانها المختلفة. كما تستند الدراسة إلى المنهج التاريخـــي في تتبع الموضوع واستشفاف ملامحه وما داخله من تطور في الرؤى والأساليب، وتعتمد الدراسة أيضاً المنهج التحليلي في دراسة النص وتبين قضاياه المختلفة وأخيراً تفيد من المنهج الجمالي في الكشف عن جماليات النصوص واستكناه أساليبها الفنية.

إن تجربتـــي في هذه الدراسة أوقفتني على حقيقة ما ذكره العماد الأصفهاني حين قال: "إنني رأيت أنه لا يكتب أحد كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد هذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر".

فالكمـــال لله وحـــده، وحســـبي أننـــي بذلت ما استطعت من جهد، فإن وفقت فيه إلى الصـــواب، فمـــن الله وحـــده، وإن يكن غير ذلك فمن نفسي، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الفصل الأول

مكانة المرأة الأدبية واتجاهات نثرها وأعلامه ومصادره وما بقي منه

- مفهوم أدب المرأة النثري
- مكانة المرأة الأدبية حتى نهاية القرن الثاني
- فنون نثرها وأعلامه ومصادره وما بقي منه

مفهوم أدب المرأة النثري:

وقف عدد من الدارسين المعاصرين عند مفهوم الأدب النثري، فذهب عمر فروخ إلى أنــه "الأدب الــذي لا يخضع شكله لقوانين الشعر"[١]. ورأى بروكلمان أنه:"فن التأثير بالكلام المتخير، الحسن الصياغة والتأليف في أفكار الناس وعزائمهم" [٢] واشترط طه حسين في النثر الأدبـــي شروطاً خاصة، ووجد أنّ النثر ما كان "فيه من مظاهر الجمال، وفيه قصدٌ إلى التأثير فـــي النفس" [٣] واقترب منه شوقي ضيف في هذا الحد، فهو يرى أن النثر الأدبي ينحصر في: "النــثر الــذي يقصد به صاحبه إلى التأثير في نفوس سامعيه، والذي يحتفل فيه من أجل ذلك الصــياغة وجمــال الأداء" [٤] فــي حيــن عرّفه أحمد الشايب بـــ "الكلام الذي يصوّر العقل والشعور ولا يتقيد بوزن وقافية"[٥].

ومن جملة الآراء السابقة التي قدّمها عرب ومستشرقون يبدو أن النثر استعمال خاص للغــة أو تشكيل لغوي غير مألوف ينماز عن الشعر بعدم التزامه الوزن والقافية، وبذلك يمكن تعــريف الأدب النــثري علــى أنه استعمال خاص للغة مع عدم التزام بوزن أو قافية، لتحقيق غايات بعينها، وتتمثل هذه الغايات بـــ: الجمال والإدهاش والإمتاع إلى جانب أداء الفكرة التي تكون صلب هذا الأدب النثري. [٦]

بعــد التعرف إلى مفهوم الأدب النثري وعرض بعض آراء المعاصرين في حدّه يلوح للــدارس تســاؤل مفاده: هل يقتصر الأدب النثري على الرجل دون المرأة، أم أن النثر شأنه شأن الفنون الأخرى ليس حكراً على الرجل؟

---

(١) عمر فروخ، **تاريخ الأدب العربي**، الطبعة الرابعة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، ص ٤٤.

(٢) بروكلمان، **تاريخ الأدب العربي**، نقله إلى العربية رمضان عبد التواب، راجع الترجمة السيد يعقوب بكر، الطبعة الخامسة، الجزء الأول، دار المعارف، القاهرة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣، ص١٢٩.

(٣) طه حسين، **في الأدب الجاهلي**، دار المعارف، القاهرة، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م، ص٣٢٦.

(٤) شــوقي ضيف، **العصر الجاهلي**، الطبعة السادسة عشر، دار المعارف، القاهرة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، ص ٣٩٨.

(٥) أحمــد الشــايب، **أصول النقد الأدبي**، الطبعة الثامنة عشر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ص٣٢٨.

(٦) محمــود المقــداد، **تاريخ الترسل النثري عند العرب في الجاهلية**، الطبعة الأولى، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص٦٤.

ويـــتراءى للـــناظر ههـــنا أنّ الأدب النثري لا يقتصر على جنس دون جنس آخر، بل يتســـاوى الجنسان الرجل والمرأة في عملية الإنتاج الأدبي عامة، ولا يحتاج الناظر إلى طويل تـــأمل حتى يكتشف أنّ المرأة طرقت فنون النثر كما طرقها الرجل سواء بسواء، وأنها نوّعت في الأجناس الأدبية التي تناولتها فألقت الخطبة، وتبادلت الرسائل، وقدّمت الوصايا، وتحاورت مـــع غـــيرها من الرجال وناظرتهم، سواء أكانت حرة أو جارية أو أعرابية أو حضرية، ولم تقصر في تعاطي هذه الأشكال النثرية، بل أثبتت مقدرة أدبية خولتها أن تنافس الرجل أحياناً.

وهكـــذا يمكـــن تعريف أدب المرأة النثري بأنه ما أنتجته المرأة العربية، حرّة كانت أم جاريـــة أم أعرابـــية أم حضـــرية، مـــن الفنون النثرية المختلفة كالخطب والوصايا والرسائل والمناظرات والأمثال وغيرها.

وينبغي قبل المضي أن تشير الباحثة إلى أن همّ هذه الدراسة ينصب على درس النتاج النثري الذي أفرزته المرأة، وليس من همّ البحث ههنا أن يقف عند الأدب النثري الذي قيل في المرأة، أو استخلاص صورة المرأة من نثر تلك المدّة، فذاك له ميدان آخر، إنما تعنى الدراسة بما قالته المرأة نفسها، لا بما قيل عنها.

مكانة المرأة الأدبية حتى القرن الثاني:

١- في العصر الجاهلي:

كانـــت الصـــحراء العربية بطبيعة مناخها وعادات أهلها وتقاليدهم مدرسة الشعرُ أهمّ المواد فيها، سجّل العرب فيه أيامهم ومساجلاتهم وحروبهم وعاداتهم وأخبارهم وحكمتهم حتى قيل: "الشعر ديوان العرب".

وقـــد نظم الشعر رجال عرفوا الفصاحة والبلاغة، فكان يأتي سليقة تنطلق به ألسنتهم مـــن غـــير تصنع أو تكلف، وقد تساوى في نظم الشعر الجنسان -الرجل والمرأة- فلم يقتصر قول الشعر على الرجال دون النساء.

واشـــتهر من نساء العرب شواعر خلدن أسماءهن بين فحول الشعراء، وتألقت المرأة العربـــية، وقدمت في ذلك عطاءً ثرّاً، على أن ما وصل إلينا من شعرها يعد قليلاً إذا ما قيس بما وصل إلينا من شعر الرجال، ولعل ذلك يعود إلى طبيعة الظروف الاجتماعية، فالشاعر هو

فـــارس القبـــيلة ولسان حالها، لذلك كان الاهتمام بحفظ شعره وتناقله أكثر من الاهتمام بشعر المرأة[١].

كـــان بدهـــياً أن تشارك المرأة الرجل في نظم الشعر وهي التي نبتت المنبت البياني، وألفـــت أذنها صحيح القول وموزونه على اختلاف النسبة من عصر إلى عصر، ومن بيئة إلى بيـــئة بقـــدر ما أتاحت فطرتها وسمحت بيئتها من غير شطط ولا لجاج، فكان من نساء العرب شاعرات أجدن القول وبلغن الشهرة وكان أكثر شعرهن وأبلغه وأجوده في العصر الجاهلي[٢].

ومـــن أبـــرز الأمـــثلة التـــي يمكن الاستشهاد بها في هذه السبيل الخنساء بنت عمرو الشـــريد، وهي في أشعارها التي رثت فيها أخويها صخراً ومعاوية، ولم تقف الخنساء عند هذا الحـــد في نظم الشعر، بل حاورت الشعراء وتحرت مواضع الزلل في قصائدهم، وفضلت شعر بعضهم على شعر الآخرين.

لـــم تغتمر المرأة العربية في العصر الجاهلي حومة البيان الشعري، فحسب بل جادت فـــي فنون النثر خطباً ووصايا ورسائل ومناظرات وأمثالاً تنم عن بلاغة وفصاحة وبيان، لكن دارس أدب المرأة في العصر الجاهلي يلحظ قلة نثرها مقارنة مع شعرها من جهة ونثر الرجل من جهة أخرى، وضياع أكثر ذلك النثر من جهة ثالثة.

لـــم تكن المرأة العربية في تلك الآونة مصابة بالعقم الأدبي، ولعل قلة نثرها في الشعر عامـــة والنـــثر خاصة يعود إلى حالة العبودية التي كانت تعيشها بسبب تقاليد العصر وعاداته ومعتقداته التي تتفاوت من بيئة إلى بيئة، ومن قبيلة إلى قبيلة.

فعلـــى سبيل المثال كانت تتمتع في بعض الأوقات بشيء من الحرية كاختيارها الزوج والطـــلاق إذا وجـــدت معاملة سيئة من الزوج وكانت على درجة من المساواة مع الرجل، ولم تعامل معاملة كمملوكة لإرادته[٣].

لكـــن هذا لا ينفي وجود أدب للمرأة الجاهلية، فقد وجدت الباحثة أن عدداً من الشواعر والـــناقدات والأديبات لمعت أسماؤهن ووصلت أخبارهن وفق ما أتاحته الفرصة لهن. اغتمرت

---

(١) عبد الله حسين أحمد البشايرة، "**دور المرأة العربية في الحياة العامة في صدر الإسلام حتى نهاية الدولة الأموية**" رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، عمان، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، ص ٢٢.

(٢) كمـــال رشـــيد، "شاعرات العرب"، **مجلة الخفجي**، السنة الثانية عشر، العدد الأول، شركة الزيت العربية المحدودة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص ٣٦.

(3) Reynold Nickolson, Aliterary History of Arab, Compridgeat the University press, 1962, p88.

المـــرأة العربـــية ميدان الأدب قائلة وناقدة، وقد أخذت على الرجال مواطن الزلل فيما ابتدعوه وتـــأنقوا فيه فقالت الكلام المنثور والشعر الموزون، وقد وجدناها تخطب بين جمع من الرجال بلغـــة سليمة فضلاً عن الجرأة والشجاعة، وقد نبغ في ذلك العصر عدد من الكواهن أشهرهن: الزَّبْرَاء[١]، والشَّعْثَاء[٢]، وعُفَيْراء[٣] وغيرهن.

كمـــا حرصت المرأة العربية بوصفها أماً أن توصي أبناءها خاصة ابنتها، كما أوصت أمامـــة بنـــت الحارث ابنتها ليلة زفافها[٤]، وتعد وصيتها من الوصايا الخالدة لما تزخر به من موضـــوعات ونصائح نافعة للزوجة في كل العصور، ولما تتميز به من لغة رصينة واستخدام لغوي مسبوك، فضلاً عما وصل إلينا من وصايا الأعرابيات.

وكمـــا هـــي حريصة على ابنتها كذلك فهي حريصة على ابنها، إذ كانت غالباً ما تقوم مقـــام الأب فـــي حالة غيابه أو موته، فتوصي ابنها في حطه وترحاله وتحذره من الوقوع في الـــزلل إذ أنهـــا فـــي الحالتين كلتيهما تقدم خبرتها وحصيلة تجربتها في الحياة لفلذات أكبادها لينتفعوا بها في الأيام القادمة[٥].

وإذا مـــا اعـــتز العرب بمن ضربوا الأمثال، ونشروا الحكمة من الرجال، فإن للنساء حضـــورهن كذلك[٦]، فكتب الأمثال العربية مليئة بما ورد عن المرأة من فصيح القول وبليغه ممـــا أصبح مثلاً يضرب[٧]. عاشرت المرأة الرجال وعرفتهم فرأت أن مظهرهم لا يخبر عن مخـــبرهم، فذهـــب قـــول عثمة بنت مطرود في حقهم مثلاً "ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما

---

(١) انظـــر القالـــي، **الأمالي**، الطبعة الأولى، الجزء الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، ص ١٢٦-١٢٧.

(٢) الميدانـــي، **مجمع الأمثال**، دقق أصوله وعلق عليه سعيد محمد اللحام، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، دار الفكر، بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ص ٦٧.

(٣) الألوسي، **بلوغ الأرب**، الطبعة الثانية، الجزء الثالث، (د.ن)، ص ٢٩٦- ٢٩٨.

(٤) الوشـــاء، **الفاضـــل فـــي صفة الأدب الكامل**، تحقيق يحيى وهيب الجبوري، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١١هـ / ١٩٩١م، ص ٢٢٣- ٢٢٤.

(٥) **المصدر نفسه**، ص ٢٢٢. وانظر الآبي، **نثر الدر**، تحقيق محمد علي قرنة وحسين نصار، الجزء الرابع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م، ص ٨٨.

(٦) العســـكري، **جمهرة الأمثال**، تحقيق محمد أبو الفضل وعبد المجيد قطامش، الجزء الأول، الطبعة الثانية، دار الجـــيل، بـــيروت، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠، ص ٥٠٣، ص ٢٧١، ص ١٤٢. وانظـــر الميدانـــي، **مجمع الأمثال**، الجزء الأول، ص ٦٨، ص ١٧٢، ص٤٩٤، ص ١٣٠.

(٧) البشايرة، "**دور المرأة العربية في صدر الإسلام حتى نهاية الدولة الأموية**"، ص ٢٩.

الدخـــل"[١]. وكذلـــك ذهـــب قـــول عصام، وهي امرأة من كندة، مثلاً: "ترك القناع من كشف الخداع"[٢] وغير ذلك من الأمثال التي يستقى منها العبرة والعظة.

وقـــد شـــهدت المـــرأة فـــي ذلـــك العصر الأسواق الأدبية، وشاركت في المحاورات والمـــناظرات بكـــل مـــا أوتيـــت من فصاحة وحسن بيان، ففي عكاظ تحاورت كل من هند[٣] وجمعة[٤] ابنتي الخس مع القلمّس الكناني[٥]. ولم يقتصر نشاطها على سوق عكاظ فحسب، بل جاوزتـــه إلـــى ســـوق ذي المجاز، وفيه تحاورت امرأة من كندة مع عمرو بن معد يكرب[٦] فكانت مثال المرأة الحرة الجريئة الفصحية[٧].

٢ـ في صدر الإسلام:

يســـتدعي الحديـــث عـــن مـــنزلة المـــرأة الأدبية في صدر الإسلام معرفة الظروف الاجتماعـــية والثقافية التي شاركت في تكوين شخصيتها الأدبية، فعندما ظهر الإسلام في حياة العرب أحدث انقلاباً في نظم حياتهم كلها، وقد أصاب هذا الانقلاب أيضاً حياة المرأة، إذ عزز مكانتها، فقد كرم الإسلام المرأة، وأوصى بها خيراً، ورفع من شأنها في سائر المناحي.

نعمت المرأة في ظل الإسلام بحياة لم تكن تنعم بها من ذي قبل، فقد جعل لها الميراث والـــتعلم، ومشـــاركة الرجل في مختلف الميادين، ولما ميز الإسلام الرجل عن المرأة وفضله

---

(١) الميداني، **مجمع الأمثال**، الجزء الأول، ص ١٧٢. وانظر: المفضل بن سلمة، **الفاخر في الأمثال**، تحقيق عـــبد الحلـــيم الطحاوي، الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربية عيسى الحلبي، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م، ص ١٥٦.

(٢) **المصدر نفسه**، ص ١٨٤.

(٣) هند وجمعة ابنتا الخس كلتاهما شاعرة وخطيبة من ذوات الفصاحة والبلاغة والحكمة في الجاهلية. انظر: عمـــر رضـــا كحالة، **أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام**، الجزء الخامس، الطبعة الثانية، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٤٠٥هـــ/ ١٩٨٤، ص ٢٣١.

(٤) **المصدر نفسه**، الجزء الأول، ص ٢٠٦.

(٥) حســـن فالح حسين فالح، **"أسواق العرب في الجاهلية والإسلام حتى نهاية القرن الثالث الهجري وأثرها في اللغة والأدب والأساطير"**، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ص٥١.

(٦) ابـــن طيفور، **بلاغات النساء**، اعتنى به وفهرسه بركات يوسف هبود، الطبعة الأولى، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢١هـــ/ ٢٠٠٠م، ص ٧٠.

(٧) القالـــي، **ذيـــل الأمالـــي**، الطبعة الثانية، الجزء الثالث، مراجعة لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق، بيـــروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، ص١٥٠.

درجة كان ذلك بسبب القوامة الاقتصادية: ﴿**الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض**﴾[1] ولكن الإسلام فرض على الرجل حق رعاية المرأة والنفقة عليها وحمايتها من أي أذى[2].

وفي ظل الإسلام أيضاً شاركت المرأة في كل الفعاليات الاجتماعية والسياسية، وكان لها وجودها النشط في ساحات القتال، وفي الأسواق، وفي لقاءات المساجد، ورواية الحديث والإفتاء في أمور دينها[3]. فقد بايعت النبي عليه الصلاة والسلام كما بايعه الرجال بعد فتح مكة، وبذلك فقد أعطى النبي عليه الصلاة والسلام المرأة حق الحضور والمشاركة والتساؤل والاستفسار والحوار والمناقشة فيما يتعلق بحقوقها وواجباتها[4].

أما في مجال الأدب، فقد كان للمرأة حضورها المتميز، فقد حظيت بقسط وافر من الحرية وتكريم الشخصية وإعلاء الشأن وتحريرها من العبودية، وهذا كله أفضى إلى تنامي نشاطها وحضورها في الأدب شعراً ونثراً، وقد شاركت المرأة العربية في بداية الدعوة في الأحداث السياسية والمعارك والغزوات، فنظمت القصائد والمقطوعات الشعرية تشجع فيها المسلمين وتحرضهم وتستثير هممهم ضد المشركين.

ومن أبرز الشواعر اللواتي يمكن التمثل بهن في هذه السبيل هند بنت عتبة وهند بنت أثاثة، وقد ناقضت إحداهما الأخرى، فهذه هند بنت عتبة تقول بعد قتلها حمزة بن عبد المطلب:

نحنُ جزيناكم بيوم بَدْر ... والحربُ بعد الحربِ ذاتُ سعر
شفيتَ نفسي وقضيتَ نذري ... شفيتَ وحشيُّ غليلَ صدري[5]

فأجابتها هند بنت أثاثة:

خزيتِ في بدر وبعدَ بدر ... يا بنتَ وقاع عظيمَ الكفر[6]

---

(١) **سورة النساء**، آية ٣٤.

(٢) عبد الحافظ محمد سلامة، **المرأة**، الطبعة الأولى، دار الفكر، عمان، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م، ص ٤٨.

(٣) إقبال البركة، "إبداع المرأة"، **مجلة أدب ونقد**، العدد ١٣٣، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ص ١٢٦.

(٤) مي يوسف خليف، **الشعر النسائي في أدبنا القديم**، مكتبة غريب، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، ص ٦٤- ٦٥.

(٥) ابن هشام، **السيرة النبوية**، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، الجزء الرابع، الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، ص ٤٠.

(٦) **المصدر نفسه**، الجزء الرابع، ص ٤٠.

وإلى جانب هاتين الشاعرتين نظمت الخنساء وليلى الأخيلية الشعر الذي يحمل المعاني الإسلامية والمضامين الدينية.

أما في ميدان النثر، فقد برز عدد من الخطيبات المفوهات، وكنّ مثلاً للفصاحة والبلاغة، فخطبن وأوصين وناظرن وكاتبن وضربن الأمثال متمثلات بمعاني القرآن الكريم وأسلوبه وبالحديث الشريف لغة وأسلوباً.

وتسوق كتب الأدب ولا سيما " بلاغات النساء " لابن طيفور، و" العقد الفريد " لابن عبد ربه، و"نثر الدر" للآبي وغيرها من كتب الأدب أخبار بعض النساء وخطبهن، ويدرك دارس خطبهن مدى فصاحتهن واقتدارهن على التصرف في القول، ورسوخ قدمهن في تعاطي هذا اللون من ألوان التعبير النثري العربي بخلاف ما ذهب إليه أحمد الحوفي حين قال : "...ولا نعرف من النساء خطيبة استطاعت أن تبرع في الفن الخطابي براعة تدانيها أحد هؤلاء، ومن الحق أن نذكر ما كان للصراع السياسي بين علي ومعاوية من أثر في شهرة بعض النساء بمواقف خطابية، إذا صحت أخبارها فإنها لم تتجاوز المواقف الطارئة التي كانت شذوذاً على القاعدة، وربما كان ما روي عن بعضهن من قبيل الوضع والدعاية السياسية، أو كانت تضخيماً لحديث ألفته امرأة في جمع من الحزب السياسي"(١).

وإخال أن الخطب التي بين أيدينا يقع منها الدليل على ضد ما يراه الحوفي ههنا، إذ أن الحوفي ينفي ههنا أن تكون المرأة خطيبة ملمة بأصول الخطابة، ثم وصف ما كان منها في موقعتي الجمل وصفين بالمواقف الطارئة، ولم يكتفِ بذلك بل انتهى الأمر به إلى التشكيك في نسبة هذه النصوص الخطابية التي وصلت إلينا.

أصابت المرأة العربية في ذلك العصر نصيباً من الخطابة بدءاً من الدعوة الإسلامية وانتهاء بعصر الراشدين وخلافة علي بن أبي طالب، فأسماء بنت يزيد مثلاً عرفت بفصاحتها وطلاقة لسانها ودربته على التصرف في القول وفنون الكلام فلقبت بخطيبة النساء(٢).

وقد نالت إعجاب سيد الخلق عليه الصلاة والسلام فأثنى على مقولتها أمام المسلمين عندما راحت تطلب منه مساواة المرأة مع الرجل في المشاركة بالجهاد وفضيلته حتى قال

---

(١) أحمد الحوفي، **فن الخطابة**، الطبعة الخامسة، دار نهضة مصر، القاهرة، (د.ت)، ص ٢٠٨.

(٢) ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، دراسة وتحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الجواد وعلي محمد عوض، الجزء الرابع، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ص٢٣٤.

لأصحابه: "هل سمعتم مسألة امرأة قط أحسن من مسألتها في أمر دينها من هذه؟"(١). وقد استغرب الرجال من حسن فصاحتها وإبانتها وقدرتها على الوصف حين وصفت أم معبد الرسول عليه الصلاة والسلام، فقيل لها: "ما بال صفتك أوفى وأتم من صفتنا؟"(٢).

ازدهرت الخطابة في عصر صدر الإسلام ازدهاراً واضحاً، إذ توفرت العوامل لشيوعها فمن فصاحة عربية إلى تصرف في ضروب الكلام، ومن انقلاب ديني عظيم إلى انقلاب سياسي عظيم، ومن حروب وفتوح إلى خروج وعصبيات(٣).

وفي ضوء ذلك تأثر إبداع المرأة سلباً وإيجاباً بالتحولات الفكرية التي أتى بها العصر الإسلامي، وتعد السيدة عائشة نموذجاً استثنائياً للمرأة في هذه المرحلة بسبب تمكنها من الاندماج في الأجواء الثقافية والسياسية(٤). وقد كانت للسيدة عائشة أم المؤمنين خطب رائعة توفرت فيها سمات الخطابة فضلاً عن سمات الخطيب نفسه كحضور البديهة وطلاقة اللسان والفصاحة والبلاغة والعلم والاطلاع، ولا ريب في ذلك فهي من أشهر رواة الحديث إلى جانب حفظها القرآن الكريم.

ويجد من يتتبع خطب السيدة عائشة أن معظم هذه الخطب تدور حول موضوع سياسي واحد هو الخلافة، فمنها خطبة ترثي فيها أباها(٥)، وخطب تدعو فيها إلى الثأر(٦) من قتلة عثمان بن عفان وخروجها في يوم الجمل، وتأليب الناس على علي بن أبي طالب. وكانت السيدة عائشة تتميز بالفصاحة والبلاغة، فقد قال عنها معاوية بن أبي سفيان: "والله ما سمعت خطيباً -ليس رسول الله ﷺ- أبلغ من عائشة"(٧). ومن السيدات اللواتي برزن أيضاً في غمرة الأحداث السياسية التي شهدها العصر السيدة فاطمة الزهراء، ومن أشهر خطبها خطبتها في

---

(١) العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، الجزء الرابع، ص ٢٣٤. وانظر: محمد رضا الحكيمي، **أعيان النساء عبر العصور المختلفة**، الطبعة الأولى، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص ٣٧.

(٢) الآبي، **نثر الدر**، الجزء الرابع، ص ٨٧.

(٣) بطرس البستاني، **أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام**، دار مارون عبود، (د.ت)، ص ٢٨٥.

(٤) رشيدة بنمسعود، **المرأة والكتابة سؤال الخصوصية وبلاغة الاختلاف**، الطبعة الأولى، أفريقيا الشرق، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ص ١١.

(٥) الآبي، **نثر الدر**، الجزء الرابع، ص ١٩.

(٦) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، شرحه وضبطه وصححه أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، الجزء الرابع، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٣٦٣هـ/ ١٩٤٤م، ص ٣١٤.

(٧) الذهبي، **سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط وحسين الأسد**، الجزء الثالث، الطبعة العاشرة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٤م، ص ١٤٧.

فـدك[١]، إذ بلغت خطبتها في جمهورها مبلغاً شديداً حتى أجهش الناس بالبكاء. ومن الخطيبات المفوهـات أيضـاً عكرشـة بنـت الأطرش[٢] ولها خطبة شديدة الوقع، قوية النفس، رصينة الأسـلوب، تحـرض فـيها الجند على القتال. ومنهن أيضاً الزرقاء بنت عدي أثارت إعجاب معاويـة بن أبي سفيان في موقعة صفين، وبعد أن استقر الأمر لمعاوية طلب أن تَفِد إليه فسأل مَـنْ عـنده مـن الرجال مَنْ يحفظ خطبتها يوم صفين؟ فقال أحدهم: "أحفظها كحفظي سورة الحمد"[٣].

ومن هنا، فإن وصف الحوفي خطبهن بالمواقف الخطابية الطارئة إجحاف بحق المرأة العربـية وانتقاص من منزلتها الخطابية إذ توفرت في خطبهن عناصر الخطبة وسماتها الفنية مع سلامة اللغة وروعة القول.

ومـن الفـنون النـثرية الأخرى فن الوصية، فقد أجادت المرأة العربية في وصاياها متأثرة بلغة القرآن الكريم وبالحديث الشريف وأسلوبه، ونوعت في موضوعات وصاياها فكان لهـا وصـايا اجتماعـية وسياسـية، كوصية هند بنت عتبة لابنها معاوية بن أبي سفيان، وقد اسـتعمله عمر بن الخطاب، وتبين هذه الوصية حنكة هذه المرأة السياسية حين راحت تبث في ابـنها تلـك الصفات التي أهلته للقيادة وليكون في سياسته وطريقة حكمه أقدر من ساس دولة عظمى، لا ينقصه لين، فاستطاع بدعمها وتشجيعها أن يصبح خليفة المسلمين[٤].

وفضلاً عن الوصايا عرفت المرأة الرسائل السياسية التي تبادلتها مع غيرها من النساء والـرجال، فقـد أجـادت الكتابة وأصولها، وقد تأثرت بأسلوب القرآن الكريم والمعاني الدينية والإسلامية، ومن ثم تراوحت رسائلها بين الإيجاز والإسهاب[٥].

ومن هنا يمكن القول أن عصر صدر الإسلام شهد ازدهار أدب المرأة النثري، إذ كان مـناخاً جيداً لنمو أدبها، وبيئة خصبة أنتجت فيها ألوان النثر الأدبي المختلفة، وقد كان للإسلام أثره في الموضوعات التي طرقتها وفي لغتها الأدبية، كما سنرى فيما بعد.

---

(١) ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص ٢٩- ٣٣.

(٢) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الثاني، ص ١١١.

(٣) **المصدر نفسه**، الجزء الثاني، ص ١٠٨. وانظر: ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص ٤٩- ٥١.

(٤) فائـزة عـبد الحميد، **المرأة في ميادين الكفاح**، وزارة الثقافة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، دار الكاتب العربي، ١٣٧٦هـ/ ١٩٦٧م، ص ٣٩.

(٥) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الرابع، ص ٣١٦- ٣١٧.

٣ـ في العصر الأموي:

ظهـرت في العصر الأموي المعارف الدينية بصورة نسبية، إذ تقدمت الآداب والعلوم مـن فقـه وعلـم كلام وأدب ونحو ذلك، وكان من الطبيعي أن تشارك المرأة في هذه الحركة وتطلـب جمـيع العلـوم والمعـارف، وتتكـبّ على دراسة الشريعة والفقه والحديث والشعر والأدب[١].

كمـا تـبوأت المرأة في العصر الأموي مكانة أدبية رفيعة، إذ شهد هذا العصر نهضة الحرائـر الأدبـية، فعرفـت كـل من سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة على أنهما من أصـحاب الـندوات الأدبية التي يجتمع فيها الأدباء والشعراء[٢]. وهذا يشير إلى تشجيع المرأة الأدب والعـناية بـه وتبادلها مع الرجل ألوان الأدب شعراً ونثراً استمراراً للجرأة الأدبية التي كانت المرأة عليها في عصر الخلفاء الراشدين.

وفضـلاً عن ذلك، فقد ظهرت ثقافة الجواري في الأدب وفنون الغناء والموسيقا ومن أشهرهن: الزلفاء وسلامة وجميلة الخزرجية[٣]. وإلى جانب هذه الصورة المشرقة كانت هناك صـورة قائمة ترسخت بفعل بعض الأفكار التي هيمنت على الموروث الثقافي في هذا العصر عـن كـون المرأة قاصرة عن الرجل، وأنها خلقت لتكون متعة له، ولا شك أن هذه التحولات الاقتصـادية وازدياد الثروة، واختلاط العرب بالأعاجم، وبروز العصبيات القبلية، والاعتبارات العشـائرية علـى أثـر النزاعات السياسية في صدر الإسلام والعصر الأموي كان لها الدور البارز في تحول صورة المرأة من طبيعة إلى أخرى[٤].

---

(١) باسمة كيال، **تطور المرأة عبر التاريخ**، مؤسسة عز الدين، بيروت، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، ص٨٧.

(٢) محمد بهجة البيطار، "المرأة في عهد النبوة وفي عصرنا الحاضر"، **مجلة المجتمع العلمي العربي**، المجلد السـابع عشـر، الجـزء الأول والثانـي، دمشق، ١٩٤٢م، ص٢٩- ٤٧. وانظر: رمزية الأطرقجي، "شهيرات نساء العصر الأموي، **مجلة المؤرخ العربي**، العدد الرابع عشر، بغداد، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م، ص ٢١٦.

(٣) الوشاء، **الفاضل في صفة الأدب الكامل**، ص٢٣٢-٢٣٣. وانظر: أمل طاهر، "المرأة في الحياة العربية عـند أعـلام الشـعر الأموي، رسالة دكتوراة، الجامعة الأردنية، عمان، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، ص١٠٣. وانظـر: هويـدا بخـاري، "شعر المرأة في صدر الإسلام من البعثة النبوية إلى نهاية عصر الخلفاء الراشدين"، رسالة ماجستير، جامعة حلب، حلب ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م، ص ١٥١.

(٤) ضـياء عبد الله الكعبي، "صورة المرأة في السرد العربي القديم"، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، عمان، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص ٦.

كـــان للمـــرأة العربـــية في العصر الأموي باع في مجال الخطابة، إذ ظهر إلى جانب الخطابـــة السياســـية خطب التأبين، كما رثت صفية بنت هشام المنقرية الأحنف بن قيس[١] في خطـــبة تأبينـــية تضـــيف فيها إلى صدق العاطفة وحرارتها حسن التعبير. كما تذكر المصادر العربـــية أن أروى بنـــت عبد المطلب كانت من أغلظ الوافدات من النساء على معاوية بن أبي ســـفيان[٢]. وقد أرسلت المرأة العربية في ذلك العصر قلمها لتكتب الرسائل، لا سيما السياسية مـــنها، كمـــا كتبـــت نائلة بنت الفرافصة إلى معاوية بن أبي سفيان[٣]، تقص عليه حادثة مقتل عثمان بن عفان، ثم تستنهض الهمم للأخذ بثأره.

وقـــد ارتـــادت المـــرأة أيضاً فن المناظرات، فوقفت تناظر الرجل ثابتة على موقفها، حازمـــة في رأيها، مؤمنة بعقيدتها، وقد أصابت في ذلك العصر جرأة وشجاعة لا مثيل لها، إذ ناظـــرت الخلـــيفة نسوة أمثال عكرشة بنت الأطرش[٤] والزرقاء بنت عدي[٥]، وقد أكدن حق علي بن أبي طالب في الخلافة دون معاوية بن أبي سفيان.

وفضـــلاً عن ذلك، فقد كان لها بعض المناظرات والمحاورات الاجتماعية التي تميزت بســـرعة الـــبديهة وطلاقـــة اللســـان والإيجـــاز، و الفصاحة، كما جرى بين هند بنت النعمان والحجاج[٦].

ولا ننســـى مـــا كان للجواري والإماء من دور مهم في الأدب، إذ كان منهن الكاتبات لدى الولاة، وتذكر المصادر أن عمر بن هبيرة كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وكان إذا أتاه كتاب فتحه ونظر فيه كأنه يقرأه، فإذا نهض من مجلسه حملت الكتب معه، فيدعو جارية كاتبة ويدفع إلـــيها الكتب، فتقرؤها عليه ويأمرها فتوقع بما يريد ويخرج الكتاب، فاسترتاب منه بعض كتابه،

---

(١) ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص ٦٦- ٦٧.

(٢) ابـــن حجة الحموي، **ثمرات الأوراق في المحاضرات**، شرحه وضبطه مفيد محمد قميحه، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣، ص ١٠٩.

(٣) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الرابع، ص ٣٠٠- ٣٠١.

(٤) **المصدر نفسه**، الجزء الرابع، ص ١١١.

(٥) **المصدر نفسه**، الجزء الرابع، ص ١٠٨.

(٦) السيوطي، **تحفة المجالس ونزهة المجالس**، الطبعة الأولى، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م، ص٢٨٩- ٢٩٠. وانظـــر: الأبشـــيهي، **المســـتطرف من كل فن مستظرف**، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م، ص٥٤.

فكتب كتاباً على لسان بعض العمال وطواه منكساً أعلاه إلى أسفله، فلما أخذه ونظر فيه لم ينكره، وتحقق أنه أمي"[١].

وكان الخلفاء يقدرون الجارية أو السبية بقدر ما عندها من فنون العلم والأدب، وليس هذا فحسب، بل غالوا في أثمانهن لحرص النخاسين على تعليمهن مما أتاح الفرص الكبيرة لنبوغ كثير منهن في الأدب والفنون كسلامة، وحبابة، والزلفاء وغيرهن[٢].

٤ـ في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثاني الهجري:

شهد العصر العباسي تزايداً في الاختلاط بالعناصر الأجنبية، وتوغلت الثقافات الفارسية والتركية واليونانية وغيرها في الثقافة العربية الإسلامية، فأفضى ذلك إلى تغيير جذري في عادات المجتمع وتقاليده ونجاحه في المجتمع النسائي[٣]، فضلاً عن تكاثر الجواري والتسري بهن، فاختلطت دماؤهن بدماء العرب، وكثر نسلهن بما في ذلك الطبقة الأرستقراطية والعامة[٤]، وقد أدى ذلك إلى ارتباط المرأة بصورة الجارية "فكان لهذا الطغيان على صورة الواقع الحقيقي نتائج خطيرة أخفت معالم الصورة الحقيقية، ولا سيما صورة المرأة الحرة، والمرأة العاملة، وصورة المرأة الزوجة، والابنة والأخت[٥].

شاركت المرأة في العصر العباسي، حرة كانت أم جارية، في الحركة الأدبية ، بيد أن مشاركة الحرائر كانت محدودة؛ لأن الظروف اقتضت ظهور الجواري في المجتمعات العامة حيث يثبتن أهليتهن الثقافية والأدبية[٦]. ومن الحرائر اللواتي برزن في العصر العباسي السيدة زبيدة زوج هارون الرشيد وأم محمد الأمين، إذ كانت شاعرة وأديبة، صاحبة آراء سديدة في السياسة، وإلى جانبها العباسة وعلية أختا الرشيد اللتان عرفتا بثقافتهما وكمال أدبهما، وقد قيل

---

(١) التوحيدي، **البصائر والذخائر**، تحقيق وداد القاضي، الطبعة الأولى، الجزء الخامس، دار صادر، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص ١١٣. وانظر: الآبي، **نثر الدر**، الجزء الرابع، ص ١٠٩.

(٢) الوشاء، **الفاضل في صفة الأدب الكامل**، ص ٢٣٢- ٢٣٣. وانظر: باسمة كيال، **تطور المرأة عبر التاريخ**، ص٨٩- ٩٠.

(٣) جرجي زيدان، **تاريخ التمدن الإسلامي**، الجزء الخامس، مكتبة الحياة، بيروت (د.ت)، ص٢٧.

(٤) ضياء عبد الله الكعبي، "**صورة المرأة في السرد العربي القديم**"، ص٧.

(٥) وديعة طه النجم، "أضواء على منزلة المرأة في العصر العباسي"، **مجلة عالم الفكر**، المجلد الثامن عشر، العدد الأول، الكويت، ص٢٢١.

(٦) سائدة سلام، "**المرأة في الأدب النثري في العصر العباسي الأول**"، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م، ص١٥٥.

إن علـية كانـت من أجمل الناس وأطرفهم وأعقلهم وأمهرهم في صناعة الموسيقا والألحان، وكانت عفيفة حسنة الدين، ولها ديوان شعر[١].

وقـد بـرزت المرأة في العصر العباسي موقّعة كالسيدة زبيدة أم جعفر، فقد روي عن جعفـر ابـن سـعيد رضيع أيوب بن جعفر وحاجبه، قال: "ذكرت لعمرو بن مسعدة توقيعات جعفـر بن يحيى، فقال: قد قرأت لأم جعفر توقيعات في حواشي الكتب وأسافلها فوجدتها أجود اختصاراً وأجمع"[٢].

وفـي فن الخطابة، نوعت المرأة العربية في أغراض خطبها وجددت في موضوعاتها فظهـرت خطـب التهنئة كخطبة السيدة زبيدة في تهنئة المأمون بالخلافة[٣]، فضلاً عن خطب الاستعطاف والاستجداء التي اعتمدت المرأة فيها على اللغة البليغة المؤثرة لتنال العطاء وتثير شـفقة المسـتمعين علـيها. وقد عرفت فن الوصية فأجادت فيه شكلاً ومضموماً، وقد تفردت السـيدة زبـيدة عن غيرها في وصيتها لعلي بن عيسى بن ماهان لما وجهه الأمين لقتال جيش المأمون إذ أنها موجهة من امرأة إلى قائد جيش[٤].

وإلى جانب ذلك، فقد أحاطت ابنها أو من يهمها أمره في سفره بمجموعة من الوصايا ليـتزود بهـا فـي طريقه المجهول وغده القادم. وقد عرفت أيضاً فن المناظرة والمحاورة فأم جعفـر حـاورت الرشيد في مجلسه متخذة من فصاحتها وقوة لغتها وسيلة ضغط على الخليفة محاولة إثارة عواطفه إذ أنها مرضعته.

وتنوعـت رسائلها في الأغراض وفي السمات الفنية، فمن رسائل سياسية إلى رسائل شخصـية واستطاعت المرأة التعبير عن غرضها بلغة فصحية وواضحة، وقد تفاوتت رسائلها في الالتزام بعناصر الرسالة أو عدمه، وكذلك تفاوتت بين الإيجاز والإسهاب، فرسالة الجارية التي أهدت إلى المأمون فيها تفاحة طالت [٥].

ومن الجدير ذكره أن إعداد الجواري لتلك الحياة نبّه في كثير منهن ملكة قرض الشعر والقـول فـي فـنون النـثر لحسن استعدادهن الفطري وكثرة ما روين من الأشعار والفنون

---

(١) العاملي، **الكشكول**، الطبعة الأولى، دار الكتب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ص ٦٦٣.

(٢) الجـاحظ، **البيان والتبيين**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الجزء الأول، دار الجيل، بيروت، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، ص١٠٦- ١٠٧.

(٣) الآبي، **نثر الدر**، الجزء الرابع، ص٧٠.

(٤) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الخامس، ص٦٤.

(٥) **المصدر نفسه**، الجزء السادس، ص٢٨٧- ٢٨٨.

الفرصة السانحة للمشاركة في إثراء مسيرة الأدب والتعبير عن آرائها بحرية لا ينقصها الالتزام.

تعد خطب المرأة العربية في صدر الإسلام دليلاً على جرأة وشجاعة اتصفت بها المرأة آنذاك، كما تعد في الوقت نفسه دليلاً على الإبانة والتأثير، إذ انصبت موضوعاتها حول فتنة عثمان بن عفان –رضي الله عنه– والثأر له، والخلاف بين علي ومعاوية على أمر الخلافة، وما نجم عنه من حرب صفين والجمل، فكانت المرأة تحرض على القتال، وتستنهض الهمم، وتحث الرجال على الصبر والشجاعة، وتؤلب حزبها على الخصوم، وتنافح عن عقيدتها التي تؤمن بها، وقد دعمت خطبها بالشواهد القرآنية والأدلة المنطقية بلغة مؤثرة ولسان ينفث سهاماً حادة على الأعداء فيصيبهم ويزعزعهم.

أما في العصر الأموي، فكان ظهور المرأة أقل في ميدان الخطابة إلا أنها كانت أكثر جرأة وشجاعة، وتمثل ذلك في خطب بنات الحسين بن علي في مقتله[١]، وقد فاضت هذه الخطب الجميلة حزناً وأسىً ومرارة على مقتله وحملت تقريعاً شديداً لقتلته. فضلاً عن الوافدات من النساء على معاوية بن أبي سفيان وما تفوهن به من كلام يدل على ذكاء المرأة العربية الناثرة، وقدرتها على المحاورة ومقارعة الحجة بالحجة، والوقوف في وجه الخصم، والتعبير عن آرائها تعبيراً حراً جريئاً ما دامت ترى أن الحق في صفها.

أما في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثاني الهجري فلم يكن نصيبها من الخطابة أفضل من سابقه، بل اقتصر الأمر على خطب سياسية لبعض السيدات العباسيات، فضلاً عن خطب الأعرابيات في الاستجداء والاستعطاف، إذ كانت الصفة الغالبة على ما وصل إلينا من أدب المرأة العباسية لا يتعدى كونها أخباراً ونوادر وطرائف كانت تقع في المجالس أو في بعض المواقف، فتذكر أو تدون على سبيل التندر[٢].

ومن الفنون النثرية التي تعاطتها المرأة وبرزت فيها الوصية، إذ تركت جملة من الوصايا التي تدل على مكانتها النثرية، وقدرتها على تقديم آرائها في الحياة، حتى لقد تقاسمت مع الرجل تقديم النصح والإرشاد لأبنائها أو أقاربها، فقد حرصت في العصر الجاهلي خاصة وفي العصور اللاحقة عامة على إحاطة ابنتها في ليلة زفافها بمجموعة من الوصايا الثمينة

---

(١) ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص ٤١.

(٢) واجدة الأطرقجي، **المرأة في أدب العصر العباسي**، دار الرشيد، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١، ص ٣٨٦.

التـــي تكفـــل لهـــا حياة زوجية ناجحة وسعيدة، ركزت في معظمها على قضية طاعة الزوج، ورعايته، وحفظ ماله، وصون عرضه، ثم التزين والتطيب له، لتقع من نفسه موقعاً حسناً[١].

وفـــي عصر صدر الإسلام تأثرت المرأة العربية بتعاليم الدين الجديد فوظفت المعاني الإسلامية الجديدة، وتمثلت بالقرآن الكريم، وأسلوبه البياني التصويري الرائع، فقد أوصت ابنها فـــي ســـاحة المعركة ليبذل نفسه رخيصة في سبيل الله وإعلاء كلمته، كما أوصت ابنها بالمثل فـــي سفره بطاعة الله والابتعاد عن النميمة والضغائن، ودعت ابنتها إلى طاعة الزوج والعمل علـــى راحـــته ورعايـــة أطفالهـــا وأوصتها كذا الأمر بالوضوء والنظافة والتزين له لتحظي برضاه[٢].

وفـــي العصـــر الأمـــوي تابعـــت المرأة رسالتها في إسداء النصح والمشورة لأبنائها وبـــناتها، إذ أن عاطفـــة الأم لا تفتر في زمن ولا تحدها الظروف أو التغيرات، بل تبقى متقدة لتضئ لأبنائها الطريق وتبدد ظلمة المجهول، فأوصت ابنتها في ليلة زفافها كما فعلت مثيلاتها مـــن النساء في العصور السالفة، وخافت على ابنها الطريق الذي يسلكه والموطن الجديد الذي يرحل إليه فأوصته بحسن الصحبة وكتمان أسراره واللجوء إلى الله خير معين وملجأ[٣].

أمـــا في الشطر الأول من العصر العباسي فقد دفعتها عاطفتها أيضاً للإحسان إلى ابن الزوج وحسن معاملته من قبل أخيه كما فعلت زبيدة في وصيتها لابنها المأمون فلم تضن على ابـــنها بالنصـــيحة الصـــادقة والكلمـــة النافعة، إلا أن وصاياها في هذا العصر كانت أقل من العصـــور الســـالفة، ولعـــل ذلك عائد إلى جمهور الوصية الضيق الذي لا يساعد على انتشار الوصـــية وذيوعهـــا مـــن جهـــة وانشغال رواة العصر ونقاده بمشاهير الشعراء والناثرين من الرجال دون النساء من جهة أخرى[٤].

وإلى جانب تلك الخطب والوصايا، أجادت المرأة العربية في مختلف العصور مقارعة الـــرجال ومـــناظرتهم، وقـــد نجحـــت في عرض قضيتها والدفاع عن نفسها بالحجج والأدلة والبراهيـــن، لأنهـــا تؤمـــن بأنها تنافح عن حق، وأنها على قدر من الفصاحة والبلاغة يؤهلها لخوض مناظرات ومحاورات مع الرجال الأفذاذ.

---

(١) الوشاء، **الفاضل في صفة الأدب الكامل**، ص ٢٢٣-٢٢٤.

(٢) **المصدر نفسه**، ص ٢٢٠، ص ٢٢٥.

(٣) الآبي، **نثر الدر**، الجزء الرابع، ص ٨٨.

(٤) الطبري، **تاريخ الطبري**، تحقيق محمد أبو الفضل، الجزء الأول، الطبعة السادسة، دار المعارف، القاهرة، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، ص ١٤٩.

ففـــي العصـــر الجاهلـــي ناظرت جمانة بنت قيس جدها في حق أبيها في درع سلبه إيـــاه[١]، وتحـــاورت جمعة وهند ابنتا الخس أمام القلمّس الكناني أشهر رواة عصره[٢]، فكانتا تتثران من أوصاف كل شيء أجمله وأحسنه، وأجوده سبكا.

وفي صدر الإسلام كانت المرأة على درجة رفيعة من الإلمام بحقها الذي سنه الإسلام لهـــا، وقـــد أتاح لها الدين الجديد الفرصة للحوار والمناقشة كمحاورة أسماء بنت يزيد لرسول الله[٣]ﷺ أمام جمع كبير من الصحابة تطلب مساواة المرأة مع الرجل في فضيلة الجهاد.

وفـــي العصر الأموي بلغت المرأة حداً من الجرأة، فوقفت نساء فصيحات أضفن إلى الفصـــاحة والبلاغة شجاعة تضاهي شجاعة الرجال، فوقفت الواحدة منهن أمام الخليفة معاوية تســـبّه وتشتمه وتدعو عليه وعلى حزبه، وترفض مبايعته وتحاوره في حق علي بن أبي طالب فـــي الخلافـــة، لا تخاف في الحق لومة لائم، ولعلها كانت تدرك أن العربي لا يهين امرأة، إذ ذاك يخـــدش رجولـــته فجعـــل يكرمها ويحسن إليها، كما فعل معاوية مع أروى بنت الحارث عـــندما وفـــدت إلـــيه وأســـمعته من غليظ القول إلا أنه حاورها مقدراً سنها وأنوثتها وأجزل عطاءها[٤]، وكذا فعل مع سودة بنت عمارة[٥]، والزرقاء بنت عدي[٦].

أمـــا فـــي الشـــطر الأول من العصر العباسي، فقد شاركت المرأة العربية في تسجيل مـــناظرات ومحـــاورات طريفة، وكان النصيب الأوفر من حظ الإماء الكتابة والخط[٧]، فكان لبعضـــهن محـــاورات نادرة وطريفة بينت ما لديهن من قدرات ومهارات كلامية فريدة، ومما يتمـــثل بـــه محـــاورة فنـــن لرجل يدعى سالم: "سألت فنن، وهي جارية أديبة، كانت من آدب الجـــواري في زمانها، سالماً معروفاً باليتيم في مذاكرة جرت بينهما طويلة، فقالت: أي الأمور ألـــذ عندك محادثة الرجال أم استماع الغناء أم الخلوة بالنساء؟ فقال: سألت عن أمور لا تصلح إلا بـــثلاثة أشياء، فقالت: وما هي؟ قال: لا تحسن محادثة الرجال إلا بحسن التفهم، ولا الغناء

---

(١) ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص١٥٣.

(٢) **المصدر نفسه**، ص٧٠- ٧٥.

(٣) العســـقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ص ٢٣٤. وانظر: محمد رضا الحكيمي، **أعيان النساء عبر العصور المختلفة**، ص٣٧.

(٤) ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص٤٥- ٤٧.

(٥) **المصدر نفسه**، ص٤٧- ٤٩.

(٦) **المصدر نفسه**، ص ٤٩- ٥١.

(٧) مصـــطفى البشير قط، **"الحياة الأدبية في مجالس الخلفاء العباسيين حتى نهاية القرن الثالث الهجري"**، رسالة ماجستير، معهد اللغة والأدب العربي، جامعة الجزائر، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، ص ١٥١.

إلا بشـــرب النبـــيذ، ولا الخلـــوة مع النساء إلا بالموافقة وسعة القدرة. قالت: فما الذي تختار منهن؟ قال: محادثة الرجال"[١].

وبالمـــثل، ارتادت المرأة العربية الكتابة، بيد أنها لم تكتب الرسائل في العصر الجاهلي لتأخر عصر التدوين، وما كان يشيع في ذلك العصر من الأمية وضعف حركة الكتابة.

أمّـــا فـــي عصـــر صـــدر الإسلام، فقد عرفت المرأة الكتابة وأتقنتها واتبعت قواعدها وأسســـها، ومن الجدير ذكره أن أغلب رسائلها اتسمت بالطابع السياسي، لا سيما ما جرى في ذلـــك العصر من حروب وفتن وانقسامات، ومن أشهر رسائلها ما دار بين عائشة أم المؤمنين –رضـــي الله عـــنها– وأم سلمة –رضي الله عنها–[٢] وعائشة وعلي بن أبي طالب –كرم الله وجهه–[٣] ، وبين أم سلمة وعلي بن أبي طالب[٤].

وأما في العصر الأموي، فكان نشاطها أقل من ذي قبل في ميدان الترسل، إلا أنه كان لبعضـــهن رســـائل سياسية كرسالة نائلة بنت الفرافصة إلى معاوية تقرعه وتؤنبه على الغدر بعثمان بن عفان –رضي الله عنه–[٥].

وفـــي العصر العباسي حتى نهاية القرن الثاني الهجري أرسلت المرأة قلمها لتعبر عما يجول في خاطرها، فكان لها رسائل سياسية أمثال السيدة زبيدة ، وتوقيعات رائعة أمثال السيدة زبـــيدة أم جعفـــر[٦]، فضلاً عن رسائل الهدايا التي تعاطتها الجواري، ورسائل الغرام والشوق التي كانت غاية في اللطف والبيان[٧].

وإلـــى جانـــب هـــذه الفنون النثرية، فقد شاعت بعض أقوالها وسارت بين الناس حتى أصـــبحت أمـــثالاً وحكمـــاً يتمثل بها في مختلف العصور، كما أنها نوعت في الأغراض التي

---

(١) التوحيدي، **البصائر والذخائر**، الجزء الثاني، ص ١٤٥.

(٢) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الرابع، ص ٣١٦– ٣١٧.

(٣) ابـــن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الجزء السادس، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٩٣م، ص ٢١٩.

(٤) **المصدر نفسه**، الجزء الرابع، ص ٢١٩.

(٥) **المصدر نفسه**، الجزء الرابع، ص ٧٨.

(٦) محمـــد محمـــود الدروبي وصلاح محمد جرار ، **جمهرة توقيعات العرب**، الجزء الثالث، الطبعة الأولى، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، الجزء الثاني، ص ٤٧٣–٤٧٤.

(٧) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء السادس، ص ٣٠٠– ٣٠١.

أنشـــأت فـــيها أمـــثالها فكان بعضها في الموضوعات الاجتماعية[١] كالزواج والطلاق والفقر وبعضها عالج موضوعات اقتصادية[٢].

وقـــد عرفنا بعض أمثال المرأة العربية منسوباً إلى العصر الجاهلي[٣] وبعضها الآخر إلى العصر الإسلامي[٤] والأموي[٥]، إلا أن كثيراً من أمثالها جاء منسوباً إلى نساء مجهولات، فاكتفى السامع أن يأخذ منها الحكمة والعظة ويتمثله في مواقف حياته وأيامه.

وقد ساعد على استمرار أمثالها ما اتسمت به من نواح بيانية متمثلة بالإيقاع الموسيقي الذي يحققه السجع أو الجناس أو صيغ التفضيل، فسهلت حفظها، ومن ثم انتشارها وذيوعها[٦].

٢ ـ أعلامه:

برزت في العصر الجاهلي طائفة من النساء الأديبات، على أن الناثرات منهن كن أقل ظهـــوراً من الشواعر، وأشهرهن: هند[٧] وجمعة[٨] ابنتا الخس، وقد عرفتا بالأدب والفصاحة والبلاغة، وفضلاً عن ذلك فقد كانتا تردان الأسواق الأدبية وتتبادلا فنون الأدب مع الأدباء.

وقـــد عرف العصر الجاهلي طائفة من الكواهن اللواتي حظين بمكانة مرموقة في ذلك العصـــر، فكـــن يلقين الخطب في جموع الناس، ويتخذن من كلامهن المسجوع سبيلاً للتعمية علـــى الســـامعين أو إقـــناعهم فـــيما يدعينه من مغيبات وتكهنات، ومن أبرزهن: الشعثاء[٩]، وعفيراء[١٠]، والزبراء[١١] وغيرهن.

---

(١) الميداني، **مجمع الأمثال**، الجزء الأول، ص ٣٩٥، ٤٩٤، ص٣٥٥.

(٢) **المصدر نفسه**، الجزء الأول، ص ١٢٠.

(٣) **المصدر نفسه**، الجزء الثاني، ص٨٠.

(٤) العسكري، **جمهرة الأمثال**، الجزء الثاني، ص ٢٤٣.

(٥) الميداني، **مجمع الأمثال**، الجزء الأول، ص٤٨٢.

(٦) ســـالم عـــبد الـــرب السلفي، **الخصائص الأسلوبية للمثل**، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة عـــدن، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، ص٩٣.

(٧) ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص٧٠.

(٨) **المصدر نفسه**، ص٧٠ وما بعدها.

(٩) الميداني، **مجمع الأمثال**، الجزء الأول، ص١٧٢.

(١٠) الألوسي، **بلوغ الأرب**، الجزء الثالث، ص٢٩٦.

(١١) القالي، **الأمالي**، الجزء الأول، ص١٢٦.

وفـــي عصـــر صدر الإسلام كان نصيب المرأة أوفر، بما أتاحه الإسلام لها من حرية واحـــترام لأنوثـــتها ومكانـــتها الاجتماعية، فبرزت نساء عرفن بالفصاحة والطلاقة والشجاعة الأدبـــية وأثر عنهن نصوص أدبية نثرية قيمة من خطب ورسائل ووصايا ومناظرات وأمثال. ومن أشهر أديبات العصر الإسلامي السيدة عائشة بنت أبي بكر- رضي الله عنها-، إذ وجدت لهـــا الباحـــثة نصوصـــا نثرية متنوعة الأغراض كالخطب والرسائل المناظرات كشفت مقدار إطلاعهـــا ومقدرتها اللغوية وإحاطتها بأصول تلك الفنون النثرية[١]. وأبرز نصوصها كانت في مشاركتها في الأحداث السياسية والتاريخية، لا سيما في مقتل عثمان وموقعتي صفين والجمل.

وإلـــى جانبها السيدة فاطمة الزهراء[٢]- رضي الله عنها- إذ احتوت المصادر الأدبية والتاريخـــية قـــدراً من نثرها الأدبي الذي ينم عن فصاحة وبلاغة ومعرفة بفنون اللغة وآدابها التـــي رضـــعتها مـــنذ نعومة أظفارها، ولا ريب في ذلك فهي ابنة سيد الخلق -عليه الصلاة والسلام- وريحانته.

ومـــن السيدات العربيات اللواتي اشتهرن بعلمهن وفصاحتهن السيدة أم سلمة -رضي الله عـــنها- وأبرز نصوصها النثرية تمثلت في الرسائل التي تبادلتها مع عائشة[٣]- رضي الله عنها- وعلي بن أبي طالب[٤]- كرم الله وجهه- في موقعة الجمل.

وكانـــت أسماء بنت يزيد غاية في الشجاعة والفصاحة، وكانت تلقب بخطيبة النساء[٥]، وفـــدت علـــى النبـــي -علـــيه الصـــلاة والسلام- وألقت خطبة بين يديه، وبحضور جمع من المسلمين، فنالت تقدير رسول الله عليه السلام وإعجابه بفصاحتها ودربة لسانها.

وفي أواخر صدر الإسلام، ومطلع العصر الأموي برزت طائفة من النساء في موقعة الجمـــل وحرب صفين أثرن الإعجاب بفصاحتهن وشجاعتهن الأدبية وجرأتهن السياسية أمثال: أم الخـــير بنت الحريش [٦] التي عرفت بالذكاء والفصاحة والبلاغة، وعكرشة بنت الأطرش[٧]

---

(١) ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص١٩- ٢٠.

(٢) **المصدر نفسه**، ص٢٩- ٣٣.

(٣) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الرابع، ص٣١٦ وما بعدها.

(٤) ابن أبي حديد، **شرح نهج البلاغة**، الجزء السادس، ص٢٥٥ وما بعدها.

(٥) العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ص ٢٣٤. وانظر: الحكيمي، **أعيان النساء**، ص ٣٧. وانظر: محمد الحسون: **أعلام النساء المؤمنات**، الطبعة الأولى، منشورات أسوة، ١٤١١هـ/١٩٩٠، ص ١٢٠.

(٦) ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص٥٢- ٥٣.

(٧) **المصدر نفسه**، ص٨٦- ٨٧.

إذ كانت من فواضل نساء عصرها بلاغة وشجاعة وفصاحة، فكانت خطيبة مفوهة قادرة على تمثل الحدث سياسياً وأدبياً.

وتصور مقابلة أروى بنت الحارث لأمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان –وهي امرأة عجوز– جرأة نساء العرب وبلاغتهن. وقدرتهن على مواجهة الحاكم بقوة الحجة وفصاحة اللسان والبيان، فقد دخلت على معاوية بن أبي سفيان لحاجة لها وهي امرأة عجوز، لكنها لم تدخل عليه دخول المستضعفين والأذلاء، بل دخول المؤمنين الواثقين القادرين على إحقاق الحق ووضعه في نصابه جهراً من غير خوف ولا تردد ولا خشية من سلطان[١].

وإلى جانب هؤلاء النسوة ظهرت في العصر الأموي السيدة زينت بنت علي[٢] والسيدة أم كلثوم بنت علي[٣]، وقد تمتعتا بمكانة أدبية رفيعة، فقد عرفتا بأدبهن وفصاحتهن، ولقد دفعتهما عاطفتها الصادقة إلى إلقاء خطب تأنيب وتقريع لأهل الكوفة الذين غدروا بعلي، ومن ثم قتلوا الحسين بن علي، فأذكت هذه الحوادث المؤلمة في نفوسهن روح الخطابة، فقارعن الرجال بخطبهن وهن يدافعن عن حقهن، ويرفضهن سياسة معاوية بن أبي سفيان.

وفي مطلع العصر العباسي الأول اشتهرت سيدات عربيات أمثال زبيدة زوج الرشيد التي عرفت بالجاه والعظمة والأدب، وهي تعد نموذجاً نسائياً مثيراً ورمزاً للمرأة في العصر العباسي، إذ كانت ذات عقل ورأي وفصاحة وبلاغة، وكانت تنظم الشعر وتناظر الرجال في شتى نواحي الثقافة والفن، وكان لها نفوذ كبير في شؤون الدولة[٤]. ومن أشهر النساء في العصر العباسي العباسة بنت المهدي وهي ذات جمال وأدب وفطنة، وقد بلغ ذكاؤها وحسن تدبيرها ورجاحة عقلها، ما جعلها الرشيد يستدعيها دائماً لاستشارتها[٥]. فضلاً عن الجواري اللواتي برعن في حفظ الأشعار والغناء وحسن الجواب.

---

(١) ابن حجة الحموي، **ثمرات الأوراق في المحاضرات**، ص١٠٩. وانظر: سليمان سليم البواب، **مئة أوائل من النساء**، الطبعة الثانية، دار الحكمة، دمشق، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ص٣٢٦.

(٢) ابن حمدون، **التذكرة الحمدونية**، تحقيق إحسان عباس وبكر عباس، المجلد السادس، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ص٢٦٤– ٢٦٥.

(٣) **المصدر نفسه**، ص ٢٦٢– ٢٦٣.

(٤) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الخامس، ص ٦٤. وانظر: سليمان البواب، **مئة أوائل من النساء**، ص ٣٨٠.

(٥) **المصدر نفسه**، ص ٣٧٤.

٣ـ مصادره:

وجـــدت الباحـــثة نصوصـــا نثرية قيمة للمرأة العربية في المدة المعنية بالدراسة في العصـــر الجاهلـــي وفـــي عصـــر صدر الإسلام والعهد الأموي، والشطر الأول من العصر العباسي، حتى نهاية القرن الثاني الهجري، بيد أن هذه النصوص لم يجمعها مصنف واحد، بل تـــناثرت هـــنا وهـــناك، ولا ســـيما في لونين من المصادر هما: المصادر الأدبية والمصادر التاريخية.

وتجـــدر الإشـــارة إلى أن هذه النصوص التي احتوتها أمات المصادر كانت ترتبط في الغالـــب بحادثة تاريخية كفتنة عثمان بن عفان[١]- رضي الله عنه- وحربي صفين والجمل[٢]، أو ارتبطـــت بشخصـــية تاريخية أو سياسية كوفادة بعضهن على رسول الله عليه السلام[٣]، أو على معاوية بن أبي سفيان[٤]، أو على الأمين[٥]، أو على المأمون[٦] أو على غيرهم.

تفاوتـــت المصـــادر العربـــية فـــي مدى عنايتها بأدب المرأة على أن كتاب "بلاغات النســـاء"[٧] لابن طيفور كان أميز المصادر العربية عناية بهذا الموضوع، وقد كان أغلب هذا الكـــتاب خطبا أو كلمات جامعة في المناسبات السياسية والاجتماعية، ومن ثم ما كان منهن في مناســـبات معيـــنة فضـــلاً عما أورده من بلاغتهن في المنازعات بين الأزواج ووصايا النساء لبناتهن عند الزواج[٨].

يعـــد كتاب "بلاغات النساء" مادة غزيرة للباحث في موضوع أدب المرأة النثري، فهو يتـــناول جملـــة مـــن طرائف كلام النساء وملح ذوات الرأي منهن ونوادرهن وأشعارهن في

---

(١) ابـــن طيفور، **بلاغات النساء**، ص٢٢ وما بعدها. وانظر: ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الرابع، ص ٣١٤ وما بعدها.

(٢) ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص٢٦ وما بعدها.

(٣) العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ص ٢٣٤. وانظر: الحكيمي، **أعيان النساء**، ص٣٧.

(٤) ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص٤٤- ٥٦.

(٥) الطبري، **تاريخ الطبري**، الجزء الأول٠، ص٢١٣.

(٦) **المصدر نفسه**، ص٢١٤.

(٧) انظر ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص١٩ وما بعدها.

(٨) عبد اللطيف أرناؤوط، "بلاغات النساء لأحمد طيفور"، **مجلة نزوى**، العدد الثاني، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ص ١١٠.

الجاهلـية وصـــدر الإســـلام، ومادته متنوعة تجمع بين الشعر والنثر، وتمثل أسلوب كل أديبة وسمات أدب المرأة بصورة عامة.

ويليه غزارة كتاب "نثر الدر" للآبي، وهو من المصادر المهمة التي احتوت نثر المرأة بفنونه المختلفة من خطب ووصايا ورسائل ومناظرات، وقد أفرد المؤلف جزءاً من كتابه لنثر المـــرأة مـــن العصر الجاهلي وحتى نهاية القرن الثاني الهجري[١]، إذ وقف الكتاب عند أبرز الملامـــح التاريخية التي شاركت فيها المرأة، فضلاً عن اللطائف والنوادر الأدبية التي صدرت عن المرأة في العصر الجاهلي وصدر الإسلام والأموي والعباسي.

أمـــا كتاب "العقد الفريد" لابن عبد ربه، فقد عرض نماذج جيدة من أدب المرأة النثري فـــي أجـــزائه المختلفة، فتناول رسائلها في الجزء الرابع[٢]،كما عقد باباً للوافدات على معاوية يحـــتوي خطبهـــن ومناظراتهـــن له[٣]. وفضـــلاً عن ذلك، فقد تناثرت بعض نصوص المرأة وأخبارها وقصصها ونوادرها في كل أجزاء الكتاب تقريباً.

واحتوى كتاب "الأمالي" لأبي علي القالي وذيله بعض النصوص الأدبية القيمة وشرحاً لمفرداتها وغريب ألفاظها، فأوضح ما غمض في النص من معانٍ أو مفردات[٤].

أمـــا "عـــيون الأخبار" لابن قتيبة، فيعد من الكتب القيمة أيضاً التي احتوت أدب المرأة في العصور المختلفة، إذ أفرد المؤلف جزءاً من كتابة أسماه "كتاب النساء"[٥] تضمن أخبارهن وأدبهن ونوادرهن وحسن إصابتهن.

وفـــي كـــتاب "الفاضـــل فـــي صفة الأدب الكامل" للوشاء اعتنى المؤلف بنثر المرأة فخصص أكثر من باب لأدبها، وخصص باباً مفرداً لذوات الرأي والأدب[٦] ضمنه نصوصهن الأدبـــية فـــي العصـــر الجاهلي وصدر الإسلام والأموي. ولم يهمل الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" بيان المرأة وأدبها بل وقف عند بعض نصوصها النثرية ووصف بعض أدبها[٧].

---

(١) انظر الآبي، **نثر الدر**، ص١٥٠ وما بعدها.

(٢) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الرابع، ص١٠٢ وما بعدها.

(٣) **المصدر نفسه**، الجزء الثاني، ص١١٥- ١١٩.

(٤) القالي، **الأمالي**، ص١٢٠- ١٢٧.

(٥) ابن قتيبة، **عيون الأخبار**، ص٧٥ وما بعدها.

(٦) الوشاء، **الفاضل في صفة الأدب الكامل**، ص٢٢٠ وما بعدها.

(٧) الجاحظ، **البيان والتبيين**، الجزء الثالث، ص٢٠٣ وما بعدها.

ومـــن المصـــادر التـــي اختصت بنثر المرأة العربية كتاب "الوافدات من النساء على معاويـــة بـــن أبي سفيان"[١] لابن الضبي، إذ تضمن ما جرى في وفادة طائفة من النساء على معاوية بن أبي سفيان وخطبهن في موقعتي صفين والجمل.

ولم تغفل كتب الأمثال ما ورد على لسان المرأة العربية من أمثال في كل العصور، إذ احـــتوى كتاب "جمهرة الأمثال"[٢] للعسكري، و"مجمع الأمثال"[٣] للميداني عرضاً جيداً لأمثال المرأة وقصص أمثالهن.

وإلى جانب هذه المصادر الأدبية وجدت الباحثة نصوصاً أدبية في المصادر التاريخية مـــن أهمهـــا: كتاب "الفتوح"[٤] الذي يسوق بعض نماذج نثرهن في صدر الإسلام وفي العصر الأمـــوي، وبخاصـــة مـــا شاركن به في فتنة عثمان بن عفان-رضي الله عنه- وما ألقينه من خطـــب فـــي معـــركة صـــفين وموقعة الجمل. ويليه "تاريخ الطبري"[٥] إذ وقف المؤلف على الأحـــداث التاريخـــية فـــي مخـــتلف العصور، وذكر مشاركة المرأة السياسية وساق شيئاً من نصوصها ولا سيما نساء آل البيت.

ومـــن المصـــادر التاريخـــية المهمة أيضاً "تاريخ مدينة دمشق"[٦] وهو يضم نصوصاً نـــثرية لأشـــهر النســـاء في العصر الأموي، خاصة الوافدات من النساء على معاوية بن أبي سفيان.

٤ـ ما بقي منه:

ليس ثمة ما يدعو إلى الشك في أنه لم يصل إلينا من الأدب العربي القديم إلا قليل من كثير، إذ ضاعت كثير من الآداب العربية لعوامل عدة ليس هذا محل الحديث عنها، وقد ضاع

---

(١) ابـــن الضـــبي، **أخبار الوافدات من النساء على معاوية بن أبي سفيان**، تحقيق سكينة الشهابي، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص٣٨ وما بعدها.

(٢) العسكري، **جمهرة الأمثال**، الجزء الأول، ص ٥٠٣.

(٣) الميداني، **مجمع الأمثال**، الجزء الأول، ص ٤٩٤.

(٤) ابن أعثم، **الفتوح**، الطبعة الأولى، الجزء الثاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٢م، ص٨٤ وما بعدها.

(٥) الطبري، **تاريخ الطبري**، الجزء الخامس، ص١٧٥.

(٦) ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، تحقيق سكينة الشهابي، الطبعة الأولى، دمشق، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م، ص ١٠٩ وما بعدها.

قسم كبير من أدب المرأة شعراً ونثراً فيما ضاع من ذلكم الأدب، إلا أن نصيب النثر من الضياع والاندثار كان أكبر وأخطر، وقد ذكر الرقاشي: "ما تكملت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره"(١).

كانت عناية العرب في الجاهلية بالشعر أكبر من عنايتهم بالنثر، إذ حفظوه في صدورهم، ورددوه على ألسنتهم، وأنشدوه في محافلهم، وتبادلوه في مفاخرهم ومنافراتهم، فكان "ديوان علمهم ومنتهى حكمهم، به يأخذون وإليه يصيرون"(٢).

وثمة من يعد الشعر ترجمان العاطفة، والعاطفة غالبة في المجتمعات البدائية على العقل، لذلك كان الشعر في تاريخ الأمم الأولى أقدم من النثر وأوفر، أما النثر فهو لسان العقل، فالحاجة إليه متأخرة عن الحاجة إلى الشعر(٣).

لم تأت تلك العناية بالشعر عبثاً، ولم يترك العنان للعاطفة مطلقاً، بل إن ما اتصف به الشعر من سمات جعلته يحظى بعناية العرب واهتمامهم، ومن ذلك أن الشعر أسهل للحفظ وأعلق في الذهن بداعي الوزن والقافية والموسيقى، مما يسهل على الذاكرة حفظه وخزنه إلى آماد أبعد من آماد حفظ النثر الذي يتعذر على الذاكرة الإلمام بأجزائه؛ لسرعة نسيانه وخلوه من الإيقاع الذي لا يمكن إغفال دوره في الحفظ.

وارتبطت بهذه القضية مسألة تأخر عصر التدوين وعدم معرفة الكتابة والإلمام بفنونها، مما أدى إلى تأخر النثر عن الشعر ومن ثم تأخره عند المرأة، وضياع قسم كبير منه، ومن المعروف أن الإنتاج النثري ينقرض على وجه إن لم يدون، وإلا فأين آثار الجاهليين النثرية التي كانت تقال في كل مناسبة أو حدث؟

إن قلة الكتابة هو السبب في ضياع هذه الآثار بدليل ما لجأ إليه المسلمون بعيد وفاة رسول الله ﷺ من جمع القرآن وتدوينه مع ما هو عليه من المكانة الدينية التي لا تضاهى،

---

(١) الجاحظ، **البيان والتبيين**، الجزء الأول، ص٢٨٧. وانظر: ابن رشيق القيرواني، **العمدة في محاسن الشعر والنثر**، تحقيق محمد قزقران، الجزء الأول، الطبعة الثانية، مطبعة الكاتب العربي، دمشق، ١٩٩٤ م، ص٢٠.

(٢) ابن سلام، **طبقات فحول الشعراء**، قرأه وشرحه محمود محمد شاكر، (د. م.)، (د. ت.)، ص ٢٤.

(٣) محمود المقداد، **تاريخ الترسل النثري عند العرب في الجاهلية**، ص ٦٤.

وانظر: كمال اليازجي، **الأساليب الأدبية في النثر العربي القديم من عصر علي بن أبي طالب إلى عصر ابن خلدون**، الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ص ١٠.

وفضـــلاً عن ذلك فإن المرء يتساءل عن خطب النبي –عليه الصلاة والسلام– وهو نبي الأمة، فهل يعقل أن يكون ما وصل إلينا هو كل ما ألقي من خطب أو مواعظ؟[١]

إذا كانت هذه حال خطب النبي ﷺ وكلامه مع ما هو عليه من مكانة وحظوة، فما بال آثـــار الجاهليـــن رجـــالاً ونساءً، نثراً وشعراً، على حد سواء. ومن هنا يمكن أن نولي أولى أســـباب ضياع أدب المرأة النثري إلى تأخر عصر التدوين إلى القرن الثاني ولا سيما أن النثر المترسل أكثر عرضة من الشعر الموزون للنسيان.

ولعـــل الدارس الفاحص لا يمكنه إغفال أمر مهم يرجع إلى الواقع الاجتماعي في تلك الأعصر التي كانت فيها من أثرة الرجل ما فيها، إذ إن المجتمع العربي مجتمع ذكوري، تميز بالغيرة على المرأة ومحاولته الدؤوبة لسترها وصونها، حتى بلغ الأمر في الجاهلية وأدها، أما الإســـلام فقـــد حرص على صيانتها وركز على تعليمها أمور دينها والعناية بأسرتها، فلم يتهيأ للمرأة الخروج في المناسبات والمحافل والجمع والجماعات أو الجهاد كما تهيأ للرجال، وما إن أتـــاح الإســـلام لهـــا قـــدراً مـــن الحرية والتقدير حتى طلبت المساواة في المشاركة في تلك المناســـبات، فكانت أسماء بنت يزيد وافدة النساء على رسول الله ﷺ عرضت عليه قضيتهن، وقدمـــت إليه حججهن بكل ما أوتيت من فصاحة وبلاغة، وحسن بيان، فنالت بمقولتها إعجاب رسول الله ﷺ فقال: "هل سمعتم بمقالة امرأة قط أحسن من مسائلها في أمر دينها من هذه؟"[٢]. إلا أن الأثـــرة تغلب الرجل فيظن أن مثل هذا الكلام ليس من كلامها، فقالوا: "يا رسول الله ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا"[٣]. وفي هذا الاعتراض ما فيه من إنكار بعض الحاضرين لمقدرة تلك المرأة والحط من شأنها الأدبي.

وفي عصر التدوين انشغل الرواة والمصنفون من بعدهم بنقل أدب الرجال شعراً ونثراً وتدويـــنه، وأغفلـــوا أدب المرأة إغفالاً لافتاً، ولعل ذلك يعود إلى عدم تعدد أغراض أدبها، إذ غلـــب الـــرثاء عليه إلى حد كبير؛ لأنها كانت أقدر على ذلك من الرجل لما تمتلكه من عاطفة قويـــة، وفضـــلاً عن ذلك، فإن الرجل كان يجد في أدبها طابعاً أنثوياً غلاباً، فهذا بشار بن برد يصف شعرها فيقول: "ما من شعر تقوله امرأة إلا وفيه سمة الأنوثة"[٤].

---

(١) محمود المقداد، **تاريخ الترسل النثري عند العرب في الجاهلية**، ص ٥٤.

(٢) العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ص ٢٣٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٣٤.

(٤) العاملي، **الكشكول**، ص٥٠٧.

٥٨٩٢٩٧

واضح أن المصنفين في عصر التدوين لم ينظروا إلى الرجال والنساء على حد سواء، بل اختاروا الأحسن من كل شيء، ولم يرو الرواة إلا أجمل الشعر في أهم الحوادث، بل يلاحظ أن شعر الرجال أنفسهم طغى بعضه على بعض، حتى عفى ذلك بعض أشعارهم وطمس شيئاً من آثارهم، وعلى هذا نجد الأخطل وجريراً والفرزدق في العصر الأموي يشغلون أهل زمانهم عن فئات من الشعراء المعاصرين ممن لا يقلون أهمية عنهم[١].

وبالمثل، فإن هناك من كبار الشعراء لم نجد من شعرهم إلا مقتطفات ومقطعات قليلة، فلم يسنح لمؤلف أن يجمع آثارهم من أفواه الرواة، فحفظت بعض أخبارهم وأشعارهم على سبيل الاستشهاد فحسب، وضاع جل أدبهم، ويقف كتاب الأغاني شاهداً على هذه الحال، في حين تهيأت الأسباب لبعض الشعراء فوجد من جمع دواوينهم، وإن يكن ضاع بعضها ووصل إلينا بعضها، وما ضاع من شعر الرجال ضاع أكثر منه من أدب المرأة، ولم يبق من آثارها النثرية والشعرية إلا القليل.

وهناك أسباب اجتماعية شاركت في ضياع قسم كبير من أدب المرأة من ذلك انشغالها عن تعاطي الأدب، فطبيعة الحياة البدوية بأعرافها وعاداتها لا تسمح للمرأة بما تسمح به للرجل طبقاً للعادة وخضوعاً للعرف، فقد كان المجتمع لا يقبل أن يظهر اسم امرأة أو أدبها أو أن يتناقله الناس في الأغلب، والشاهد على ذلك أن الشعراء في ذلك العصر كانوا يرمزون إلى أسماء محبوباتهم برموز فيطلقون عليهن وصفاً أو كنية مثل أم فلان أو اسماً آخر غير اسمها.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الحرص والتحفظ على المرأة وأدبها لم يكن يشمل القبائل العربية جميعها، بل كان يتفاوت من بيئة إلى أخرى، أو من قبيلة إلى قبيلة، ولا شك أن بعض القبائل كانت تروي للنساء، وتعتد بمكانة المرأة، بدليل وجود الكاهنات والاحتكام إليهن.

ومن هذه الأسباب الاجتماعية التي أفضت إلى ضياع قسم كبير من نثر المرأة، أن المرأة العربية ظلت في تلك المدة مشغولة بأطفالها وأسرتها والعناية بهم، ولم يكن الوقت المتاح كافياً لإنتاج النثر، وإن نظمت فقد لا يهيأ لها أن ترويه، وهكذا تحكمت بالمرأة واجبات الأمومة والزوجية ومسؤوليات الأسرة وتبعاتها، ولهذا لم تجد المرأة الحرية في التصرف بوقتها أو بموهبتها واستعداداتها في حدود ما سمح لها من الثقافة والاطلاع[٢]. إن ظروف المرأة المختلفة جعلت جمهورها ضيقاً إلى حد كبير، إذ ما قورن بجمهور الرجال، فكان من

---

(١) عبد الحميد فايد، **المرأة وأثرها في الحياة العربية**، الطبعة الثالثة، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، لبنان، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م، ص٢٣.

(٢) واجدة الأطرقجي، **المرأة في أدب العصر العباسي**، ص٢٧١.

صور جمهورها: الرجل الزوج، أو الابن المسافر يستوصيها فتوصيه، أو الأسرة التي تحيطها بوصـــاياها وأمـــثالها، أو القائد الذي توجهه، أو الخصم الذي تراسله، وأحياناً جمع من الناس تخطـــب فيهم في موقف حازم أو حادث طارئ، وقد كان نصيب عدد قليل منهن المشاركة في الأســـواق الأدبية كالمربد أو ذي المجاز أو ذي المجنة وكانت هذه الأسواق بيئة مناسبة لسماع الأدب وتناقله[١]، وقد مر معنا من قبل مناظرة هند وجمعة ابنتي الخس مع القلمّس الكناني في ســـوق عكـــاظ. وتجـــدر الإشارة ههنا أن قسماً من أدب المرأة العربية لم يعرف قائلته فنسب بعضه إلى أعرابيات، ومن ثم كان عرضة للإهمال والنسيان.

يكـــاد مـــا وصـــل إلينا من نثر المرأة الأدبي في العصر الجاهلي يقتصر على سجع الكواهـــن منهـــن، وذلـــك لاعتماد هذا اللون النثري على السجع الذي يحقق إيقاعات موسيقية تســـهل حفظـــه في الذاكرة واستدعاءه عند الحاجة للاستشهاد به. وإلى جانب ذلك فقد وصلت إليـــنا أيضاً بعض ما قالته المرأة الجاهلية من أمثال، ولعل السبب في ذلك ما تميز به المثل في السيرورة والشيوع والإيجاز، فضلاً عما تشتمل عليه بعض الأمثال من السجع.

أمـــا في العصر الإسلامي، فقد وجه الإسلام اهتمام الناس إلى الاشتغال بالقرآن والسنة النـــبوية، وحد من دور الشعر ووظفه في خدمة الدعوة الإسلامية. أما النثر فكان يقتصر على النواحـــي السياســـية والدينية والاجتماعية، وما وصل إلينا من نثر المرأة يكاد يقتصر على ما يرتـــبط بالأحداث السياسية التي عاشها المجتمع الإسلامي آنذاك كما في خطب عدد من النساء فـــي موقعتـــي صـــفين والجمل، كذلك ما كان من حركة مراسلات بينهن وبين خصومهن في حادثة مقتل عثمان بن عفان –رضي الله عنه– والثأر له.

وأما عن العصر الأموي فقد وصلت إلينا بعض من وفادتهن على معاوية ومناظرتهن له في مجلسه[٢]، وخطبهن في مقتل الحسين[٣].

وأمـــا فـــي العصر العباسي الأول حتى نهاية القرن الثاني الهجري، فإن ما وصل إلينا كـــان بعضـــه لنســـاء البلاط العباسي وسيداته أمثال زبيدة زوج هارون وعُلية والعباسة ابنتي المهدي، أو لبعض الجواري اللواتي عرفن بأدبهن وفصاحتهن.

---

(١) حســـن فـــالح حســـين، "أسواق العرب في الجاهلية والإسلام حتى نهاية القرن الثالث وأثرها في اللغة والأدب والأساطير"، ص ٥١.

(٢) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الثاني، ص ١٠٨وما بعدها.

(٣) ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص ٤١.

ولعـــل مما تجدر الإشارة إليه أن ما وصل إلينا من نثر المرأة العربية في المدة المشار إليها في الفنون الشفهية أكثر منه في الفنون الكتابية، ولعل ذلك عائد إلى تأخر عصر التدوين، كمـــا أن جـــزءاً كبيراً مما بقي من أدب المرأة النثري ووصل إلينا، كان لنساء عرفن بالمكانة الاجتماعـــية المتميزة في مختلف العصور المذكورة، فالكواهن كن يتمتعن في العصر الجاهلي بقـــدر كبـــير من الاحترام والتقدير لدعوى اطلاعهن على أمور الغيب ومقدرتهن على تفسير الأحـــلام والـــرؤى وما قد يعرض للإنسان آنذاك في شؤون حياته المختلفة مما يحتاج فيه إلى استشارة الكاهنات القادرات على فك المشكل من الأمور.

وفـــي العصر الإسلامي برزت مجموعة من النسوة النبيلات انتسبن إلى آل البيت من أزواج الرســـول ﷺ وبـــناته مـــن أمـــثال عائشة بنت أبي بكر وفاطمة الزهراء، وأم سلمة – رضـــوان الله عليهـــن–، وظهرت في العصر الأموي كذلك حفيداته أمثال زينب بنت علي وأم علي بنت علي وبنات الحسين بن علي.

أمـــا في العصر العباسي، فقد ارتبط ظهور المرأة بالقصر العباسي أمثال السيدة زبيدة زوج الرشـــيد وعلـــية والعباسة ابنتي المهدي، أو الجواري اللواتي كن يعشن في كنف الخلفاء والأمراء والولاة والقادة وغيرهم من أصحاب المكانة السياسية في الدولة.

ومـــن هـــنا، فإنه يمكن القول إنّ ما وصل إلينا من أدب المرأة النثري جاء مرتبطاً إما بحدث تاريخي أو سياسي، أو بمكانة اجتماعية تبوأتها المرأة العربية آنذاك.

الفصل الثاني

فنون المرأة النثرية

- الخطابة
- الوصايا
- الرسائل
- المناظرات والمحاورات
- الأمثال

الخطابة:

لـــم يكـــن حظ الخطابة في العصر الجاهلي كحظها الذي أصابته في العصر الإسلامي ومـــا تـــلاه من عصور، ولكنها وجدت فيه على قدر ما، واشتهر خطباء أمثال قس بن ساعدة الإيـــادي وأكـــثم بـــن صيفي التميمي وغيرهما من قبائل العرب المشهورة بالبلاغة والفصاحة والبيان.

كـــان للشـــعر في العصر الجاهلي مكانة، وللخطابة مكانة دونها، ولعل ذلك يعود لما يتســـم بـــه الشـــعر من أوزان وإيقاعات موسيقية تسهل حفظه، فالشعر عندهم أحفظ من النثر لمفاخر القبيلة وأنسابها، لأنه أسهل للرواية وأجرى على اللسان، والقبيلة موطن العربي، يفخر بهـــا ويدافـــع عـــنها، ولا يقبل بديلاً عنها، لذا راح ينظم الشعر ويردده في أصقاع البلاد، ولو كانت الخطابة عندهم كالشعر لوصلت إلينا خطباً جيدة من خطبهم، كما وصلت أشعارهم.

وأكثر ما وصل إلينا من خطب الجاهليين قصير لضيق أغراضها، ولأنها أسهل للحفظ من الخطب الطوال، وقد كان الخطباء يتخيرون لها الألفاظ المأنوسة، والمعاني الواضحة بغية التأثير والإقناع، لذا تخلل نثرهم جمل موزونة مسجوعة، قصيرة ليسهل حفظها[١].

١ـ في العصر الجاهلي:

كـــان ظهور المرأة في ميدان الشعر أكثر منه في النثر في المدة التي سبقت الإسلام، ولعـــل ذلك يعود إلى الأسباب نفسها التي حالت دون.وصول نثر العرب في العصر الجاهلي، إذ اعـــتمدوا الـــرواية الشفهية في نقل أدبهم، فضاع نثرها فيما ضاع من الأدب العربي، فضلاً عن أثرة الرجل العربي ومحاولته تغييب دور المرأة الأدبي، وما اتسم به العصر من تشدد في ستر المرأة خوفاً من العار، حتى بلغ بهم الأمر في حقبة من الزمن وأدها.

ظهـــر فـــي العصر الجاهلي ضرب خاص من الخطابة عرف بسجع الكهان؛ لالتزامه الســـجع، ولأن الذيـــن عرفوا به هم طائفة الكهان الوثنيين في الجاهلية فقد نُسب إليهم، وكان الـــناس يفـــزعون إليهم ليطلعوهم على أمور الغيب ويفسروا لهم أحلامهم ورؤاهم، وكثيراً ما كـــانوا يحتكمون إليهم في المنافرات[٢]. لقد كان أثر هذه الطائفة كبيراً في المجتمع الجاهلي، إذ أشـــار القـــرآن الكـــريم إلـــيه، في غمرة رده على المشركين الذي اتهموا محمداً عليه الصلاة

---

(١) بطرس البستاني، **أدباء العرب في الجاهلية والإسلام**، دار مارون عبود، (د.ت)، ص٢٥٤.

(٢) إحسان النص، **الخطابة في عصرها الذهبي**، دار المعارف، مصر، ١٣٧٣هـ/ ١٩٦٣م، ص١١-١٢.

والســـلام بأنـــه شاعر وكاهن، وهذا يعني أن الكهانة لها فاعليتها في هذا العصر، إذ كان أكثر هـــؤلاء الكهـــان يخدمون بيوت الأصنام والأوثان، وكان لهم قداستهم الدينية التي جعلت الناس يصدقون كل ما يقولونه ولو كان ضرباً من الغيب[١].

وقـــد شـــاركت المرأة الرجل في التكهن والتنبؤ بأمور الغيب، فلم تقتصر الكهانة على الـــرجال دون النساء، فكان هناك نساء برعن في تعاطي الكهانة من أشهرهن: طريفة الكاهنة وكانت باليمن، وفاطمة الخثعمية وكانت بمكة، والزرقاء بنت زهير، والزبراء كاهنة بني رئام، والكاهنة السعدية والشعثاء، والغيظلة القرشية[٢].

لقـــد اعـــتقد العرب بالكواهن من النساء، كما اعتقدوا بالكهان من الرجال، على الرغم مـــن نظـــرة الـــرجل المبدئية إلى المرأة، على أن في رأيها وهناً وضعفاً، وفي أحكامها تأثراً بالعاطفـــة، وأن معايير حكمها على الأشياء دون مقاييس الرجل في الدقة والضبط، وفي الوقت نفســـه كـــان كثير من العرب يرى أن النساء في الكهانة والعرافة أعمق، وأن أخبارهن أصدق لأن رفاقهن من الجن أدق وأوثق[٣].

مـــن أشـــهر الكاهنات الجاهليات "زبراء الكاهنة" إحدى أفصح الكواهن وأقدرهن على تعاطـــي الكلام، أرادت أن تنذر قوماً من خطر داهم تنبأت به، فكان من خبرها أنه: "كان ثلاثة أبطـــن مـــن قضـــاعة مجتورين بين الشجر وحضر موت: بنو ناعب، وبنو داهن، وبنو رئام، وكانـــت بنو رئام أقلهم عدداً وأشجعهم لقاءً، وكانت لبني رئام عجوز تسمى خويلة، وكانت لها أمـــة مـــن مولدات العرب تُسمى زبراء، وكان يدخل عليها أربعون رجلاً كلهم لها محرم، بنو أخـــوة وبـــنو أخوات، وكانت خويلة عقيماً، وكان بنو ناعب وبنو داهن، متظاهرين على بني رئـــام، فاجتمع بنو رئام ذات يوم في عرس لهم، وهم سبعون رجلاً كلهم شجاع بئيس، فطمعوا وأقلوا على شرابهم، وكانت زبراء كاهنة، فقالت لخويلة: انطلقي بنا إلى قومك أنذرهم، فأقبلت خويلـــة تتوكأ على زبراء، فلما أبصرها القوم قاموا إجلالاً لها، فقالت: "يا ثمرَ الأكبادِ، وأندادَ الأولادِ، وشـــجا الحساد، هذه زبراء تخبركم عن أنباء، قبل انحسار الظلماء بالمؤيدِ[٤] الشنعاءِ،

---

(١) شـــوقي ضـــيف، **الفن ومذاهبه في النثر العربي**، الطبعة الثانية عشرة، دار المعارف، مصر، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م، ص٣٨.

(٢) درويش الجندي، **الرمزية في الأدب العربي**، نهضة مصر للطباعة والنشر، (د.ت)، ص١٦.

(٣) لـــيلى صـــباغ، **المرأة في التاريخ العربي**، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، ص٣٧٣- ٣٧٤.

(٤) **المؤيد**: الداهية والأمر العظيم.

فاسمعوا ما تقول. قالوا: وما تقولين يا زبراء؟ قالت: واللوح الخافق، والليل الغاسق، والصباح الشارق، والنجم الطارق، والمزن الوادق، إن شجر الوادي ليأدوا ختلاً، ويحرق أنياباً عُصلاً[١]، وإن صخر الطود لينذر ثكلاً، لا تجدون عنه محلاً، فوافقت قوماً أشارى سكارى ..."[٢].

ولا يخفى من هذا المقطع أن زبراء تتحلى بما يتحلى به الخطيب من فصاحة وبيان وحسن استماع لها، فها هي تخطب في سبعين رجلاً يقومون إجلالاً لها، تنذرهم بما هو آت، لكن فريقاً منهم لم يأبه لما تقول، فيكون مصيره الندم أو الهلاك.

وكلام زبراء كلام مسجوع لا يمثل الخطبة بمفهومها شكلاً ومضموناً، إلا أن فيه شيئاً من ملامحها، فالجمهور حاضر، والأسلوب قوي وإن كان فيه غموض مقصود، وهناك مناسبة للإلقاء، إذ استهلت كلامها بالقسم بما يمثل معتقدات العصر، فأقسمت بالليل والصبح والنجم والمزن، وهذه المقسمات تمثل جزءاً من منظومة الدين آنذاك، ثم هي تنذر القوم بما تنبأت به، إذ أن خطراً داهماً يأتيهم من بطن الوادي فيقتلهم ويحرقهم، وهم في غفلة من أمرهم، فترمل نساؤهم ويتيتم أطفالهم، فالواقعة شديدة، وهم سكارى لا يحسون بذلك الخطر، ولا يملكون دفاعاً عن أنفسهم.

وفضلاً عن الزبراء، يطالع الدارس أسماء أخرى اشتهرن بالكهانة كالشعثاء وعفيراء وطريفة وغيرهن، ويبدو واضحاً للعيان أن قصصهن المطروحة في كتب الأخبار تعطي صورة عن الأسلوب الأدبي الذي نسب إلى الكهان استعماله، وعن الحوار الجاري بين السائل والكاهنة، والتحليلات الغيبية التي كانت تقوم بها الكاهنة، وكيفية تأثيرها في مستمعيها. وواضح أن الكاهنة إذ تلقي هذه الأسجاع، فإنها تخرجها مخرج الغموض والإبهام، فهي تومئ وترمز وتكني في سبيل ترك الجواب المعمى، البعيد عن التصريح، القابل للتأويل والتوجيه.

وفضلاً عن التنبؤ بالمغيبات، فقد فسرت هؤلاء الكواهن الأحلام، فمن ذلك تفسير عفيراء رؤيا مرثد بن عبد كلال، فقد روي أنه قفل من غزاة غزاها بغنائم عظيمة، فوفد عليه زعماء العرب، وشعراؤها وخطباؤها، يهنئونه فرفع الحجاب عن الوافدين، وأوسعهم عطاءً، واشتهر سروره بهم. فبينما هو كذلك إذ نام يوماً فرأى رؤيا في المنام أخافته وأذعرته، وأهالته وهو نائم. فلما انتبه نسيها حتى لم يذكر منها شيئاً. وثبت ارتياعه في نفسه بها، فانقلب سروره حزناً، واحتجب عن الوفود حتى أساءت به الوفود الظن. ثم حشر الكهان، فجعل يخلو

---

(١) عصلاً: معوجة.

(٢) القالي، الأمالي، الجزء الأول، ص١٢٦- ١٢٧.

بكل كاهن، ثم يقول له: أخبرني عما أريد أن أسألك عنه؟ فيجيبه الكاهن بأنه لا علم عندي. حتى لم يدع كاهناً علمه إلا كان إليه منه ذلك. فتضاعف قلقه وطال أرقه. وكانت أمه قد تكهنت فقالت له: أبيتَ اللعْنَ أيها الملك! إن الكواهن أهدى إلى ما تسأل عنه، لأن أتباع الكواهن من الجان ألطف وأظرف من أتباع الكهان، فأمر بحشر الكواهن إليه، وسألهن كما سأل الكهان، فلم يجد عند واحدة منهن علماً مما أراد علمه. فخرج للصيد يوماً وقد لفحه الهجير فقصد بيتاً، فبرزت له عجوز فقالت: انزل بالرحب والسعة، والأمن والدعة، والجفنة المُدَعْدَعة[١]، والعُلبة المترعة. فنزل عن جواده، ودخل البيت، ونام من فرط تعبه، فلما استيقظ ظهرت له فتاة جميلة فقالت له: أبيت اللعن أيها الملك الهمام! ثم قدمت له الطعام والشراب، فسألها عن اسمها فقالت: اسمي عفيراء. فقال لها: من الذي دعوته بالملك الهمام؟ قالت: مرثد عظيم الشأن حاشر الكواهن والكهان لمعظلة بعد عنها الجان. فقال: يا عفيراء، أتعلمين تلك المعضلة؟ قالت: أجل أيها الملك. إنها رؤيا منام، ليست بأضغاث أحلام. قال الملك: أصبت يا عفيراء. فما تلك الرؤيا؟ قالت: رأيت أعاصير وزوابع وبعضها لبعض تابع، فيها لهب لامع، ولها دخان ساطع، يقفوها نهر متدافع. وسمعت فيما أنت سامع، دعاء جرس صادع. هلموا إلى المشارع[٢]. فروى جارع[٣]، وغرق كارع[٤]".

لقد بلغت هذه الكاهنة من أمر الكهانة مبلغاً حتى أخبرت مرثد بن عبد كلال ما رآه في منامه، فما كان من مرثد إلا الدهشة والاستغراب، حتى دفعته الدهشة والفضول إلى سؤالها عن تفسير وتأويل هذه الرؤيا: "أجل هذه رؤياي. فما تأويلها يا عفيراء؟ قالت: الأعاصير والزوابع ملوك تبابع، والنهر علم واسع، والداعي نبي شافع، والجارع ولي تابع، والكارع عدو منازع. فقال الملك: يا عفيراء، أسلم هذا النبي أم حرب؟ فقالت: أقسم برافع السماء، ومنزل الماء من العماء[٥]، إنه لمطل الدماء، ومنطق العقائل نطق الإماء. فقال الملك: إلام يدعو يا عفيراء؟ قالت: إلى صلاة وصيام، وصلة أرحام، وكسر أصنام، وتعطيل أزلام، واجتناب آثام"[٦].

---

(١) **المدعدعة**: المملوءة باللحم والثريد.

(٢) **المشارع**: مواضع انحدار الماء.

(٣) **جارع**: الشارب المتهمل.

(٤) **كارع**: الخائض للماء.

(٥) **العماء**: السحاب.

(٦) الألوسي، **بلوغ الأرب**، الجزء الثالث، ص٢٩٦- ٢٩٨.

هـذه بعض نماذج من خطب النساء في الجاهلية، إذ نلحظ أن المرأة لم تتمثل الخطابة كمـا تمثلت الشعر وأجادته، ولعل ذلك يعود إلى تقاليد العصر وأعرافه التي كانت تحول دون مشـاركة المـرأة للـرجل في كل شؤونه، وعدم سماح المجتمع لها بالخروج من بيتها، ولعدم وجـود حاجة ملحة عندهن لإلقاء الخطب، فلم يكن ذلك إلا من حظ ممن أوتين الجرأة وحظين بالموقف والدافع، فضلاً عن ضياع نثرها فيما ضاع من النثر العربي.

٢ـ في صدر الإسلام:

وإذا مـا عديـنا إلى صدر الإسلام ألفينا أن الإسلام أباح للمرأة أن تبدي رأيها وتتعلم القراءة والكتابة، فأعلى من شأنها واحترم أنوثتها، ودعا للترفق في معاملتها، وسمح لها رسول الله أن تسـأل عن أمور دينها، وأن تقف أمام خطب من الرجال لتبلغه حاجتها، وقد عبرت عن مشـاعرها وحوائجهـا بكـل فصاحة وجرأة، وقلد بلغ رسول الله وتعاليم دينه مبلغاً حسناً في احـترام الأديـان واعتقاد كل إنسان، سواء أكان رجلاً أم امرأة، فهذه سفانة بنت حاتم الطائي، عرفت بالفصاحة والأدب وسداد الرأي، سيدة وقفت أمام رسول الله ﷺ بينما هي أسيرة عنده، تقول خطبة بين يديه ﷺ أفصحت فيها عن حاجتها، فلم تعرّف نفسها أولاً، بل استمالت القلوب والاسـتماع إلـيها، وهي تعدد مناقب أبيها، ثم قدمت نفسها أخيرا إذ كان أبوها من أشد الناس عداءً لرسول الله –عليه السلام– فلو بادرته أولاً باسمها لكانت النتيجة غير محمودة.

وقفـت سفانة أمام رسول الله تستعطفه: "يا محمد هلك الوالد، وغاب الوافد، فإن رأيت أن تخلـي عنـي ولا تشـمت بـي أحياء العرب، فإن أبي كان سيد قومه، يفك العاني، ويقتل الجانـي، ويحفظ الجار، ويحمي الذمار، ويفرج عن المكروب، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ويحمـل الكـل، ويعيـن على نوائب الدهر، وما أتاه أحد في حاجة فرده خائباً، أنا بنت حاتم الطائي"(١).

أثـرت سفانة في نفوس المستمعين إذ انطلقت من حيث كانت دعوة رسول الله السامية إلـى مكـارم الأخـلاق فنالت العفو والصفح، فقد قال رسول الله عليه السلام: "يا جارية هذه صـفات المؤمنيـن حقـاً، لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه، خلوا عنها، فإن أباها كان يحب

(١) ابـن كثير، البداية والنهاية، الطبعة الثانية، الجزء الخامس، مكتبة المعارف، بيروت، ١٣٩٨هـ/١٩٧٧م، ص ٦٧.

مكـــارم الأخـــلاق"[١]. تلك أخلاق رسول الله عليه السلام العفو والصفح، والعطف على النساء وحسن معاملتهن.

وفـــي هـــذا العصر أصبح النثر عامة والخطابة خاصة ضرورية وأولية، لأن الإسلام زهـــد المســـلمين بالشـــعر الذي كان ملهاة لهم عن شؤون الدين والآخرة، وليعرفهم إلى الدين الجديـــد، فقـــد كانت الخطابة في صدر الإسلام وسيلة مهمة من وسائل الدعوة الضرورية إلى الجهـــاد ضـــد الوثنية، مما أكسبتها قوة وطابعاً جديداً، ثم إنها كانت عنصراً مهماً ولازماً في الفتـــن الداخلية التي كان مثارها الخلافة، وقد اشترك في تلك الفتن الرجال والنساء، فاكتسبت الخطابـــة فـــي المرحلتين قوة جديدة لم تكن في الأمس، قوة أذكتها الأحداث السياسية والدينية، كما اكتسبت لوناً جديداً مقتبساً من أسلوب القرآن الكريم وبلاغته، وإننا لنجد الفصاحة والبلاغة بيـــن النســـاء في ظل الإسلام أكثر حظاً وأوفر قسطاً منها في ظل الجاهلية، فقد كان الإسلام عامل تنبيه وإيقاظ لا للرجل وحده، ولكن للمرأة أيضاً[٢].

وأول خطيـــبات العصـــر الإســـلامي السيدة عائشة أم المؤمنين زوج الرسولﷺ، فقد كانـــت من أفصح أهل زمانها وأحفظهم، لها خطب حماسية رائعة[٣]. وقد تنوعت موضوعات خطـــبها فكانـــت مـــنها السياسية والثورية، ومنها ما كان في الرثاء، متأثرة بالأفكار الإسلامية والمضـــامين الدينـــية، فلهـــا خطبة ترثي فيها أباها أبا بكر الصديق، تستفتحها بالدعاء له، ثم ذكـــرت مناقبه فتقول: "نضَّر الله وجهك يا أبت، وشكر لك صالح سعيك، فلقد كنت للدنيا مذلاً بإدبارك عنها، وللآخرة معزاً بإقبالك عليها"[٤].

تبين عائشة رضي الله عنها ما تحلى به والدها من زهد في الدنيا وعمل وجد للآخرة، وهذا ملمح ديني واضح، ثم تصور عظم مصيبة فقدها لوالدها، فالوالد هو السند والعز، وكيف إذا كـــان والدها صاحب رسول الله وخليفته، فهذه أعظم مصيبة بعد وفاة رسول الله ﷺ تقول

---

(١) ابن كثير، **البداية والنهاية**، الجزء الخامس، ص ٦٧.

(٢) مصـــطفى الشـــكعة، **الأدب في موكب الحضارة الإسلامية**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٣٧٨هـ/ ١٩٦٨م، ص٢٨٢.

(٣) علي إبراهيم حسن، **نساء لهن في التاريخ الإسلامي نصيب** ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، ١٣٦٠ هـ/ ١٩٥٠م، ص٧٥.

(٤) الآبي، **نثر الدر**، الجزء الرابع، ص ١٩.

السيدة عائشة: "ولئن كان أجل الحوادث بعد رسول الله ﷺ رزؤك، وأعظم المصائب بعده فقدك"(١).

ثم لا تجد أمام هذه المصيبة ملاذاً سوى الصبر، وهي صفة المؤمنين، وهي أمُّهم، ثم الدعاء لأبيها بالرحمة والمغفرة: "وإن كتاب الله ليعد بحسن الصبر فيك حسن العوض منك، وأنا أستنجز موعود الله تعالى بالصبر فيك وأستقضيه بالاستغفار لك"(٢).

وتذكر السيدة عائشة بدور أبيها، رضي الله عنه، في الإسلام في حياة الرسول وبعده، ولا سيما دوره المشرق في حروب الردة: "أما لإنْ قاموا بأمر الدنيا، لقد قمت بأمر الدين، لما وَهِيَ شعبه وتفاقم صدعه، ورجعت جوانبه، فعليك سلام الله توديع غير قالية لحياتك، ولا زارية على القضاء فيك"(٣).

إن هذا الرثاء مؤثر وصادق، فهو ينبع من عاطفة جياشة، لا تكن سوى الحب والصدق، وهو يدل في الوقت نفسه على مدى تضلع السيدة عائشة في الأدب وامتلاكها ناصيته حتى في أشد المواقف حزناً، فقد استطاعت أن تعبر عن مشاعرها وأحاسيسها وانفعالاتها أحسن تعبير، ونجحت في تبليغ المشاعر النبيلة التي تحملها البنت لأبيها على العادة.

نلحظ في النص الآنف النفس الإسلامي، كما تظهر قوة العاطفة، وهي سمة من سمات الخطيب الناجح فلا يؤثر في المستمعين إلا المتأثر، ولا يثير الحماسة في القلوب إلا من امتلأ حماسة لما يدعو إليه، لأن ما يخرج من القلب بصدق يدخل في القلوب بصدق وسلاسة، ومن غير استئذان(٤).

كما يبدو في النص النفس السياسي وثقة الخطيبة بنفسها وجرأتها في قول الحق وبلاغتها، وليست هذه البلاغة بمستغربة من السيدة عائشة فهي زوج الرسول عليه الصلاة والسلام، نهلت من فيض بلاغته وقوة أسلوبه، كما أنها تبكي الصديق وخليفة رسول الله ﷺ، فجمع قولها بذلك أسباب البيان والفصاحة والحكمة وطلب العزاء.

---

(١) الآبي، نثر الدر، الجزء الرابع، ص ١٩. وانظر أحمد زكي صفوة، **جمهرة خطب العرب في العصور الزاهرة**، الجزء الأول، المكتبة العلمية، بيروت، (د.ت)، ص ٢١٠.

(٢) الآبي، **نثر الدر**، الجزء الرابع، ص ١٩.

(٣) **المصدر نفسه، الجزء الرابع**، ص ٢٠.

(٤) محمد أبو زهرة، **الخطابة أصولها، تاريخها في أزهى عصور العرب**، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، دمشق، ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م، ص ٥٧.

ومـــن شـــهيرات النســـاء الخطيـــبات السيدة فاطمة بنت الرسول ﷺ، اتسمت خطبها بالفصـــاحة والـــبلاغة وحســـن البيان، ولا غرو في ذلك فهي ابنة النبي البليغ ﷺ، نهلت من فصـــاحته وبلاغته، وأفادت من نصاعة منطقه وإشراقة أسلوبه، ومن أشهر خطبها خطبتها في قضـــية فدك[١]، ويقال إنه عندما نزلت الآية القرآنية الكريمة: ﴿**فآت ذا القربى حقه والمسكين وابـــن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون**﴾ [٢] أعطى الرسول ﷺ فاطمـــة فدكـــا، ولما توفي رسول الله ﷺ تولي أبو بكر الحكم وبعد عشرة أيام من توليته بعث إلـــى فدك من يخرج وكيل فاطمة بنت الرسول ﷺ وقد احتج أبو بكر على ذلك بأن فدك فيء للمســـلمين، وما كان من فاطمة إلا أن اتجهت إلى مسجد رسول الله ﷺ لتلقي خطابا تعلن فيه عن تظلمها.

فلاثـــت فاطمـــة خمارهـــا على رأسها، واشتملت بجلبابها، وأقبلت في لمّة من حفدتها ونســـاء قومهـــا، تطأ ذيولها، ما تخرم مشيتها مشية رسول الله ﷺ حتى دخلت على أبي بكر وهـــو فـــي حشد من المهاجرين والأنصار وغيرهم فنيطت دونها ملاءة ثم أنّت أنّة أجهش لها القوم بالبكاء، وارتج المجلس، ثم أمهلت هُنَيَّة حتى إذا سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم، وقفت تخطب بهم[٣].

اســـتهلت الســـيدة فاطمة خطبتها بحمد الله والثناء عليه والصلاة على نبيه، ثم التذكير بفضـــائل النبـــي عليهم منذ بدء الدعوة الإسلامية، وقد أدى الرسالة على أتم وجه، فقالت: "لقد جـــاء رســـول الله من أنفسكم عزيز عليكم ما عنتم حريص عليكم، بالمؤمنين رؤوف رحيم[٤]، فـــإن تعـــرفوه تجـــدوه أبـــي دون آبائكم، وأخا ابن عمي دون رجالكم، فبلغ الرسالة، صادعا بالـــنِذارةِ، بالغا بالرسالة، مائلا على مَدرجةِ المشركين، ضاربا لِثبْجِهم[٥]، يدعو إلى سبيل ربه

---

(١) **فـــدك** قـــرية صـــغيرة بالحجـــاز شمال المدينة أفاءها الله على النبي ﷺ صلحا في السنة السابعة للهجرة وأعطاها فاطمة.

(٢) **سورة الروم**: الآية ٣٨.

(٣) الأربلـــي، أبو الحسن علي بن عيسى، **كشف الغمة في معرفة الأئمة**، قدم له السيد أحمد الحسني، الجزء الأول، الطـــبعة الأولـــى، منشورات الشريف الرضي، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ص ٤٥٣. وانظر الآبي، **نثر الدر**، الجزء الرابع، ص ٨. وانظر ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص٢٩- ٣٦.

(٤) انظر: **سورة التوبة**، الآية ١٢٨.

(٥) الثبج: الصدر.

بالحكمـــة والموعظـــة الحســـنة، آخذاً بكظمهم، يهشم الأصنام، وينكث الهام، حتى هُزم الجمع وولوا الدبر وتغرّى[١] الليل عن صبحه، وأسفر الحق عن محضه"[٢].

ويـــبدو أن السيدة فاطمة كانت في ذلك الموقف غاضبة أشد الغضب على تلك الفعلة، فـــأرادت أن تذكـــر الحضور بسمو مكانتها المستمدة من مكانة الرسول عليه الصلاة والسلام، فهـــي ابنـــته وفلذة كبده وريحانته، وهو الذي وجدهم يهيمون في ظلمات الجاهلية حتى كشفها، وأبـــان لهم طريق الحق، وهداهم إلى سواء السبيل وطريق الخير والحق بعدما كانوا في غيهم يعمهون.

ثـــم تبين بعد هذه المقدمة التي كانت تذكيراً لماضيهم ما حل بالمسلمين بعد وفاة رسول الله ﷺ إذ انتشـــرت بـــذور الـــنفاق بين صفوفهم حتى اضطربت، وتتساءل بأي حق غصبوها حقهـــا، والقرآن الكريم خير شاهد ودليل، فها هي تذكر الحجة وتؤيدها بشاهد من الذكر، وهذا منهج الخطباء الأبيناء، تقول: "... حتى إذا اختار الله لنبيه ﷺ دار أنبيائه ظهرت خلة النفاق، وسَـــمِلَ جلباب الدين، ونطق كاظم الغاوين، ونبغ خاملُ الآفلين، وهدر فنِيقُ[٣] المبطلين فخطر فـــي عَرَصَـــاتِكم، وأطلـــع الشيطان رأسه من مغرزه صارخاً بكم، فوجدكم لدعائه مستجيبين، وللغـــرة ملاحظين، فاستنهضكم فوجدكم خفافاً، وأجْمَشَكم[٤] فألفاكم غِضاباً فوسمتم غير إبلكم، وأوردتموهـــا غير شربكم، هذا والعهد قريب، والكَلْمُ رحيب، والجرح لما يندمل. إنما زعمتم: خوف الفتنة "ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين..." [٥].

ثم انكفأت على قبر أبيها ﷺ فقالت:

قدْ كانَ بَعدكَ أنباءٌ وهنبثـــــة ... لو كنتَ شاهدُها لمْ تكثُر الخُطَبُ

إنا فقدناك فقدَ الأرض وَابلها ... واختَلَّ أهلكَ فاحضرْهم ولا تَغِب[٦]

---

(١) تغرّى: طلع وانكشف.

(٢) ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص٢٩- ٣٠. انظر الأربلي، **كشف الغمة**، الجزء الأول، ص ٤٥٣. وانظر الآبي، **نثر الدر**، الجزء الرابع، ص ٨.

(٣) فنيق: الفحل من الجمال.

(٤) أجمشكم: ناداكم بصوت خفيّ.

(٥) ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص ٣١.

(٦) **المصدر نفسه**، ص ٣٢.

تستنكر السيدة فاطمة ما صنعه معها أبو بكر الصديق، وما سار عليه المسلمون من بعده، حتى إنها عدت ذلك خروجاً عن الحق وضلالاً وقعوا فيه، وأغواهم الشيطان إلى ذلك فكانوا من الغاوين، وقد عبرت عن هذه المشاعر التي تفيض غضباً، نثراً ثم شعراً، روَّحَت فيه عن نفسها وواست أشجانها، لكنها لم تلبث بعد أن تلتقط أنفاسها، تستأنف كلامها من جديد، وتصل اللوم باللوم، والتقريع بالتقريع، فواصلت خطابها الطويل الذي يفيض مرارة وأسىً وحرقة على تلك الحال من حالات التبدل والانقلاب التي أصبح المسلمون عليها بعد رحيل والدها الخليفة، اتجهت الخطيبة المؤثرة إلى مجلس الأنصار تعاتبهم على الخذلان وتثير حميتهم، وهي تقول: "إيها بني قيلة، أأهتضم تراث أبيه، وأنتم بمرأى مني ومسمع؟ تلبسكم الدعوة وتشملكم الحيرة، وفيكم العدد والعدة، ولكم الدار، وعندكم الجنن، وأنتم الألى نخبة الله التي انتخب وأنصار رسول الله ﷺ، وأهل الإسلام، والخيرة التي اختار الله لنا..."[1].

تعد خطبة السيدة فاطمة أنموذجاً صالحاً في الخطابة النسائية، إذ أنها تتمثل فن الخطابة بصورة مشرقة، فجاءت خطبتها مناسبة للمقام، ذات طابع عاطفي ونفس سياسي خطابي، اكتسبت الخطيبة حسن استماع الجمهور والتأثير فيهم فجعلتهم يبكون، كما أنها أحسنت البدء والختام، فجعلت كلامها بعد انقطاع البكاء والنشيج ليسمعها القوم كلهم. وإلى جانب ذلك، فهي على جانب كبير من الجرأة والشجاعة، ولا يكون ذلك إلا لصاحب الحق، كما أنها تبني كلامها على الأدلة والشواهد والبراهين، إذ تسوق الفكرة وتدعمها بآية قرآنية.

وما كانت هذه الثورة الغاضبة من السيدة فاطمة إلا تنفيساً عن صدرها، وسرعان ما اعتصمت هذه السيدة المؤمنة حقاً بحبل الله ووكلت أمرها إلى بارئها، فها هي تقول: "ألا وقد قلت الذي قلته على معرفة مني بالخذلان الذي خامل صدوركم واستشعرته قلوبكم، ولكن قلته فيضة النفس، ونَقْثَة الغيظ، وبَثّة الصَّدر، ومعذرة الحجة، فدونكموها فاحتقبوها مدبرة الظهر، ناقبة الخف، باقية العار... فاعملوا إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون"[2].

وواضح من خطب هاتين السيدتين الفاضلتين: عائشة الصديقة وفاطمة الزهراء أن موضوعات الخطب وأغراضها عند النساء تنوعت تنوعاً جيداً، فكان منها الخطب الحربية والسياسية، فضلاً عن الخطب الاجتماعية، ويتراءى هذا اللون الأخير في خبر ساقه الهيثم بن عدي الطائي، قال: حدثنا مجالد عن الشعبي قال: "لقيني شريح فقال: يا شعبي عليك بنساء

---

(١) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص ٣٥. وانظر الآبي، نثر الدر، الجزء الرابع، ص ١٢.

(٢) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص ٣٦.

تمـــيم، فإني رأيت لهن عقولاً..." ثم يروي له قصة زواجه من إحداهن في ليلة زفافه إذ ألقت بيـــن يديـــه خطـــبة تنم عن وعي وإدراك لتقدير الحياة الزوجية وحقوق الزوج على زوجته، وبخـــبرتها فـــي الحـــياة أدركت أن المرأة إن تزوجت رجلاً من غير أقاربها أو عشيرتها فهي غريـــبة ينبغـــي أن تتعامل مع هذا الرجل الغريب وأهله بحذر ولين، وسياسة وكياسة، فأحبت هـــذه المـــرأة أن تعـــرف مـــا يحب زوجها، وما يكره حتى لا تقع في خطأ أو تأتي أمراً غير محمـــود، إذ ورد روايـــة عـــن زوجها: "فلما خلا البيت دنوت منها، فمددت يدي إلى ناحيتها، فقالـــت: على رسلك أبا أمية كما أنت، ثم قالت: الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأصلي على محمد وآلـــه، إنـــي امـــرأة غريـــبة لا علـــم لي بأخلاقك، فبيِّنْ لي ما تحب فآتيه، وما تكره فأزدجر عنه..."[١].

هـــذه مـــثال المـــرأة الصالحة التي تعلن طاعتها لزوجها منذ البدء، فهي حريصة أشد الحـــرص علـــى تحقـــيق السعادة لزوجها لتتحقق من ثم السعادة لها، وقد تعلمت فيما يبدو من تجـــارب حـــياة الآخرين أن من منغصات الحياة الزوجية وأسباب فشلها مخالفة الزوج وعدم الالتزام بالقيام بما يجب، وتجنب ما يكره.

ثـــم هـــي تبين لزوجها أن إرادة الله جمعت بينهما، وكما أنها ستقوم بواجبات الزوج، فإنهـــا تطلب هي الأخرى أن يقوم زوجها بواجباته تجاهها إذ تقول: "إنه قد كان لك في قومك منكح، وفي قومي مثل ذلك، ولكن إذا قضى الله أمراً كان، وقد ملكت فاصنع ما أمرك الله به: **"إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان"**[٢].

ثم تختم خطبتها بالدعاء والابتهال على غرار ما كان يصنع الخطباء: "أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولك"[٣].

تـــبدو هـــذه الخطـــبة نـــادرة في موضوعها ومناسبتها، ومنها يقع الدليل على دخول الخطابة في صدر الإسلام أغراضاً جديدة لم تكن معروفة في العصر الجاهلي بفعل تأثير الدين الجديـــد. وفي مقابل هذه الخطبة أراد الزوج أن يطمئن زوجته التي تخشى الغربة والعيش في بيـــئة غـــير التي تربت فيها وتخاف الزلة مع الزوج الغريب، فبادرها بخطبة مماثلة، افتتحها بحمد الله والصلاة على نبيه، ثم بين لها أن التزامها بطاعته مفتاح سعادتهما وما سواه تنغيص

---

(١) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء السادس، ص ٩٣. وانظر الزبير بن بكار، **الأخبار الموفقيات**، تحقيق سامي مكي العاني، الطبعة الأولى، منشورات الشريف الرضي، (د.ت)، ص ٤٦.

(٢) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء السادس، ص ٩٣.

(٣) **المصدر نفسه**، الجزء السادس، ص ٩٣.

وتكديـــر لحـــياتهما وراح بعـــد ذلـــك يذكر لها ما يحب وما يكره في هذه الحياة فمما جاء من كلامـــه: "الحمد لله وأستعينه وأصلي على النبي وآله وسلم وبعد، فإنك قد قلت كلاماً إن تثبتي عليه يكن ذلك حظك، وإن تدعيه يكن حجة عليك، أحب كذا وأكره كذا"(١).

ومـــن الجديـــر ذكره أن هذا النوع الطريف من الخطب يعد نادراً، إذ لا نقع إلا على قلـــيل مـــن نصوصـــه، وذلك لأن الانشغال بأمور السياسية في ذلك العصر كان أكثر تركيزاً واهـــتماماً، ولـــم يصل إلينا إلا ما له علاقة ماسة بأحداث تاريخية وسياسية ذات شأن في حياة المجتمع الإسلامي.

وقـــد كـــان للأحداث السياسية والتاريخية التي شهدها العصر الإسلامي متمثلة بمقتل عـــثمان بـــن عفـــان وتولي علي بن أبي طالب الخلافة (٣٥هـ)، ومن ثم انشقاق المسلمين إلى أحـــزاب وشيع أثر جلي في ازدهار فن الخطابة عامة، ومن جملتها خطب النساء، فقد خرجت بعـــض النساء تخطب في الناس، تلهب صدورهم، وتثير مشاعرهم كما في موقعـــة الجمـــل (٣٦هـ) أول موقعـــة اقتتل فيها المسلمون، إذ انقسم المسلمون على إثرها حزبين: حزب عائشة بنـــت أبي بكر، وحزب علي بن أبي طالب، وفي تلك الموقعة كان للسيدة عائشة خطب جريئة ذات طابع سياسي، تدور فكرتها العامة حول موضوع الخلافة. ومن أبرز خطبها المتعلقة بهذا الموضـــوع الخطبة التي ألقتها في المربد، إذ اجتمع الناس هناك، وجعلوا يثوبون، حتى غص الـــناس فقامـــت الســـيدة عائشة خطيبة فيهم، وأثنت عليه، جرياً على مراسم الخطبة في ذلك العصر.

وقد جعلت خطبتها في ثلاثة أقسام، يتضمن القسم الأول المقدمة التي تجري على سنن الخطابـــة الإســـلامية في حمد الله والثناء عليه بما هو أهله، وأما القسم الثاني فتحدثت فيه عن كـــيد الأعـــداء لعثمان رضي الله عنه ودعوى المنافقين ضده، فقالت: "كان الناس يتجنون على عـــثمان رضـــي الله عـــنه، ويَزرُونَ على عماله ويأتوننا بالمدينة، فيستشيروننا فيما يخبروننا عـــنهم، فنـــنظر فـــي ذلـــك فـــنجده بَـــريّاً، وتقيّاً وفيّاً، ونجدهم غدرة كذبة، يحاولون غير ما يظهرون"(٢).

ثـــم بينـــت فـــي القسم الأخير الذنب العظيم الذي اقترفوه ضد عثمان عندما فشلوا في الإطاحـــة بحكمـــه، فاستحلوا دمه وحرمة بيته، طالبة إقامة حكم الله عليهم، فقالت: "فلما قووا علـــى المكاثـــرة كاثـــروه، واقتحموا عليه داره، واستحلوا الدم الحرام، والمال الحرام، والبلد

---

(١) ابن عبد ربه، **المصدر نفسه**، الجزء السادس، ص٩٣.

(٢) الطبري، **تاريخ الطبري**، الجزء الخامس، ص١٧٥.

ثـم تذكـر عمله الجليل في محاربة حركة المرتدين، والقضاء على مواطن الفتنة التي أخذت تنجم عقب وفاته عليه الصلاة والسلام فتقول: "ثم اضطرب حبل الدين بعده، فمسك أبي بطرفـيه، ورتـق لكم أثناءه فوقم النفاق، وأغاض نبع الردة وأطفأ ما حشت يهود، وأنتم يومئذ جحظ العيون، تنظرون الغدرة، وتسمعون الصيحة، فرأب الثأى[١]..."[٢].

وتـتحرك السيدة عائشة في خطبتها مع حركة التاريخ الإسلامي، حتى تصل إلى عهد الخليفة المغدور عثمان بن عفان، فتتحدث عن جملة من أعماله، إذ سار على نهج السابقين أبي بكـر وعمـر، فوقم بأعباء الخلافة، وفي عهده جمع القرآن الكريم، وكان مثالاً رائعاً لأخلاق الحـاكم المسـلم مـن الحـرص علـى الدين ونصرة الإسلام، والذب عن حرماته، والعدل والإنصـاف، والإعراض عن الجاهلية. ثم تنذر بسوء العاقبة، وتصلي على نبيه فتقول: "فولى أمـركم رجـلاً مُرعياً إذ ركن إليه، بعيداً ما بين اللابَتَيْن[٣]، عروكة للأذاة يجنبه، يقظان الليل فـي نصـرة الإسلام، فسلك مسلك السابقين، ففرق شمل الفتنة، وجمع أعضاد ما جمع القرآن، وأنا نصب المسألة عن مسيري هذا، لم ألتمس إثماً ولم أورث فتنة أوطئكموها، أقول قولي هذا صدقاً وعدلاً وإعذاراً وإنذاراً، وأسأل الله أن يصلي على محمد، وأن يخلفه فيكم بأفضل خلافة المرسلين"[٤].

وبعـد فتـنة الجمل، كانت الفتنة الثانية بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان فـي موقعـة صـفين (٣٧هـ) التـي انتهت بقصة التحكيم المشهورة، فكان ذلك نصراً سياسياً لمعاويـة، وعلى إثر قبول علي وبعض جماعته التحكيم، تعرض المسلمون لانشقاق آخر، فقد انسـلخ عـن علـي جماعة من أنصاره رأوا أنه كان مخطئاً بقبوله التحكيم ونزوله عن حقه الشـرعي سمّوا بالخوارج، لكن الأمر انتهى لمعاوية في رمضان من عام (٤٠هـ)، بعد أن قتل علـي علـى يـد عـبد الرحمن بن ملجم، وتمت مبايعة معاوية أميراً للمؤمنين، وبذلك انتقلت حاضرة الخلافة من الكوفة إلى دمشق.

لقد كانت هذه الأحداث التاريخية الحاسمة مثيرة للخطابة أكثر من ذي قبل؛ فقد اتسعت مشـاركة المرأة العربية في ظل هذه الأحداث الكبرى، حتى أصبحت تجد في نفسها من الجرأة

---

(١) الثأي: الإفساد.

(٢) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الرابع، ص٣١٥.

(٣) بعيد ما بين اللابتين: أي واسع الصدر.

(٤) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الرابع، ص ٣١٥-٣١٦.

والقـوة مـا يدفعهـا إلـى التفاعل مع الحديث الطارئ[١] والمشاركة في إلهاب المشاعر قبيل المعـارك، ولشـد مـا كنت تجدها رقيقة القول ما كان المقام يستدعي الرقة، غليظة المعاني والألفاظ إذا كانت المناسبة تستدعي العنف والغلظة[٢].

ومـن النساء اللواتي كان لهن دور بارز في المشاركة في الأحداث السياسية السيدة أم الخَـيْر بنـت الحَـرِيْش البَارِقِيَّة التي وقفت في يوم صفين وقد ارتدت برداً كثيفاً تركب جملاً أرمك[٣] وحولها جماعة من الناس وبيدها سوط منتشر الضفر كالفحل يهدر في شقشقته، وهذه مـن التقاليد والسنن التي كان يأتيها الخطيب كالركوب على الدابة أو الإمساك بعصا أو سوط، فضـلاً عـن الصـفات المطلوبة كحدة الصوت ووضوح النبرة، فقد وصف صوت أم الخير بصـوت الفحل، وقد أدارت أم الخير خطبتها حول عدد من المحاور فتحدثت عن مقتل عمار بن ياسر الذي أوضح الحق، وأبان الدليل، لأن النبي ﷺ قال: عمار تقتله الفئة الباغية[٤].

وقـد كـان عمار يحارب إلى جانب علي، فكان استشهاده حجة دافعة تزيل الشكوك، وتصـفع المخالفيـن، وتلعن المتخاذلين، فقالت: ﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شـيء عظـيم**﴾[٥]، إن الله قـد أوضح لكم الحق، وأبان الدليل، وبين السبيل، ورفع العلم، ولم يدعكم في عمياء مدلهمة"[٦].

ثـم هـي تؤنب وتقرع من الفرار والتخلي عن علي بن أبي طالب، لأن ذلك كما ترى ارتـداد عـن الإسلام، فها هي تقول: "فأين تريدون رحمكم الله؟ أفراراً عن أمير المؤمنين؟ أم فراراً عن الزحف؟ أم رغبة عن الإسلام؟ أم ارتداداً عن الحق؟"[٧].

---

(١) أمـل نصـير، **صـورة المرأة في الشعر الأموي**، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص ٢٩٣.

(٢) مصطفى الشكعة، **الأدب في موكب الحضارة**، ص ٢٩٠.

(٣) **أرمك**: أحمر اللون مائل إلى السواد.

(٤) صـادق انينه وند وحسن عباس نصر الله، **الأدب السياسي الملتزم في الإسلام**، دار التعارف، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، ص ١٢٣.

(٥) **سورة الحج**: الآية ١.

(٦) ابـن طيفور، **بلاغات النساء**، ص ٥٤. وانظر الضبي، **أخبار الوافدات من النساء على معاوية بن أبي سفيان**، ص٢٩.

(٧) ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص ٥٤. الضبي، **أخبار الوافدات من النساء على معاوية**، ص ٢٩.

ثـــم هي تشكو إلى الله مما حل بالقوم من الرعب والقتل ونفاذ الصبر: "أما سمعتم الله جل ثناؤه يقول: ﴿**ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ولنبلو أخباركم**[١]﴾[٢].

وتـــتوجه إلـــى الله بالدعاء طالبة منه أن يوحد صفوف المسلمين على التقوى، ويؤلف قلوبهـــم علـــى الهـــدى، كما تدعو الناس إلى الالتفاف حول علي بن أبي طالب الإمام العادل، والوصـــي الوفي، فتقول: "اللهم قد عِيلَ الصبرُ، وضعف اليقين، وانتشر الرعب، وبيدك يا رب أزمّة القلوب، فاجمع إليه الكلمة على التقوى، وألّفِ القلوب على الهدى، واردد الحق إلى أهله، هَلُمُّوا رحمكم الله إلى الإمام العادل، والوصيّ الوفيّ، والصديق الأكبر"[٣].

وبعـــد الدعاء تلخص السيدة أم الخير وقائع التاريخ السياسي في عصر صدر الإسلام مبيـــنة أسباب حرب صفين، مرجعة أسباب الفتنة إلى الثأر من مجاهدة أمير المؤمنين علي بن أبـــي طالـــب وبطولاته في سبيل نشر الدعوة الإسلامية في مواقع عدة كبدر ويوم أحد، إذ قتل علي كرم الله وجهه عدداً من سادات قريش وصناديد بني أمية، مشيرة إلى أن معاوية إنما قام ليطلـــب بـــثأر سادات عبد شمس الذين قتلوا في حروب قريش مع رسول الله ﷺ تقول: "إنها إحَـــنٌ بدرية، وأحقاد جاهلية، وضغائن أحُدية، وثب بها معاوية حين الغفلة، ليدرك ثارات بني عبد شمس"[٤].

وأخـــذت بعـــد ذلك تحرض على القتال، لا حباً في القتل، إنما دفاعاً عن الحق، وحتى يفـــيء الذيـــن ضلوا ويرجعوا عن غيهم، داعية إلى الصبر والثبات: "قاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمـــان لهـــم لعلهم ينتهون. صبراً معشر المهاجرين والأنصار، قاتلوا على بصيرة من ربكم، وثبات من دينكم"[٥].

ثم تتحول أم الخير إلى ذكر صفات أهل الشام، حزب معاوية، فهم طلاب دنيا، اعتنقوا الضلالة وباعوا الهدى، وبدلوا البصيرة بالعمى، فكان حظهم الهزيمة والندامة، إذ تركوا الحق وتمســـكوا بالباطل، تقول في صفتهم: "باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدى، وباعوا البصيرة بالعمى، عما قليل ليصبحن نادمين"[٦].

---

(١) سورة محمد: الآية ٣١.

(٢) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص ٥٤.

(٣) المصدر نفسه، ص٥٤. وانظر الضبي، أخبار الوافدات من النساء على معاوية، ص ٢٩.

(٤) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص ٥٤. والضبي، أخبار النساء الوافدات على معاوية، ص ٢٩.

(٥) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص ٥٤.

(٦) المصدر نفسه، ص ٥٤.

وتذكـــر أم الخير مسوغات الحرب والأسباب التي تجعل الوقوف مع علي واجبا: وهي الدفـــاع عن الإسلام وإقامة الحق والشرائع والحدود وقهر الظالمين، كما أنها تحذر من الفرار والتخلـــي عـــن ابـــن عم رسول الله وصهره، فتقول: "والله أيها الناس لولا أن تبطل الحقوق، وتُعَطَّـــلُ الحدود، ويظهر الظالمون، وتقوى كلمة الشيطان، لما اخترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه، فإلى أين تريدون – رحمكم الله – عن ابن عم رسول الله ﷺ وزوج ابنته وأبي ابنـــيه؟"(١). وهـــي بذلك تجعل حرب معاوية أمراً لا مفر، ولولا ذلك لما اختاروا حمأة الموت على السكينة والراحة(٢).

وتـــأخذ أم الخـــير في الحديث عن صفات علي –كرم الله وجهه – ومكانته وبطولاته، فهـــو ابـــن عم الرسول ﷺ وزوج ابنته فاطمة، خلق من طينته، وتفرع من أصله، وهو باب مديـــنة علمه، وكاتم أسراره، من أوائل المسلمين، صلى صغيراً، وتميز بشجاعة نادرة، إذ فلق رؤوس الأعـــداء الكافرين، وكسر الأصنام، قتل فرسان بدر، وشجعان أحد، وبدد جمع هوازن يـــوم حنين، وهذه البطولات الفذة لعلي زرعت الأحقاد في قلوب الأمويين: "خلق من طينته – أي رســـول الله – وتفرع عن نبعته، وخَصَّهُ بسرِّه، وجعله باب مدينته، وعلم المسلمين، وأبان ببغضـــه المنافقين، فلم يزل كذلك يؤيده الله –عز وجل– بمعونته، ويمضي على سنن استقامته، لا يعـــرج لراحة الدأب ها هو مُقلقُ الهام، ومكسِّرُ الأصنام، إذ صلى والناس مشركون وأطاع والـــناس مرتابون، فلم يزل كذلك حتى قتل مبارزي بدر، وأفنى أهل أحد، وفرق جمع هوازن، فيالها من وقائع زرعت في قلوب قوم نفاقا، وردة وشقاقا"(٣).

وتخـــتم أم الخير خطبتها بالدعاء إلى الله عز وجل أن يوفق الجمع بعدما بذلت ما في وســـعها، وقدمـــت لهـــم أحسن النصح: "وقد اجتهدت في القول، وبالغت في النصيحة، وبالله التوفيق والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته"(٤).

تمـــثل هذه الخطبة الجريئة روح العصر وتكشف عن الصراعات السياسية التي وقعت إثـــر وفاة النبي عليه السلام، وامتدت إلى مقتل عثمان وحرب الجمل وصفين، واستئثار معاوية

---

(١)ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص ٥٥.

(٢) محمـــد خليفة، **الأدب والنصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي**، الطبعة الأولى، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، ص ٢٠٣.

(٣) ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص ٥٥.

(٤) **المصدر نفسه**، ص ٥٥.

بحكـم المسلمين، وكانت أم الخير داعية للإمام علي -كرم الله وجهه- منافحة عنه وصرحت بعقيدتها يوم صفين[١].

أثـارت تلـك الأحداث السياسية والحروب الأهلية في النساء الذاكرة إثارتها للعاطفة، فاندفعـت فـي تأيـيد الأحزاب اندفاعاً كشف النقاب عن خطيبات نابغات لم يعرفن في تاريخ العرب [٢].

ومـن النسـاء اللواتـي أصبن حظاً من الخطابة في هذا العصر، وشاركن في مسيرة الأحـداث السياسـية السيدة عِكْرِشَة بنت الأطْرَش، إذ يروى أنها: "دخلت على معاوية متوكئة علـى عكاز لها، فسلمت عليه بالخلافة ثم جلست، فقال لها معاوية: ألست المتقلدة بالسيف ذي الحمائل، وأنت واقفة بين الصفين يوم صفين"[٣]. ثم يذكر معاوية خطبتها.

يبدو أن السيدة عكرشة نجحت في تحقيق العوامل الشكلية المتعارف عليها، إذ توشحت بيدها سيفاً، ووقفت بين صفين، وقفة الخطيب يريد أن يلقي خطاباً مهماً.

تناولـت عكرشة في خطبتها عدة موضوعات، بيد أن حديثها تمحور حول التحريض على القتال وبث الشجاعة في صفوف المقاتلين، وقد رسمت في سبيل ذلك للجنة صورة محببة إغـراءً بالشهادة، فالجنة هي مسعى المسلمين وأملهم بعد الحياة الفانية، والطريق إلى الجنة هو الشـهادة. كمـا أقامت عكرشة مقابلة غير متكافئة بين الحياة الدنيا الزائلة والجنة حياة السعادة الأبديـة إذ لا حزن ولا هرم ولا موت ، تقول: "أيها الناس عليكم أنفسكم، لا يضركم من ضل إذا اهتديـتم، إن الجـنة دار لا يـرحل عنها من قطنها، ولا يهرم من سكنها، ولا يموت من دخلهـا، فابـتاعوها بـدار لا يدوم نعيمها، ولا تُصَرِّمُ همومها، وكونوا قوماً مستبصرين في دينهم، مستظهرين بالصبر على طلب حقهم"[٤].

ثـم راحـت تتـناول أهـل الشام بالذم والشتم مبينة صفتهم، فهم – في رأيها – عجم العـرب، وقد تقصد بذلك أذنابهم، وهم غلف القلوب، طلاب دنيا لا يفقهون شيئاً من الدين: "إن

---

(١) صادق أثينه وند وحسن عباس نصر الله، **الأدب السياسي الملتزم في الإسلام**، ص ٢٩.

(٢) محمـد جمـيل بـيهم، **المـرأة في حضارة العرب والعرب في تاريخ المرأة**، الطبعة الأولى، دار النشر للجامعيين، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م، ص ٧٦.

(٣) ابـن عـبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الثاني، ص ١١١. وانظر الضبي، **أخبار الوافدات من النساء على معاوية**، ص ٢٩.

(٤) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الثاني، ص ١١١.

معاوية دَلَفَ إليكم بعُجْمِ العرب غُلفِ القلوب، لا يفقهون الإيمان ولا يدرون ما الحكمة، دعاهم بالدنيا فأجابوه، واستدعاهم إلى الباطل فلبّوه"(١).

كمـــا عـــادت عكرشة في آخر خطبتها تحرض المهاجرين والأنصار على ملاقاة أهل الشـــام وتنهى عن التواكل الذي يهدم أصول الدين، وراحت تزين الحرب في عيونهم ونفوسهم حـــتى إنهـــا لتشـــبه معركـــتهم مع أهل الشام بمعركة بدر أول معركة خاضها المسلمون وفي مقدمـــتهم ابن عم رسول الله علي بن أبي طالب، وانتصروا فيها على المشركين أجداد معاوية، وتحـــذر عكرشـــة قومهـــا أثناء ذلك من الفرار أمام جيش الشام لما يتضمنه الفرار من نتائج وخيمة تعود على الدين والمسلمين.

"فالله الله عباد الله في دين الله، وإياكم والتواكل فإن ذلك ينقض عرى الإسلام، ويطفئ نـــور الحق، هذه بدر الصغرى، والعقبة الأخرى، يا معشر المهاجرين والأنصار، امضوا على بصيرتكم، واصبروا على عزيمتكم"(٢).

ممـــا سبق يتضح أن المرأة في عصر صدر الإسلام نالت جانباً من الاهتمام والحرية، وتحـــررت مـــن قـــيود الجاهلية، فبرزت موهبتها الأدبية، إذ استطاعت أن تشارك الرجل في المواقـــف السياسية، وقد برزت في هذا العصر أكثر من ذي قبل؛ لأنه شهد أحداثاً عديدة هيأت للمـــرأة الفرصة للمشاركة والظهور، بدءاً من وفاة النبي -عليه السلام-، ومروراً بحرب الردة الحاسمة، وانتهاء بمقتل عثمان وما نجم عنه من اختلاف المسلمين. والتقائهم في موقعة الجمل وحرب صفين.

وجدير بالذكر أن أغراض الخطابة في هذا العصر جاءت في معظمها في موضوعات الحـــرب والسياســـية فـــأحداث المـــرحلة هـــي التي حددت الأغراض والمضامين، وصبغتها بصبغتها.

٣ـ في العصر الأموي:

لا يشك أحد أن الخطابة ضرورية لكل نهضة من النهضات أو دعوة من الدعـــوات ،

---

(١) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الثاني، ص ١١١.

(٢) ابـــن عـــبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الثاني، ص ١١٢. وانظر الضبي، **أخبار الوافدات من النساء على معاوية**، ص٣٨.

كما تشتد الحاجة إليها كلما اشتدت خصومة المعارضين، أو تيقظت فتن المخالفين، وكثر عدد المتمردين[١].

يعد العصر الأموي من هذه الجهة عصراً حافلاً بالأحداث السياسية التي أثرت في حياة الفن الخطابي في هذا العصر، وتاريخ العصر الأموي يسجل صراعاً متصلاً بين الفرق والأحزاب المختلفة، ومدار هذا الصراع على الخلافة، ومن أجل الظفر بها اصطرعت الأحزاب والفرق صراعاً حربياً ولسانياً لم تهدأ ثائرته طوال هذا العصر، وفي ظل الأحداث السياسية التي شهدها العصر ازدهرت الخطابة السياسية ازدهاراً لم تحظ به في أي عصر آخر، إذ أنها كانت أحد الأسلحة الماضية التي استخدمت إبان هذا الصراع السياسي العنيف[٢].

وفي هذا الخضم يبرز أمامنا سؤال جدير بالإجابة، وهو: هل شاركت المرأة في هذه الأحداث السياسية؟ وهل كان لها نصيب من الخطابة كما كان لها في عصر صدر الإسلام؟

تورد المصادر العربية خطباً لعدد من أعلام النساء في العصر الأموي يدور معظمها حول مسألة الشقاق السياسي بين علي ومعاوية، أبرز المسائل السياسية التي غطت على ذلك العصر، ويتضح بعد الاطلاع أن دور المرأة في هذا العصر لم يكن كسالفه، على الرغم من أن العصر شهد أحداثاً سياسية حاسمة، وهذا أمر يستدعي النظر والتساؤل والتأمل.

وربما عاد الأمر إلى سياسة معاوية التي جمعت إلى الشدة اللين، وإلى الحزم الحلم، إذ سكنت الفتن إلا قليلاً، غير أنه سكون لا شيء فيه من الرضا، فالقلوب كثير منها نافر، ولكنها الرغبة والرهبة، والطمع والخوف وما أنهكت به الأمة من حروب مستمرة، كل هذا جعل الناس يسكنون قليلاً وإن كانت قلوب تستنكر. ولم تكن المرأة بمعزل عن هذه الرغبة أو الرهبة، أو ذلك الاستنكار أو السكون، ينضاف ذلك الوضع السياسي، فقد شهد العصر مظاهر اجتماعية اختلفت باختلاف البلدان، فهي في الحجاز غيرها في العراق، وهي في الشام غيرها في اليمن، ففي المدن الحجازية وجد ترف بعد أن لم يكن، أما في العراق ففتن دائمة، وقلق مستمر، أما في الشام حيث حكم الأمويون فقد ساد الترف. وفي هذا الاختلاف الاجتماعي غاب حضور المرأة أحياناً فيما بين الترف والفتن، وانشغلت حيناً آخر بالسياسة[٣].

---

(١) إبراهيم أبو خشب، **الأدب الأموي، صورة رائعة من البيان العربي**، الهيئة العصرية العامة للكتاب، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م، ص ١٢٦.

(٢) إحسان النص، **الخطابة في عصرها الذهبي**، دار المعارف، القاهرة، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م، ص ٥٣.

(٣) محمد أبو زهرة، **الخطابة أصولها وتاريخها في أزهى عصورها عند العرب**، ص ٢٩٣-٢٩٤.

وقــد يكــون مصير جزء من أدبها الضياع كما هي حاله في عصور أخرى، وأما ما وصل إلينا فلم يكن نصيبه ذلك إلا لاقترانه ببلاط الخلافة أو تهيأت له أسباب الحفظ.

يمكــن إجمال ما وصل إلينا من خطب في هذا العصر في وفادة عدد من النساء على معاويــة[١]، ووفــادة ليلى الأخيلية على معاوية ومروان والحجاج[٢]، وخطب عدد من أخوات الحسين بن علي وبناته[٣]، وخطبة لامرأة في رثاء الأحنف بن قيس[٤].

تذكــر المصــادر العربية أن عدداً من النساء وفدن على معاوية بن أبي سفيان لطلب حاجــة أو الشــكوى مــن عــامل، وأن معاوية أجابهن وأكرمهن، ومن هؤلاء : أروى بنت الحارث[٥]، وأم الخير البارقية[٦]، وأم سنان المذحجية[٧]، وعكرشة بنت الأطرش[٨].

ويســاور بعــض الباحثين الشك في نسبة هذه الوفادات، ومن الأسباب التي دعت إلى ذلك أن الصورة المرسومة للوافدات تكاد تكون واحدة؛ فأغلبها تتحدث عن امرأة عجوز قدمت علــى معاويــة من العراق أو الحجاز لطلب حاجة أو شكوى من أحد عماله، ثم تدور محاورة بينهما تدل أن هذه المرأة كانت منحازة لعلي بن أبي طالب في صفين.

ومــن ذلك أن هؤلاء النسوة، إما من أقارب علي أو من القبائل التي قيل إنها انحازت لعلــي في وقعة صفين. ومن ذلك الدهشة والاستغراب من أن تقطع امرأة عجوز مسافة طويلة تــتحمل فــيها مشاق السفر من العراق أو الحجاز لتسب معاوية ثم تذكر حاجتها فيجيبها. ومن ذلــك موقــف معاوية من هؤلاء الوافدات، إذ إنه يبدو مسلوب الإرادة تجاه طعن بعض هؤلاء النســاء فــي عمالــه. ومــن ذلك أيضاً تعرض أروى بنت الحارث فيما نسب إليها بالصحابة وسبهم[٩].

---

(١) ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص ٤٤-٥٥.

(٢) المســعودي، **مروج الذهب**، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، الجزء الثالث، دار المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م، ص ١٧٠-١٧١.

(٣) ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص ٣٨، ص٤٢.

(٤) الجاحظ، **البيان والتبيين**، الجزء الثاني، ص٣٠٢-٣٠٣. وانظر الآبي، **نثر الدر**، الجزء الرابع، ص٧٠.

(٥) ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص ٤٥-٤٧.

(٦) **المصدر نفسه**، ص ٥٢-٥٥.

(٧) **المصدر نفسه**، ص ٧٩-٨١.

(٨) **المصدر نفسه**، ص ٨٦.

(٩) فــريال العلي، **فن الخطابة في العصر الأموي: دراسة نقدية**، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ص ١٤٠-١٤١.

إن بعض هذه الشكوك قد يكون في موضعه؛ فصورة المرأة الوافدة تكاد تكون صورة نمطية مستكررة وهذا أمر لافتٌ، وإن الوافدات يغلب أن يكنّ من أقارب علي أو من القبائل المنحازة له، وهذا أمر لافت أيضاً، لكن في الوقت نفسه قد يكون هناك وافدات على معاوية من غير أقارب علي أو القبائل المنحازة له، لكن هذه النصوص لم تلقَ عناية من المؤلفين القدامى الذين كانوا يعنون بغرائب الأخبار وما اشتملت عليه من الطرائف، وفضلاً عن ذلك، فإن قطع مسافات طويلة من قبل امرأة عجوز ليس بالسبب المقنع لرفض هذه الروايات، إذ أن صاحب الحاجة قد يقطع آلاف الأميال لينال حاجته. أما السب على الصحابة فقد يكون دساً من قبل الحاقدين على الأمة الإسلامية ليبثوا الفرقة والشقاق والنفاق في صفوفها ولكسب ولائهم.

أما معاوية، فلم يكن مسلوب الإرادة لكنه راعى أن الوافدة امرأة عجوز لا يجوز شتمها أو الاعتداء عليها. وفوق ذلك كله، فإن هذه الوفادات لم تكن شاذة في ذلك العصر، إذ كانت حركة الوفود حركة حضارية قوية نشطت في عهد الرسول ﷺ واشتعل نشاطها في عهد الأمويين الذين فتحوا قصورهم للوفود العربية، فكانت تغدو وتروح عليهم، وقد عرف عنهم إكرام الوفود ورعايتها والاحتفال بها والإغداق عليها.

فلا تعجب أن تسير في ظلال هذه الحركة حركة وفادة للنساء العربيات ما دامت المرأة تلقى عناية ورعاية من قبل الخليفة كما يلقاها الرجال الوافدون.

ونقف أولاً عند وفادة أروى بنت الحارث بن عبد المطلب، فقد قيل إنها كانت أغلظ الوافدات على معاوية خطاباً، بيد أن حلم معاوية كان أعظم من خطابها، دخلت عليه وهي عجوز كبيرة، فلما رآها قال: مرحباً بك يا خالة، كيف كنت بعدنا[1].

فردت عليه بخطبة ألقتها بين يديه، بدأتها بمعاتبة على خصومته لابن عمها علي بن أبي طالب، وفاخرته ببني هاشم، وفضلتهم على بني أمية، إذ قالت: "بخير يا أمير المؤمنين، لقد كفرت النعمة، وأسأت بابن عمك الصحبة، وتسميت بغير اسمك، وأخذت غير حقك من غير دين كان منك ولا من آبائك ولا سابقة في الإسلام بعد أن كفرتم برسول الله"[2].

---

(١) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الثاني، ص ١١٩. وانظر ابن حجة الحموي، **ثمرات الأوراق**، ص ١٠٩. وانظر الضبي، **أخبار الوافدات من النساء على معاوية**، ص ٤٧.

(٢) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الثاني، ص ١٢٠.

وهكـــذا ترى السيدة أروى أن الأمويين اغتصبوا الخلافة من علي بغير حق، فتتناولهم بالســـب بكـــل جـــرأة مـــن غير خوف وتدعو عليهم بالذل والهوان، "فأتعس الله منكم الجدود، وأمْرَغ منكم الخدود، ورد الحق إلى أهله ولو كره المشركون"(١).

وتؤكـــد أروى أن علـــياً وجماعته هم الأقربون للنبي عليه الصلاة والسلام من معاوية وحزبه، فهم آل بيته، وأحق بالخلافة منهم: "فأصبحتم تجمحون على سائر العرب بقرابتكم من رســـول الله ﷺ ونحن أقرب إليه منكم، وأولى بهذا منكم فكنا فيكم بمنزلة بني إسرائيل من آل فرعون، وكان علي رضي الله عنه عند نبينا محمد ﷺ بمنزلة هارون من موسى فغايتنا الجنة وغايتكم النار"(٢). فاعترضها عمرو بن العاص فعيرته بنسبه وتكلم مروان فأفحمته(٣).

وغنـــي عن البيان أن أروى بنت عبد المطلب تمتلك جرأة أدبية، وشجاعة وثباتاً على الرأي، وتمسكاً بالحق حتى ولو كان الجالس أمامها الخليفة، إذ انطلق لسانها كالسيف في حدته ومضـــائه، تكفـــر معاوية، وترفض مبايعته، وتؤكد أحقية علي في الخلافة، ومن الواضح أن عاطفة أروى المتأججة أذكت حدة خطابها.

ومـــن النساء الوافدات على معاوية أيضاً امرأة يقال لها الدارمية الحجونية، بعث إليها معاويـــة حاجاً يريد أن يعرف سبب حبها لعلي وبغضها له، وموالاتها لعلي ومعاداتها له(٤). ثم طلبـــت منه أن يعفيها عن الإجابة فلم يكن من ذلك بد، فقالت: "فأما إذا أبيت، فإني أحببت علياً – كـــرم الله وجهه– على عدله في الرعية، وقسمه بالسوية، وأبغضتك على قتالك من هو أولى بالأمر منك، وطلبك ما ليس لك"(٥).

هكـــذا تبيـــن الدارمية أسباب حبها لعلي إذ إنه يحكم الرعية بالعدل، ولا يلحق بأحدهم الظلـــم أو الضيم، فالعدل شأنه والحرص عليهم دأبه. ثم تبين والجرأة تعلو خطابها والشجاعة تمـــلأ قلـــبها والفصـــاحة تنفث من لسانها أسباب بغضها لمعاوية، إذ قاتل علي وجماعته، لأنه اســـتحق الخلافـــة، واغتصب معاوية هذا الحق زوراً وبهتاناً. وتدفعها جرأتها فتتابع حديثها :

---

(١) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الثاني، ص ١٢٠.

(٢) **المصدر نفسه**، الجزء الثاني، ص١٢٠.

(٣) **المصـــدر نفسه**، الجزء الثاني، ص١٢٠. وانظر كلودا أبي شقرا، **نساء عربيات**، الطبعة الأولى، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ص ٧.

(٤) ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص ٨٨.

(٥) **المصدر نفسه**، ص ٨٨.

"ووالیـــت علـــیا – كرم الله وجهه– على ما عقد له رسول الله ﷺ من الولاية وحب المساكين وإعظامه لأهل الدين، وعاديتك على سفكك الدماء وشقك العصا"(١).

وتقترن أسباب الحب والبغض عندها بأسباب الموالاة والمعاداة، فحبها وموالاتها لعلي منبـــثق مـــن حب رسول الله عليه الصلاة والسلام له وتوليته أمور المسلمين من بعده، وكذلك حـــبه للمســـاكين وتقديره لأهل الدين، أما بغضها لمعاوية ومعاداتها له فمنبثق من سفكه لدماء المسلمين وخروجه عن أمر الخليفة وطاعته.

ولم تقتصر خطب المرأة العربية في العصر الأموي على النواحي السياسية فيما يتعلق بشـــؤون الخلافة، وما نجم عنها من فتن وانشقاقات، بل كان لها خطب موضوعها الشكوى من العمـــال والـــولاة والدعوة لرفع ظلمهم متخذة من فصاحتها وطلاقة لسانها سبيلاً لبلوغ غايتها، فضـــلاً عـــن جرأتها وشجاعتها، إذ هي تنشد حقاً لها، ومن ذلك ما كان في مجلس معاوية بن أبـــي ســـفيان وامـــرأة مـــن بني ذكوان جاءته تشتكي زياد بن أبيه وقد غصبها ضيعتها وقتل رجالها.

ومـــن اللافـــت للـــنظر في خطبتها ما افتتحت به كلامها، إذ حمدت الله ثم بينت فضل اللســـان على الإنسان إذ هو آلة البيان، وشكر الله على نعمه، وبه تختلف لغات الأقوام، ويذكر الله، ويحصـــل العلـــم، فقالت: "الحمد لله يا معاوية الذي خلق اللسان فجعل فيه البيان، ودل به علـــى النعم، وأجرى به القلم فيما أبرم وحتم، وذرأ وبرأ، وحكم وقضى، صرف الكلام باللغات المخـــتلفة على المعاني المتفرقة إلفها بالتقديم والتأخير، والأشباه والمناكر، والموافقة والتزايد، فأدتـــه الآذان إلـــى القلوب، وأدته القلوب إلى الألسن بالبيان، واستدل به على العلم، وعُبد به الرب، وأبرم به الأمر، وعرفت به الأقدار، وتمت به النعم"(٢).

وفـــي خضـــم حديثها عن الأقدار تذكر أن زياداً كان قدرهم المحتوم، إذ ولاه معاوية أمرهم، فحكم بحكم الجاهلين، سفك دماءهم، وهتك محارمهم، وبسخط وغضب عارمين تصب علـــيهم لعنـــتها فهو خائن وغشوم وكافر ظلوم، لا يخاف الله : "فكان من قضاء الله وقدره أن قربـــت زياداً، وجعلت له بين آل سفيان نسباً، ثم وليته أحكام العباد يسفك الدماء بغير حلها ولا حقهـــا، ويهـــتك الحـــرم بـــلا مراقبة الله فيها، خؤونٌ غشومٌ كافرٌ ظلومٌ، يتخير من المعاصي أعظمها، لا يرى لله وقاراً، ولا يظن أن له معاداً"(٣).

---

(١) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص ٨٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ٧٨.

ثـم تمضي خطبتها من غير تلعثم أو تعثر في الكلام تذكر معاوية صلته برسول الله، وتحـذره مـن مخالفة أمر الله في توليته زياد بن أبيه الذي طغى في حكم العباد وظلمهم: ".. وغـداً يُعرضُ عمله في صحيفتك، وتوقف على ما اجترم بين يدي ربك، ولك برسول الله ﷺ أسـوة، وبيـنك وبينه صهر، فلا الماضين من أئمة الهدى اتبعت، ولا طريقهم سلكت، جعلت عبد ثقيف على رقاب أمة محمد ﷺ يدبر أمورهم، ويسفك دماءهم، فماذا تقول لربك يا معاوية وقد مضى من أجلك أكثره، وذهب خيره وبقي وزره؟"[١].

ثـم تكشـف بعد هذه المقدمة الطويلة عن حاجتها وتبثه شكواها، وتطلب منه إنصافها وإلا فأمـرها إلى الله تقول: "إني امرأة من بني ذكوان، وثب زياد المدعى إلى أبي سفيان على ضيعتي ورثتها من أبي وأمي، فغصبنيها، وحال بيني وبينها، وقتل من نازعه فيها من رجالي، فأتيـتك مستصـرخة، فإن أنصفت وعدلت وإلا وكلتك وزياداً إلى الله – عز وجل– فلن تبطل ظلامتي عندك ولا عنده، والمنصف لي منكما حكمٌ عدلٌ"[٢].

فما كان من معاوية إلا التعجب من حسن كلامها، ثم رد ضيعتها لها وأعطاها عشرين ألف درهم[٣].

وبعـد وفاة معاوية بن أبي سفيان رأى الحسين بن علي أنه أحق الناس بالخلافة، لكن الأمـر آل ليزيد بن أبي سفيان، وقد رفض الحسين مبايعته، وكانت النتيجة مقتله في كربلاء، فعـم الغضب آل بيته، فكان ذلك الحدث دافعاً قوياً لإلقاء الخطب التي تحمل في طياتها غضباً وثـورة لمقـتل الحسين، ومن أشهر النساء اللواتي انطلقت ألسنتهن لهذا الحدث المهم أم كلثوم بنـت علي رضي الله عنه، إذ نطقت بلسان حديد بعد أن طلبت من الناس الإنصات إلى قولها، وقـد جـاءت خطبتها في ثلاثة محاور بدأتها بحمد الله والثناء عليه إذ قالت: " أبدأ بحمد الله، والصلاة والسلام على أبيه"[٤].

ثـم أخذت في المحور الثاني توبخ أهل الكوفة وتقرعهم تقريعاً شديداً لغدرهم بالحسين وخذلانـه، فهـم الذيـن دعوه في بادئ الأمر ليبايعوه، لكنهم سرعان ما انفضوا عنه، وخذلوه وانـتهى الأمر إلى مقتله: "أما بعد يا أهل الكوفة، يا أهل الختر والخذل[٥] ألا فلا رقأت العبرة

---

(١)ابن طيفور، بلاغات النساء، ص ٧٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ٧٩.

(٤) المصدر نفسه، ص ٤١.

(٥) الختر: الغدر والخديعة.

ولا هـــدأت الرنة، إنما مثلكم كمثل: ﴿**كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دَخَلاً بينكم**﴾[١] ألا وهل فيكم إلا الصَّلَفَ والشَّنَفَ[٢] ومَلَقَ الإماء وغَمْزَ الأعداء؟ وهل أنتم إلا كمرعى على دِمْنَةٍ وكفضة على مَلْحُودَةٍ[٣]؟ ألا ساء ما قدمت أنفسكم"[٤].

وانتهـــت في المحور الأخير من خطبتها تنذر بالعقوبة، فصورت مقتل الحسين جريمة عظـــيمة، فـــيها إســـاءة لرســـول الله ﷺ نفسه، حتى كادت السماء تمطر دماً على تلكم الفعلة النكراء التي ارتكبها المجرمون الذين سيلقون عذابهم الأليم في الآخرة.

فقالت: "أتدرون أي كبد لرسول الله فريتم؟ وأي كريمة له أبرزتم؟ وأي دم له سفكتم؟ لقـــد جئـــتم بها شوهاء خرقاء، شرهاً طلاع الأرض والسماء، أفعجبتم أن قطرت السماء دماً؟ ولعـــذاب الآخـــرة أخـــزى وهم لا ينظرون، فلا يستخلفنكم المهل فإنه لا تحفزه المبادرة، ولا يخاف عليه فوت الثأر، كلا إن ربك لنا ولهم بالمرصاد"[٥].

إن هـــذا التقســـيم الـــذي جاءت به أم كلثوم في خطبتها تقسيم مناسب للحال، وترتيب لأجـــزاء القـــول مقـــبول، وقد اعتمدت في خطبتها الأمثال والاقتباس والسجع وعنيت باختيار الألفاظ الجزلة، ذات الدلالة المعنوية القوية التي يتراءى الانفعال فيها ظاهراً، وعاطفة الغضب واضحة[٦].

ونقف بعد ذلك عند خطبة موضوعها الرثاء لامرأة في الأحنف بن قيس، حليم العرب، ومـــن الجدير ذكره أن هناك اختلافاً في نسبة هذه الخطبة، فالجاحظ ينسبها في "البيان والتبيين" إلـــى فرعانة بنت أوس بن حجر، بينما ينسبها ابن طيفور في "بلاغات النساء" إلى صفية بنت هشام المنقرية، وفي وراية القالي في "ذيل الأمالي" أنها لامرأة من قومه من بني منقر.

وهذا الاختلاف في النسبة دعا بعض الدارسين إلى الشك في نسبة هذه الخطبة، إذ أنها رويت عارية عن إسناد، وجاء إسنادها منقطعاً عند القالي[٧].

---

(١) **سورة النحل**، الآية ٩٢.

(٢) **الشنف**: الكره والاعتراض.

(٣) **ملحودة**: مدفونة لا ينتفع بها.

(٤) ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص ٤١.

(٥) **المصدر نفسه**، ص ٤٢.

(٦) محمد طاهر درويش، **الخطابة في صدر الإسلام**، الجزء الثاني، دار المعارف، مصر، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، ص ٣٦٧.

(٧) فريال العلي، **فن الخطابة في العصر الأموي**، ص ١٤٧.

ونحـــن إذ نمضي في تناول هذه الخطبة لا نبحث كثيراً في مسألة السند، ولا سيما أن نـــتعامل مـــع روايـــة أدبية، ومعروف لدى الدارسين أن القدامى كانوا لا يلتزمون الإسناد في روايـــاتهم الأدبـــية، بل كانوا يغتفرون انقطاعه أو اضطرابه، ولا يتشددون في ذلك كما يتشدد علمـــاء الحديث. ولكن هذا لا ينفي أن تكون هذه الخطبة لامرأة عربية يغلب أن تكون من بني تميم جاشت مشاعرها أمام قبر سيد من سادات القبيلة، وحليم من حلماء العرب، وهو من خيار التميميـــن فـــي الإســـلام، وقد كان بليغاً فصيحاً، شجاعاً في القول والفعل، فانطلق لسان هذه المـــرأة تعـــدد مناقب الأحنف وتحتسبه عند الله، إذ قالت: "إنا لله وإنا إليه راجعون، رحمك الله أبـــا بحـــر مـــن مِجَنٍّ في جَنَن، ومُدْرَج في كفن، فوالذي ابتلانا بفقدك، وأبلغنا يوم موتك، لقد عشـــت حمـــيداً، ومت فقيداً، ولقد كنت عظيم الحلم، فاضل السلم، رفيع العماد، واريَ الزناد، منيع الحريم، وسليم الأديم"[١].

ففـــي هذه الخطبة التأبينية القصيرة تتضح صفات الأحنف بن قيس المأسوف عليه من قـــبل هذه المرأة وقومها، فهو محمود الخلق، متواضع، حليم، شريف، مهاب الجانب، شديد في موضع الشدة، لين في موضع اللين.

وهـــي إذ تندب الأحنف تعدد مناقبه، فهو شريف في المحافل، عطوف على الأرامل، قريـــب إلى الخلفاء، مستشار قومه لما يتمتع به من سداد الرأي، تقول: "وإن كنت في المحافل لشـــريفاً، وعلـــى الأرامل لعطوفاً، ومن الناس لقريباً، وإن كنت لمسوّداً، وإلى الخلفاء لموفداً، وكانوا لقولك لمستمعين، ولرأيك لمتبعين"[٢].

والأرجـــح أن تكـــون هذه المرأة صفية ابنة هشام المنقرية، لأنها كما ورد في بلاغات النســـاء ابـــنة عـــم الأحنف، ومن ينعم النظر في هذه الخطبة يكاد يجزم أن تكون هذه المرأة المتأثرة حقاً على وفاة الأحنف على صلة قربى به. وعلى أبعد تقدير، فإن هذه المرأة لا تتعدى أن تكـــون من قوم الأحنف، أي من بني تميم، إذ لا يتوقع أن تنهد امرأة من غير قوم الأحنف إلى تأبينه على هذا النحو الذي يشي بقربها منه.

يلحظ دارس خطب المرأة في العصر الأموي تركيزها حول موضوع الرثاء والتأبين، ولا شـــك أن ذلـــك مرتبط بعاطفة المرأة، فهي أقدر من الرجل على الخوض في موضوعات كهـــذه، فمشاعرها وأحاسيسها تدفعانها لرثاء قريب أو تأبين سيد أو زعيم، فهذه فطرة فطرت

---

(١) الجاحظ، **البيان والتبيين**، الجزء الثالث، ص٣٠٢. وانظر ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص٦٧. وانظر: القالي: **ذيل الأمالي**، ص٢٧.

(٢) الجاحظ، **البيان والتبيين**، الجزء الثالث، ص٣٠٢. وانظر ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص٦٧.

المـــرأة عليها منذ نعومة أظفارها لا تملك الانفكاك عنها، ولا يعد ذلك نقيصة بشأن المرأة بل هو تكريم لها، لتكون قادرة على رعاية الابن والزوج، والعطف على القريب والمحتاج.

ومـــن موضـــوعات خطـــب المرأة في العصر الأموي الاستعطاف والاستجداء، فهذه أعرابية تشكو القحط والجوع، وهي أم ذات عيال، قطعت المسافات الطوال، السهول والجبال، لتصل إلى أمير البصرة عبيد الله بن أبي بكرة، إذ دلّها أناس عليه، فوقفت بين يديه مستعطفة: "أصـــلح الله الأمـــير وأمـــتع به، حدرتنا إليك سنة اشتد بلاؤها وانكشف غطاؤها، فجئتك أقود صبية صغاراً وأخرى كباراً، تخفضنا خافضة، وترفعنا رافعة، وغشيتني ملمات بَرَيْنَ عظمي، وأذهبن لحمي، وتركنني بالحضيض، قد ضاق بي البلد العريض، وسألت في أحياء العرب مَن المُرتَجى المعطي سائله؟ فدللت عليك أصلحك الله "[1].

وهـــي تعـــرّف بعـــد هذا الدعاء والتقرب من الأمير ووصف الحال بنفسها، فهي من هـــوازن، أرملـــة لـــيس لها معيل ولا لأولادها، وأملها بالله ثم الأمير أن يكون العون منه، إذ تقـــول: "وأنـــا امـــرأة من هوازن، قد مات الوالد، وغاب الرافد، وأنت بعد الله رجائي ومنتهى أملي"[2].

ثـــم تطلـــب منه واحداً من ثلاث، فإما أن يردها إلى أهلها، أو يكرم ضيافتها ويحسن اســـتقبالها، أو يلبي حاجتها، فكان رد الأمير أن أعطاها الثلاثة، إذ قالت: "فافعل إحدى ثلاث : إما أن تردني إلى بلدي، أو تحسن صفدي، أو تقيم أودي، فقال: بل أجمعهن لك وحيا. فلم يزل يجري عليها كما يجري على عياله حتى مات"[3].

يعـــد العصـــر الأمـــوي العصر الذهبي لازدهار الخطابة العربية إذ توفرت لها البيئة الخصـــبة التـــي استوت فيها سوقها، فكانت الخلافات والانقسامات بين صفوف المسلمين على تولـــي الخلافـــة ســـبباً في ازدهار الخطابة، إذ راح الخطباء كل يؤيد حزبه ويحارب الحزب الآخـــر، وقد كان للمرأة كما لاحظنا دور في هذا الميدان، غير أنها لم تشارك مشاركة الرجل كمّـــا ونوعاً، بل إنها كانت حاضرة حضوراً لعله يناسب منزلتها آنذاك، فقد وقفت أمام الخليفة بكـــل جـــرأة تخطـــب معـــبرة عن اعتقادها أو مشاعرها من غير وجل أو تعثر، كما خطبت

---

(١) التوحـــيدي (٤١٤هـ)، **البصـــائر والذخائـــر**، الجزء الخامس، ص٦٧. وانظر الوطواط، **غرر الخصائص الواضـــحة وعـــرر الـــنقائص الفاضحة**، دار صعب، بيروت، (د.ت)، ص٢٦٥. وابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص٥٩ مع اختلاف في الرواية.

(٢) التوحيدي، **البصائر والذخائر**، الجزء الخامس، ص ٦٧.

(٣) **المصدر نفسه**، الجزء الخامس، ص ٦٧.

الـزرقاء بنـت عدي وعكرشة بنت الأطرش وأم الخير بنت الحريش، وكما اشتكت إليه تلك المـرأة من بني هوازن، ما حادت واحدة منهن عن مبدأها، ولا ترددت في مقالتها، كما راحت ترثي وتؤبن السادة، وتعدد مناقبهم، كما دفعتها الحاجة أن تستعطف بكلمات بليغة مؤثرة.

٤ـ في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثاني:

بعـد أن اسـتقر أمـر الخلافة في يد العباسيين، ظهرت نسوة امتلكن زمام الفصاحة والـبلاغة، وقـد شهد ذلك العصر نضوجاً في أدب المرأة لما عرف عن العباسيين من اهتمام بالمرأة وأدبها سواء كن من الإماء أو الجواري أو الحرائر.

ومـن أبـرز النسـاء اللواتـي عرفن بالأدب السيدة زُبيدة زوج الرشيد[١] والعبّاسة[٢] وعلـيّة[٣] ابنـتا المهدي، والسيدة نفيسة[٤]، وأم جعفر البرمكي[٥]، إذ أثرت لهن خطب ورسائل ووصايا وتوقيعات لا تقل أهمية عن سابقاتهن في العصور الآنفة.

شـهدت حـركة الخطابـة في مطلع العصر العباسي نشاطاً واسعاً، لا سيما الخطابة السياسـية، إذ اتخذت الثورة العباسية الخطابة أداتها في بيان حق العباسيين في الحكم، وكانوا يحسـون مـنذ أول الأمر أن أبناء عمهم العلويين ينكرون عليهم استئثارهم بالخلافة، فمضوا يؤكدون في خطابتهم أنهم أصحاب هذا الحق[٦].

لكـن هـذا النشاط يكاد يكون مقتصراً على الرجال دون النساء، وهذا يثير التساؤل، لاسيما إذا ما عرفنا عناية المرأة في هذا العصر بالأدب، ولعل السبب في ذلك يعود إلى طبيعة العصـر، ومـا اتسـم به من ترف وبذخ ومن ثم اهتمام المرأة بمظاهر تلك الطبيعة وزينتها. وفضـلاً عن ذلك، فإن العصر العباسي، المتمثلة بالفتن والثورات والمسألة الكبرى وهي مسألة الخلافة، كتلك التي شهدها العصران الإسلامي والأموي.

كمـا يمكـن القول بأن اهتمام المرأة بالشعر في ذلك العصر برز أكثر منه بالنثر، كما أنـه لم توجد في عصرها تلك الموضوعات النثرية الجادة التي يمكن أن تشغل بالها، ولا ينفي

---

(١) سليمان سليم البواب، **مئة أوائل من النساء**، ص ٣٨٠.

(٢) **المصدر نفسه**، ص ٣٧٤.

(٣) **المصدر نفسه**، ص ٣٧٨.

(٤) **المصدر نفسه**، ص ٣٨٠.

(٥) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الأول، ص ١٧٠.

(٦) شوقي ضيف، **العصر العباسي الأول**، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م، ص ٤٤٨.

ذلــك مطلقــاً أن يكــون بعضــهن قد ترك نصوصاً نثرية جيدة كالخطب والوصايا والرسائل والتوقيعات.

أمــا الجــواري والإمــاء، فقد كان اهتمام النخاسين ينصب على تعليمهن فنون القول والــبلاغة وتحفيظهــن أكبر كم من الشعر ليصيبوا بهن ثمناً باهظاً في الأسواق التي يشترين فيها، إذ أن الشعر يتوفر فيه الإيقاع والموسيقى التي تنسجم مع واقع العصر، ويفسح –الشعر– المجال للغناء الذي ينشده الخلفاء والولاة في قصورهم.

وقــد تنوعــت الأغراض والموضوعات تبعاً لمستجدات العصر، ففي العصر العباسي رقيــت الحضــارة ورقت المشاعر، وكثرت المبادلات الاجتماعية، فبرزت على سبيل المثال خطــب غرضها التهنئة، وهو غرض اجتماعي جديد في مسيرة خطابه المرأة العربية كخطبة السيدة زبيدة في تهنئة المأمون بالخلافة.

افتتحــت زبيدة خطبتها بحمد الله، ثم مضت تهنئ الخليفة المأمون إذ إن ابنها الأمين لم يفــز بالخلافــة، لكــنها تقيم معادلاً نفسياً فترى في المأمون ابناً خليفة، تقول: "الحمد لله أهنئك بالخلافــة، فقــد هنأت بها نفسي قبل أن أراك، ولئن كنت قد فقدت ابناً خليفة لقد اعتضت ابناً خليفة، وما خسر من اعتاض مثلك، ولا ثكلت أمٌّ ملأت عينها منك"(١).

وهــي بذلــك تسلك مسلكاً دقيقاً، يدل على براعتها في طرق موضوع وعر، فهي أم الخلــيفة الابن المخلوع، وهي مع ذلك مدفوعة إلى الإبقاء على صلة طيبة مع الخليفة الجديد، ولذلك فهي تحاول أن تسترضي الخليفة المأمون غير قاطعة لخيط الذكرى المؤلمة التي تمثلت بقــتل ابنها الأمين. ثم تدعو الله أن يعوضها وابنها خيراً من الخلافة: "وأنا اسأل الله أجراً على ما أخذ، وإمتاعاً بما وهب"(٢).

وقــد أعجب الخليفة المأمون بهذه البلاغة حتى يرى أنها فاقت بلاغة الرجال، إذ كان تعلــيقه علــى ذلك إيجاباً فقال: "ما تلد النساء مثل هذه، ماذا تراها أبقت في هذا الكلام لبلغاء الرجال"(٣).

وفي العصر العباسي كثرت خطب الاستعطاف والاستجداء، فقد كان الخطيب يتوصل إلى العطاء عن طريق رسم سوء الحال وتغير الزمان، وانتشار المجاعة، ببلاغة وحسن تأثير،

---

(١) الآبــي، **نثر الدر**، الجزء الرابع، ص٧٠. وانظر العاملي، **المخلاة**، نسقه وفهرسه ووضع هوامشه محمد خليل باشا، الطبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص٢٦.

(٢) الآبي، **نثر الدر**، الجزء الرابع، ص ٧٠.

(٣) **المصدر نفسه**، ص ٧٠.

ويحسن أن نشير إلى أن هذه الخطب وصلت إلينا منسوبة في الغالب إلى أعرابيات، ومن ذلك ما جاء عن الأصمعي قال: وقفت أعرابية بقوم فقالت: "يا قوم سنة جردت، وأيد جمدت، وحال جهدت، فهل من فاعل خير، وآمر بمير، رحم الله من رحم، وأقرض من يقرض"(١).

لقد أثرت هذه المرأة في نفوس السامعين وأثارت شفقتهم عليها إذ أن الجوع أصابها ولم تجد من يعطيها، وهذه الأعرابية على درجة من الفطنة والبلاغة إذ أنها ذكرت القوم بثواب المحسنين، فإن الله سوف يرحمهم، ويبارك لهم في رزقهم.

وترفض المرأة الحرة الكريمة الزواج ممن لا يستحقها، أو ممن لا تجتمع فيه صفات الرجال الكريمة والأخلاق الحميدة، كما ترفض أن يبيعها ولي أمرها كما تباع الشاة، فهذه أم مالك من بني أسد زوجها أبوها من ابن أخيه مرة بن الجعد وقد كان شرطا(٢) من الرجال دميماً، فجامحته وانسلت بالليل، فوافت المدينة تستعدي حسن بن زيد العلوي على أبيها(٣).

ترفض أم مالك الزواج غير المناسب فمرة ليس بالزوج الكفؤ، ولم يستشرها أبوها في زواجها منه، ولم تملك إلا الهرب واللجوء إلى حسن بن زيد، أمير المدينة، فقطعت الصحارى، حافية في جوف الليل ليسترها حتى تصله، فلما وصلت إليه نادت: "إنا بالله وبك يا ابن رسول الله، فقد جاوزت إليك مخاوف، وقطعت تنائف(٤) انتعل الحُقى، وأحتمل الوَجَى(٥)، عائذة بالله وبك من والد مغبون، وقرين مأفون، شراني بأوكس الأثمان، وعكسني بدار مذلة وهوان، من زوج كأنه كلب مصرور، على جيفة ممطور، في يوم صِرٍّ مقرور"(٦).

لم تستطع أم مالك أن تألف هذا القرين، ولم تجد عنده إلا المذلة والهوان، حتى أبغضته أشد البغض حتى أنها لم تستطع النوم أو حبس دموعها، ولا تملك إلا الأمل بعدل الأمير: "قد شرد بغضه نوم الجفون واستجلب قلاه ماء الشئون. فالنوم موثق، والدمع مطلق، إذا استجم الدمع أفاضته أحزانها، وإذا فاض وكف بأسجانها. نؤمل من عدلك ما نشر الله به

---

(١) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الثالث، ص ٤٣٣.

(٢) **شرطا**: أراذل الناس.

(٣) الآبي، **نثر الدر**، الجزء الرابع، ص ٩٩.

(٤) **تنائف**: جمع تنوفة وهي المفازة.

(٥) **الوجى**: أشد من الحفا.

(٦) الآبي، **نثر الدر**، الجزء الرابع، ص ٩٩-١٠٠.

حســـن الظن بك"[١]. فآنسها الأمير العلوي في الوحشة، وأطمعها في الإنجاح، ثم أنشدته شعراً لها، فقام الحسن بأمرها حتى بلغت مرادها[٢].

يتضـــح ممـــا ســـبق أن المرأة استطاعت أن تتمثل الخطابة حسب ما اقتضاه الموقف والمناسبة بلغة فصيحة ولسان بليغ، وعاطفة دفاقة، وإن كانت أقل كمّاً من العصور الآنفة، إلا أنهـــا خطبـــت ونوعت في خطبها بين التهنئة والاستعطاف والاستجداء، متمثلة تقاليد الخطابة وأصولها، وملتزمة بقواعدها وسننها.

---

(١) الأبي، **نثر الدر**، الجزء الرابع، ص ١٠٠.

(٢) **المصدر نفسه**، ص ١٠٠.

الوصايا:

ارتـــادت المرأة العربية الوصية كما ارتادت الخطابة، ولا غرو في ذلك فقد نهلت مع الـــرجل مـــن معيـــن واحد، واستقت من البيئة الأصول نفسها، وعاشت الأحداث والمؤثرات نفسها، فكان لها وصايا شاهدة في الأدب العربي ولم تقل شأناً عن وصايا الرجال، وقد تنوعت موضوعات وصايا المرأة بين سياسية واجتماعية ودينية، كما انطبعت وصاياها بطابع العصر الذي عاشت وبرزت سمته فيما كتبت موضوعياً وفنياً.

ومـــا هو جدير بالذكر أن وصايا النساء لم تكن بالكم الذي كانت عليه الخطب، ويعود ذلك إلى أن الوصية غالباً ما تكون بين طرفين اثنين، ولا تحتاج إلى جمهور عريض كالخطبة ممـــا يقلل فرصة شيوعها، فميدان الوصية أضيق دائرة وأقل مجتمعاً من الخطبة، فهي إما أن تكـــون مـــن أب لبنـــيه أو مـــن أم لبـــناتها، أو من رجل لقومه حين تحزب المسائل واحتشاد المشكلات، أما الخطبة فأرحب ميداناً وأوسع افتناناً وأشمل جمعاً من الوصية[1].

أدركـــت المرأة بتجربتها أن الأسرة كيان اجتماعي ينبغي المحافظة عليه، والعمل على ســـعادته أحاطـــت ابنـــتها بوصايا كثيرة تبين فيها كيفية التعامل مع الزوج، رب هذه الأسرة، ووسائل سعادة الزوجين.

ولأن تجربـــتها أعمق وعاطفتها أقوى، حرصت كذلك أن توصي ابنها، فلذة كبدها، إن أراد ســـفراً، أو خـــوض معـــركة، فراحـــت توصـــيه بنفسه خيراً وبصديقه براً، وتدعوه إلى الاحتراس من كيد العادين وغدر الخائنين.

١ـ في العصر الجاهلي:

يـــدور أبرز ما نجده من وصايا جاهلية حول موضوع الهداء، أي الزواج، وتكاد هذه الوصـــايا تخـــتص بالنساء دون الرجال، ولا غرابة في ذلك، فإن الأم أقرب إلى البنت تربوياً ونفســـياً وهـــي -أي البنت – قد تخجل من أبيها في الحديث في موضوع الزواج، ولكنها أقل خجـــلاً مـــن أمها، كما أن الأم أدرى بمسائل الزواج وكيفية التعامل مع الزوج والأسرة بفضل

---

(١) عـــبد الحمـــيد المسلوت، **الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام**، الطبعة الأولى، الجامعة الليبية، بنغازي، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م، ص١٨٧. وانظـــر محمـــد عـــثمان علي، **في أدب ما قبل الإسلام: دراسة وصفية تحليلية**، دار الأوزاعي، بيروت، د.ت، ص ٢١٦.

تجربـــتها الطويلة، وحاسة الأمومة النابضة في عروقها، ووعيها الأنثوي الذي تدركه أكثر من الأب.

ولأن مســـألة الـــزواج ليست بالأمر الهين فهي تقرير مصير، وحياة جديدة لم تتعودها الفـــتاة، وهـــي مسؤولية لا تنجح في تأديتها والقيام بها على خير وجه إلا الكفوءات، لذا فأمر الزواج يحتاج أحياناً إلى إقناع من قبل الأم أو الأب أو المقربين، وهذا ما عرفه الجاهليون وما زلنا نعرفه إلى يومنا هذا.

ونذكر على سبيل المثال ما كان بين ابنة أحد الأقيال[١] في العصر الجاهلي ونسوة قمن بتربيـــتها وتأديـــبها حتى بلغت مبلغ النساء، فنشأت أحسن منشأ وأتمّه عقلاً وكمالاً، فلما مات أبوهـــا ملكهـــا أهـــل مِخْلافهـــا[٢]، فاصـــطنعت النسوة اللاتي ربّينها وأحسنت إليهن، وكانت تشـــاورهن، ولا تقطـــع أمـــراً دونهـــن، فقلن لها يوماً: "... يا بنت الكرام، لو تزوجت لتم لك المُلك.." [٣].

وكما يبدو فإن الزوج كان يحظى في هذا العصر باهتمام عال عند المرأة، إذ لا تكون الحـــياة دونـــه، ولو ملكت الدنيا بأسرها، فالأهل يتفرقون، لكن الزوج مع زوجته يكونان أسرة تـــزيد الحـــياة بهجة وسروراً، وقد أيقنت المرأة أنها تحتاج لولاية وحماية، فما دامت في بيت أبيها فهي تحت حمايته وولايته ورعايته، ولكن هذه الولاية والحماية لا تدوم، ومن ثم لا بد لها من والٍ وحامٍ دائم وهو الزوج.

وبعـــد أن اقتنعت هذه الفتاة الأميرة، ابنة أحد الأقيال، بضرورة الزواج، راحت تسأل تلك النسوة المقربات إليها عن الزوج، فقالت: "وما الزوج؟"[٤].

فـــأخذت كـــل واحدة منهن تذكر لها حسنات الزوج وصفاته ترغيباً لهذه الفتاة المقربة منهـــن، فقالت إحداهن: الزوج عِزٌّ في الشدائد، وفي الخطوب مساعد، إن غضبت عَطفَ، وإن مرضت لطف. قالت: نعم الشيء هذا! فقالت الثانية: الزوج شعاري حين أصْرِدُ، ومتكئي حين أرتَـــدُ، وأنســـي حيـــن أفْرِدُ، فقالت: إن هذا لمن كمال طيب العيش. فقالت الثالثة: الزوج لما

---

(١) **الأقيال:** الملوك والسادة.

(٢) **المخلاف:** المدينة أو القرية في لغة أهل اليمن.

(٣) القالي، **الأمالي**، الجزء الأول، ص ٨٠.

(٤) **المصدر نفسه**، ص ٨٠.

عنانـــي كاف، لما شفني شاف، يكفيني فقد الألاف، ريقه كالشهد، وعِناقه كالخلد، لا يمل قرانه، ولا يخاف حرانه"[١].

جمعـــت تلـــك النسوة ما تحتاجه المرأة من الزوج فالحماية والسند والذخر، ثم العطف والـــرحمة، وكذلـــك السكن والألفة والأنس، وإلى جانب ذلك كله فهو الأهل والجليس الذي لا يمـــل، وهو الأمن والأمان. وكان لهذا الوصف الأثر في نفس ابنة الملك، فاقتنعت بالأمر بعد تفكير واختارت الزوج الملائم.

تكـــاد وصايا الزواج تكون واحدة في مضمونها، ولا سيما في العصر الجاهلي، فضلاً عـــن غيره من العصور اللاحقة، فوصية أمامة بنت الحارث لابنتها في ليلة زفافها مثلاً تصلح لكـــل زمان ومكان[٢]، وهكذا كانت العروس تتلقى الوصايا عن طريق الأم أو النساء المقربات، لأن هـــؤلاء جمـــيعاً يحرصـــن على أن تكون البنت الموصاة زوجة ناجحة، سعيدة في حياتها الجديدة.

وقـــد أدركت هؤلاء النسوة والأم خاصة أن تجربة ابنتها الفتاة المقبلة على الزواج في الحـــياة محـــدودة، وحياتها في بيت والدها تختلف عن الحياة التي ستنتقل إليها، فطبائع الناس ليســـت واحدة، والعادات والتقاليد التي تعودتها في بيت والدها تختلف عن ذلك البيت، ولذا فقد وجـــدت الأم، أو الأب أحـــياناً، أن واجـــبهما تجاه ابنتهما أن يفيضا من تجربتهما على البنت لتعيش حياة هانئة.

ومـــن أشهر وصايا الزواج في العصر الجاهلي وصية أمامة بنت الحارث التي قدمتها إلى ابنتها ليلة رحيلها إلى بيت زوجها، وهي تعد من الوصايا الخالدة، إذ تتضمن مجموعة من الوصايا القيمة التي تفتح للبنت الموصاة طريق السعادة والنجاح.

ولـــم تجـــد هذه الأم الواعية أعز من ابنتها لتقدم لها خلاصة تجاربها الزوجية والبيتية مـــن أجل إيجاد جو أسري يقوم على الحب والوئام والتفاهم والترابط والصفاء والنقاء والطاعة والـــتعاون، وهـــي تصـــدر عن امرأة عركتها الأيام والسنون، وخاضت معترك الحياة فكانت خبرتها عميقة، وهي اليوم تقدم لابنتها حصيلة هذه التجربة لتكون زوجة مثالية.

وأول مـــا ابتدأت به الأم وصيتها بعد التحبب لابنتها أن جعلت الوصية تذكرة للعاقل، ومنبهة للغافل، وهذه مقدمة تريد الأم منها أن تشد انتباه ابنتها، وأن لا تقلل من شأن هذه البنت

---

(١) القالي، الأمالي، الجزء الأول، ص ٢٢٣.

(٢) الوشاء، الفاضل في صفة الأدب الكامل، ص ٢٢٣.

ولا تسيء إلى شعورها إذ تقول: "أي بنية، إن الوصية لو تركت لفضل أدب أو مكرمة في حسب لتركت ذلك منك، ولزويتها عنك، ولكنها تذكرة العاقل"(١).

ثم بينت لابنتها أن البنت ما دامت في بيت والديها لم تحتج إلى الوصية، لأنها محاطة برعايتهما، وأن البنت غنية عن الوصية بغنى أبويها، فهي ابنة عوف بن محلم، من أشراف العرب في الجاهلية، لكنها ستفارق هذا العش إلى وكر آخر لا تعرف ما فيه، وإلى قرين لا تعرف طبائعه وسلوكه وعاداته، فلا بد والحال هذه أن تكون الأم صاحبة التجربة فطنة، فتذكر ابنتها ما يمكن أن تدوم به العشرة الزوجية، وتصلح به الحياة. تقول: "أي بنية، إنه لو استغنت امرأة عن زوج بغناء أبويها وشدة حاجتها إليها، لكنت أغنى الناس عن ذلك"(٢).

وهي في ثنايا هذا الحديث الثمين تقدم معنى سامياً يتفق مع المنظور الإسلامي للحياة الزوجية ومكانة المرأة عند الرجل ومكانته عندها المتمثل في قوله تعالى: ﴿**هن لباس لكم وأنتم لباس لهن**﴾(٣) فتقول: "ولكن للرجال خلقتن كما لكن خلقوا، يا بنية، إنك فارقت الحواء الذي منه خرجت، والعش الذي منه درجت، إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فأصبح ملكه إياك عليك مليكاً"(٤).

هذه مقدمة منطقية هدفت الأم من ورائها تنبيه ابنتها لما بعدها من كلام، إذ بدأت وصيتها بجملة مكثفة تكاد تكون الزبدة تطفو على الوجه، هذه الجملة التي تنم عن بعد نظر هي قوام الحياة الزوجية وديمومتها وهي: "كوني له أمة يكن لك عبداً".

وتشرع الأم الواعية تقدم خلاصة الوصايا لابنتها المفارقة، وهي تجعل هذه الوصايا في عشرة بنود تمثل في مجملها أسس الزواج الناضج الذي تبغيه لابنتها، وأول هذه الأسس القناعة، فالقناعة كنز لا يفنى، وهذا نصيبها في الحياة وقدرها من الحياة، والثانية السمع والطاعة، فهما دليل القناعة وبهما تكون حسن المعاشرة، وإن تحقق السمع والطاعة فقد تحققت الغاية المنشودة، وهي رضا الزوج، ومن ثم راحة وسعادة كل منهما.

والثالثة التعهد لموضع عينه، فلا يرى منها إلا كل جميل، فتكون دائماً بأزهى صورة ومنظر ومخبر، إذ إن للحسن موقعاً في قلب كل رجل، فالصورة الجميلة والمنظر الحسن يريح القلب والنفس، والمنظر الباهت ينفر الإنسان.

---

(١) الوشاء، **الفاضل في صفة الأدب الكامل**، ص ٢٢٣.

(٢) **المصدر نفسه**، ص٢٢٣.

(٣) سورة البقرة، الآية ١٨٧.

(٤) الوشاء،**الفاضل في صفة الأدب الكامل**، ص٢٢٣-٢٢٤.

والرابعة مكملة للثالثة ورديفه لها وهي التفقد لموضع أنفه فلا يشم إلا الرائحة الطيبة، وتشـير على البنت بالكحل زينة وبالماء طيبا، وهي تضع لها بذلك أهم وسائل الجمال والتزين الـذي تحـافظ به المرأة على نفسها وتديم جمالها، إذ تقول أمامة: "واحفظي عني خلالاً عشراً تكن لك ركناً وذخراً، أما الأولى والثانية فالصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة، فـإن فـيهما رضـا الـرب وراحة القلب، وأما الثالثة والرابعة فالتعهد لموضع عينه، والتفقد لموضـع أنفـه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح، واعلمي أن الكحل أحسن الحسن الموجود، والماء أطيب الطيب المفقود"[١].

ثـم تسـتكمل الأم وصاياها فتقدم وصيتها الخامسة، وهي التعهد لوقت طعامه، إذ أن علـى الـزوجة أن تراعي مواعيد إعداد الطعام لزوجها، فإن الجوع يسبب الغضب للإنسان، ولعل هذه الأم الحكيمة سبقت الطرفة التي تقول إن "الطريق إلى قلب الرجل معدته".

أمـا الوصية السادسة، فهي الابتعاد عن تنغيص نومه، إذ عليها أن توفر الجو الهادئ لراحته وقيلولته، فعاقبة تنغيص النوم غير محمودة، كإثارة غضبه وحنقه على زوجه، ومن ثم قد تتبع ذلك أمور أخرى تفسد رباط الألفة الزوجية.

أمـا الوصية السابعة، فهي المحافظة على بيته وصونه والمحافظة على ماله وصونه مـن التـبذير، أما الوصية الثامنة فهي رعاية أولاده واحترام أهله وتقديرهم، ثم تقدم وصيتها التاسـعة وهـي عـدم إفشـاء أسراره وأسرار بيته لأن في ذلك تكديراً له، وتختم أمامة هذه الوصـايا بوصـيتها العاشـرة فتجدها جامعة لما سبق، وهي عدم عصيان أمره، فإن عصيان المـرأة أمـر زوجهـا ينذر بغدره لها، ولعل هذه الوصية الأخيرة جاءت تأكيداً وتذكيراً بأمر الطاعة لقيمتها وأهميتها في نجاح الحياة الزوجية.

وهـي فـي كل ذلك تضع أمامها تفصيلات كل بند ومقتضياته، والأسباب الموجبة له، لأن ابنـتها قـد لا تدرك معنى من المعاني التي ذهبت إليها الأم، لأن تجربة البنت في الحياة محدودة، وخبرتها فيها قليلة، لم تصل إلى غاية الإدراك بعد[٢].

وتحـاول الأم أثناء ذلك أن تعلل كل وصية من الوصايا، وهذا التعليل المنطقي آت من خـبرة عمـيقة لأمامـة في الحياة، ومنه يقع الدليل على رقي النظرة التي كانت عليها المرأة الجاهلية آنذاك.

---

(١) الوشاء، **الفاضل**، ص ٢٢٤. وانظر ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء السادس، ص ٨٣.

(٢) محمـد نـايف الديلمـي، **جمهـرة وصايا العرب**، الجزء الأول، الطبعة الأولى، منشورات دار النضال، بيروت، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص٦٧-٦٨.

ثـم تسـتدرك هـذه الأم الأسـس السـابقة بتنبيه مهم، وهو مراعاة أحاسيس الزوج ومشاعره، كالفرح وقت حزنه والاكتئاب لحظة فرحه، إذ إن فرح المرأة عند حزن زوجها من التقصـير، والاكتئاب لحظة فرحه من التكدير، وكأن هذه الأم الخبيرة تدرك أن الحياة الزوجية مشـاركة عاطفية ووجدانية، فالزوجة والزوج يعيشان عاطفة واحدة، فما يفرحه يفرحها، وما يحزنه يحزنها، تقول: "واتقي مع ذلك الفرح لديه إذا كان ترحاً، والاكتئاب عنده إذا كان فرحاً، فإن الخصلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير"(١).

تنهـي أمامـة وصيتها بتلخيص مكثف يتضمن ثلاثة أمور رئيسة: الأول تبين فيه أن صـدق المحبة تقتضي غاية الإعظام له، وغاية الإعظام لا يقابلها إلا بشدة الإكرام حتى تكون الـثقة هـي رائـدة الحياة الزوجية، والمحبة المتبادلة مظهرها ومخبرها: "واعلمي أنك أشد ما تكونين له إعظاماً أشد ما يكون لك إكراماً "(٢).

والأمـر الثانـي بينت فيه أنه بقدر موافقته وحسن معاملته وطيب الاستجابة له تكون المرافقة أطول وأدوم، إذ قالت: "وأشد ما تكونين له موافقة، أطول ما يكون لك مرافقة"(٣).

والثالـث نبهت فيه الابنة على ضرورة إيثار رضاه على رضاها، وتفضيلها هواه على هواها في جميع الأحوال، لأن الزوج سريع الغضب، سريع التأثر، وهو في الوقت ذاته، سريع الرضا، سريع المغفرة(٤).

ولا نشـك أن الأم قد أعدت الوصية في نفسها قبل مواجهة ابنتها، كما تكشف الوصية عـن عقلية ناضجة متفتحة، وتبدو أمامة ههنا خبيرة بنفسيات الرجال، وما يحبونه ويكرهونه، وهـي ذات نظـرة شاملة تستطيع أن تحيط بالجوانب المتعددة، ثم تكشف عن بعض الأخلاق السائدة في العصر الجاهلي، وتعطينا صورة عن احترام المرأة للرجل، وطاعة المرأة لزوجها، ووفاء الزوج لزوجته ما دامت في طاعته.

سـيطرت علـى الوصية عاطفة الأمومة الصادقة العميقة حتى وصلت الوصية مبلغ الحكمـة، وفي الواقع أن هذه الوصية تعد مثالاً رائعاً لما كانت عليه المرأة الجاهلية من وعي جعلهـا تحـرص على سعادة ابنتها، وهي فوق ذلك بمنزلة دستور للحياة الزوجية يوضح أهم

---

(١) الوشاء، **الفاضل في صفة الأدب الكامل**، ص٢٢٤.

(٢) **المصدر نفسه**، ص٢٢٤. وانظر هاشم مناع، **النثر في العصر الجاهلي**، ص١٤٥.

(٣) الوشاء، **الفاضل في صفة الأدب الكامل**، ص٢٢٤.

(٤) هاشم مناع، **النثر في العصر الجاهلي**، ص ١٤٥.

أسســها ويرسم أبرز قواعدها، كما أن هذه المرأة العربية الحكيمة لم تقدم هذه الوصية لابنتها فحسب، إنما أرادت بها كل فتاة مقبلة على الزواج.

وإذ نعــدي هــذه الوصــية نقــف عند وصية أخرى تعالج الغرض نفسه، بيد أن هذه الوصية لا تطول طول سابقتها، فضلاً عن أنها تنسب إلى أعرابية، لكنها في الوقت نفسه تأخذ اتجاهــاً آخر بما تحتويه من دلالات ومعانٍ مباينة للوصايا في العصر الجاهلي، إذ ربما كانت تعريضــاً غير مباشر بالرجل، إذ قالت لابنتها ليلة زفافها: "اقلعي زج رمحه، فإن أقر، فاقلعي ســنانه، فــإن أقر فاكسري العظام بسيفه، فإن أقر فاقطعي اللحم على ترسه، فإن أقر فضعي الإكاف على ظهره، فإنما هو حمار"(١).

وإن كانــت هــذه الأعرابية توجه خطابها إلى ابنتها، فهي لا ترضى للرجل أن يخلبه جمــال المرأة فيكون ضعيفاً أمامها، مستسلماً لها، ولا ترضى لزوج ابنتها أن يكون على هذه الحال الواهية المستكينة، فإن أهم ما يميز الرجل عن المرأة رجولته، وأن أعز ما يملك الرجل فــي ذلك العصر آلة الحرب وعدتها: السيف والرمح، والترس والفرس وغير ذلك، فإذا هانت علــيه عــدة الحــرب التي فيها قوام حياته، وعليها مدار معاشه، هان عليه أي شيء آخر في حــياته، ولعــل الأعرابية في هذه الوصية تنبه الرجل إلى أن يكون رجلاً دوماً حتى لا يغلبه هوى المرأة فيذل ويضعف(٢).

وربمــا كانت هذه الأم خاضت في حياتها الزوجية تجربة فاشلة مع زوجها، فإن لينها وصــبرها وقناعــتها وموافقتها لــه جعلها هامشية في حياته، لأن صفاته لا تتفق مع صفات الــرجل الحر الكريم، وهذه طبائع البشر تختلف من واحد إلى آخر، فكان نصيبها رجلاً ناكراً للجمــيل والمعروف، فوجدت منه النكران وسوء المعاملة، فامتلأ قلبها حقداً عليه وخوفاً منه، فخافــت هــي الأخرى على ابنتها، فأرادت أن تكون ابنتها مسترجلة لتضمن لها ديمومة الحياة الزوجــية. إن كان مغزى الوصية هذا أو ذاك، فالخلاصة أن المرأة ينبغي أن تكون ذكية فطنة في التعامل مع زوجها لتبني بيتاً وأسرة تستظل بظلها وتسعد بسعادتها.

---

(١) ابــن قتيــبة، **عيون الأخبار**، الجزء الثالث، المؤسسة المصرية العامة، مصر، (د.ت)، ص ٧٧. وانظر الأصــبهاني، **محاضــرات الأدبــاء ومحاورات الشعراء والبلغاء**، الجزء الثالث، الطبعة الأولى، المكتبة الحيدرية، قم، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص ٢١٢.

(٢) محمد نايف الدليمي، **جمهرة وصايا العرب**، الجزء الأول، ص ٧٢.

ويلاحظ الدارس أن أغلب وصايا الهداء في العصر الجاهلي يغلب عليها الدعوة إلى التأليف بين الزوجين ليعيشا حياة هانئة، وادعة لا تدخلها المنغصات، كما تدعو إلى إقامة نظام اجتماعي متماسك العرى، وهذا المنحى لا يختلف كثيراً عما أصبح عليه في ظلال الإسلام.

وقد حفظت البنت الجاهلية وصية أمها ووعتها، ففي رواية عن علي بن الصباح عن هشام بن محمد الكلبي عن أبيه أن النعمان بن امرئ القيس بعث إلى نسوة من العرب، فلما رأى ما كن عليه من فطنة تزوجهن جميعاً ولما أهدين إليه، دخل على ابنة الأنماريّة، فقال: ما أوصتك به أمك؟ قالت: قالت لي: عطري جلدك، وأطيعي زوجك، واجعلي الماء آخر طيبك"[١]. ثم دخل على ابنة السلمية فقال: ما أوصتك به أمك؟ قالت: قالت لي: لا تجلسي بالفناء، ولا تكثري من المراء، واعلمي أن أطيب الطيب الماء، ثم دخل على ابنة النمرية، فقال: ما أوصتك به أمك؟ قالت: قالت لي: لا تطاوعي زوجك فتمليه، ولا تعاصيه فتشكيه، واصدقيه الصفاء، واجعلي آخر طيبك الماء. ثم دخل على ابنة الأسدية، فقال: ما أوصتك به أمك؟ قالت: قالت لي: أدني سترك، وأكرمي زوجك، واجتنبي الإباء، واستنظفي بالماء"[٢].

لقد دأبت الأم توصي ابنتها في كل الأحوال، ولا سيما تلك الأحوال التي بني عليها الفراق، وأشد ما تكون حاجة للوصية ليلة زفافها، حتى أصبحت الوصية عرفاً بين الناس يهتم به الرجل والمرأة على السواء. وتكاد تجمع الموصيات من الأمهات على أمور مشتركة واحدة يجب على الزوجة القيام بها، وهي: الطاعة وعدم المعصية، والاهتمام بتدبير البيت وشؤونه، ثم الزينة والنظافة، واحترام الزوج وتقديره، وتضيف أم البنت النمرية بُعداً نفسياً لحسن معاشرة الزوج، إذ أنها ترى أن الرجل إذا أراد ما أحله الله له من زوجته عند المعاشرة فلا تكن سهلة الانقياد بل تبدي التمنع أحياناً، لأن الانقياد دائماً يدخل إلى قلبه الملل، وكذلك التمنع لا يكون سلوكاً، لأن ذلك يدخل الشك في قلبه.

وهذه أعرابية أخرى توصي ابنتها ليلة زفافها جملة من الوصايا وهي تطلب من ابنتها أن تحفظ هذه الوصية لقيمتها ولعلها بذلك تريد تنبيه ابنتها لأهمية الوصية، إذ ما علمنا أن مجمل وصايا العصر الجاهلي تبدأ بتوجيه الاهتمام إلى الحفظ، بمعنى المحافظة لأن في ذلك سر السعادة ونجاح الحياة الزوجية، وقد جاءت الوصية في قسمين: فأما القسم الأول فقد جعلته تحذيرات وخيمة العواقب، وأما القسم الثاني فقد جعلته واجبات عليها أن تقوم بها، فهي تحذرها من الغيرة المفرطة على الزوج، لأن الغيرة توقع في مشكلات لا نهاية لها، كما قد

---

(١) الآبي، نثر الدر، الجزء الرابع، ص ٨٩.

(٢) المصدر نفسه، الجزء الرابع، ص ٩٠.

بعـض عناصـر هـذه الصورة مستمدة من البيئة، كما يبدو واضحاً من ضرب الرواق، الذي يمثل جزءاً من بيت الشعر الذي كان العرب يتخذونه مسكناً لهم.

وفـي وصيتها أيضاً نلمح الأثر الإسلامي المتمثل في استعمال عبارة المشيئة "إن شاء الله" التـي تمثل لوناً من احترام الإرادة الإلهية والتأدب معها، كما أن الحديث عن الفوز بالجنة ودار الخلد من المعاني الإسلامية الجديدة التي لم تعرفها الخنساء في الجاهلية.

كمـا نحت الوصية في العصر الإسلامي من جانب آخر منحى سياسياً، كما في وصية هـند بنت عتبة ابنها معاوية، وقد استعمله عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الشام، وهذه الوصـية تنم عن خبرة سياسية أدركتها هند، وقد جاءت في عبارات قليلة موجزة مكثفة، وهي علـى إيجازها تبدو عامرة بالمعاني البليغة، وقد استهلت هند وصيتها بتوضيح علو شأن ابنها، فهـو حر أبيّ، قلما أنجبت مثله امرأة، ثم طلبت منه طاعة الخليفة، وتنفيذ أوامره سواء أأحب أم كـره، وذلك حرصاً من الأم على تثبيت دعائم ولاية ابنها، فقالت: "يا بني ، إنه قلما ولدت حرة مثلك، وقد استعملك هذا الرجل، فاعمل بما وافقه، أحببت ذلك أم كرهته"[1].

٣ـ في العصر الأموي:

كـان للمـرأة العربـية في العصر الأموي وصايا في غرض آخر، إذ تأثرت بطابع العصـر وأحداثـه السياسية المتمثلة بالخلاف بين الأمويين وخصومهم من زبيريين وعلويين وخـوارج، فهـذا عبد الله بن الزبير يضيق صدره في اليوم الذي قتل فيه، فلا يجد من يؤنسه سـوى أمـه أسـماء، ذات النطاقين، يشكو إليها خذلان الأهل وقلة النصير، ويستشيرها فيما يصنع: القتال أو التسليم للأمر الواقع.

فانـبرى لسان أسماء بنت الصديق ينصح الابن التائه، وتبعث فيه معاني القوة والأمل والثبات، فقد أخبرته أن العزم إن كان من أجل دعوة للحق فعليه أن يشد عزمه، حتى لا يتمكن غلمـان بني أمية منه فيذلوه، وراحت تربط على قلبه وتوصيه بعدم الفرار إن هرب من معه، لأن ذلـك لـيس مـن فعل الأحرار. ثم مضت تستثير همته بتوجيه سؤال العارف، وهو: كم سـيعمر في هذه الحياة الدنيا؟ وإذا كان الولد كوالدته يعرف الجواب حق المعرفة، فليقتل وهو على الحق عزيزاً أفضل له من العيش ذليلا.

---

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، الجزء الأول، ص ١٢.

جـاء فـي وصـية أسـماء: "إن كنت على حق تدعو إليه فامض عليه، فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك غلمان بني أمية فيتلعبوا بك، وإن قلت: إني كنت على حق فلما وهـن أصـحابي ضـعفت نيتي فليس هذا فعل الأحرار ولا فعل من فيه خير، كم خلودك في الدنـيا؟ القتل أحسن ما تقع به يا ابن الزبير. والله لضربة بالسيف في عز أحب إلي من ضربة بسوط في ذل"(١).

تحـاول أسماء في وصيتها أن تقيم لوناً من المفارقات في نفس ابنها، وواضح أن شأن هـذه المفارقـات تقوية عزيمته وإمداده بالقوة وغرس الأمل في نفسه، فثمة مفارقة بين دعوته الحقـة ودعـوة بنـي أمية الباطلة، وثمة مفارقة بين موقف الفرار الذي يجلب العار، وموقف الـبطولة والثـبات، وما يجلبه من عز ومنعة، ولقد حاولت أسماء ما وسعها أن تزيد في نفس ابـنها الثـبات، فجعلـت العاقبة واحدة أن يحيا الإنسان عزيزاً أو ذليلاً، فالنهاية واحدة وهي الموت، وتركيز هذا المعنى في نفس الابن من شأنه أن يبعث فيه العزم وينفي عنه الحزن.

ومـن الاتجاهات الجديدة التي سلكتها وصايا المرأة في ذلك العصر وصايا السفر، إذ إن الأم وجـدت أن السـفر غربة وانقطاع، وأن الابن أو أياً كان سوف يلتقي بأناس طبائعهم مخـتلفة، ليسوا من الأقرباء أو الأصدقاء فيغفرون الزلة ويرحمون الضعف، لذا حرصت الأم على أن توصي ابنها وصايا تلزمه في غربته، ومن ذلك ما رواه الأصمعي عن أبان بن تغلب عـن أعرابية توصي ابنها وقد أراد السفر: "اجلس امنحك وصيتي وبالله توفيقك، وقليل إجدائها عليك أنفع من كثير عقلك: إياك والنمائم فإنها تزرع الضغائن، ولا تجعل نفسك غرضاً للرماة، فـإن الهدف إذا رمي لم يلبث أن ينثلم، ومثل لنفسك مثالاً، فما استحسنته من غيرك فاعمل به، وما كرهته منه فدعه واجتنبه، ومن كانت مودته بشره كان كالريح في تصرفها"(٢).

تبدو عاطفة الأم – كما في الوصية – متأججة نحو ابنها الذي لا يملك من التجارب إلا أقلهـا، فتعرفه المواطن التي ينبغي أن يقف عندها وهو في أرض غير أرضه وبين أناس غير أناسه، ولا يساورها شك في تأثير البيئة فيه وأنه سينطبع بطبائع أهل الأرض التي سينزل بها، منبهة إلى أن يختار أصلح أعمال أهلها فيعمل بها.

---

(١) الآبي، نثر الدر، الجزء الرابع، ص٩٣.

(٢) الجـاحظ، البـيان والتبيـين، الجزء الرابع، ص٧٢. وانظر القالي، **الأمالي**، ص٧٩. والحصري، زهر الآداب، الجزء الأول، ص٤٣٨. ومحمد نايف الدليمي، **جمهرة وصايا العرب**، الجزء الثالث، ص٢٤٥.

تـتألف وصية هذه الأعرابية من مقدمة عرضت فيها أهمية الوصية وفائدتها وجعلتها تفـوق العقـل نفعاً، وذلك لأنها تصدر عن الحكمة، وفيها أيضاً دعاء لابنها بالتوفيق، فقالت: "اجلس أمنحك وصيتي وبالله توفيقك، وقليل إجدائها عليك أنفع من كثير عقلك"(١).

وقـد جعلـت وصـيتها في أربعة محاور بعد المقدمة: الأول منها تحذيري، والثاني تنبيهـي، والثالـث تعليمـي، والـرابع إلزامي، وعلى الرغم من قصر هذه الوصية، نجد هذه الأعرابية في كل جزء قد أظهرت براعة في القول ودقة في التحليل وسلامة في النتيجة(٢).

فحـذرت أولاً من النميمة، وبينت نتيجة هذه الخصلة الذميمة، فهي تزرع الأحقاد في الـنفوس، وتثير الكره بين الناس، فهي تشفق على ابنها من الأعداء، ثم تنبه على عدم الوقوع فـي الزلل، حتى لا يكون هدفاً ينال، كما تطلب منه أن يجعل قدوته الصالحين من الناس، وأن يكون ما يرضاه لنفسه يرضاه للآخرين، وما يكرهه لنفسه كذلك يكرهه للآخرين، حتى يضمن سـلامة العـيش والطمأنينة في البيئة الجديدة. تقول: "إياك والنمائم، فإنها تزرع الضغائن، ولا تجعـل نفسـك غرضـاً للرماة، فإن الهدف إذا رمي لم يلبث أن ينثلم، ومثل لنفسك مثالاً، فما استحسـنته مـن غيرك فاعمل به، وما كرهته منه فدعه واجتنبه، ومن كانت مودته بشره كان كالريح في تصرفها"(٣).

ثم أرادت أن توضح له أن الناس مختلفون في طبائعهم ومشاربهم، ففيهم الكريم وفيهم اللئيم، فطلبت منه من ثم أن يلجأ إلى الكريم عند الحاجة لأنه لا يرد إنساناً خائباً، أما اللئيم فلا يعـرف للخير طريقاً. إذ تقول: "إذا هززت فهز كريماً، فإن الكريم يهتز لهزتك، وإياك واللئيم فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها"(٤).

وأخـيراً تحثه هذه الأعرابية ولدها على الوفاء للآخرين، إذ إن الوفاء يزيد الأصدقاء عـدداً وألفـة، وتحـذره في الوقت نفسه من الغدر فهو من سوء المعاملة، وتحثه على الجود بالمال والحرص على التمسك بالدين أمام مغريات الحياة، كما عليه أن يكون سخياً وحليماً في

---

(١) الجاحظ، **البيان والتبيين**، الجزء الرابع، ص ٧٢.

(٢) محمد نايف الديلمي، **جمهرة وصايا العرب**، الجزء الثالث، ص٧٢-٧٣.

(٣) الجـاحظ، **البيان والتبيين**، الجزء الرابع، ص٧٢. وانظر أيضاً مع اختلاف في الرواية، القالي، **الأمالي**، ص ٧٩. الحصري، **زهر الآداب**، الجزء الأول، ص ٤٣٨.

(٤) الجاحظ، **البيان والتبيين**، الجزء الرابع، ص ٧٢.

الوقـــت نفســـه: "وعلـــيك بالوفاء ففيه النماء، وكن بمالك جواداً، وبدينك شحيحاً، ومن أعطي السخاء والحلم فقد استجاد الحُلّة: رَيْطتُها وسربالها انهض على اسم الله"(١).

وكمـــا اتّصل الأب بابنته وقدم لها في بعض الأحيان جملة من الوصايا، كان حال الأم مـــن الولـــد الـــذي هـــو أكثر التصاقاً بأبيه واقتداءً به، فقد قدمت له النصح إما بعد فقدان أبيه وتولـــيها رعايـــته وتربيـــته، وإمـــا لأنهـــا ذات حنكة ومنزلة رفيعة تؤهلها إلى إبداء الرأي والنصيحة، حتى وإن كان الأب موجوداً(٢).

وإن كانـــت وصـــية هذه الأعرابية موجزة، فإن وصية أخرى لا تتجاوز خمس جمل غايـــة في التركيز والتكثيف، تحتوي مقدمة من جملتين تبين فيها الموصية لابنها أنه في سفره ســـيكون غريـــباً وبعيداً عن الأصدقاء والأحبة، وقد يلتقي الأعداء، وتطلب منه معاملة الناس بجميل المعروف وتقوى الله في السر والعلانية، لأن التقوى تنجي من المهالك.

تقـــول الأم الموصـــية:" يا بني، إنك تجاور الغرباء، وترحل عن الأصدقاء، ولعلك لا تلقى غير الأعداء، فخالط الناس بجميل البشر، واتق الله في العلانية والسر"(٣).

وتكـــثر فـــي هـــذا العصر وصايا السفر، إذ إن الإنسان بحاجة إلى ما يسترشد به في أرض غير أرضه، وبين أناس لا يعرفهم، فهذه أعرابية توصي ابنها أن يكون عزيز النفس لا يســـأل أحداً، فإن في سؤال الناس الغرباء إذلالاً للنفس، وإن كان لا بد من السؤال لشدة الحاجة فلا يسأل إلا من قد يحتاج إليه يوماً، لأنه – المسؤول – سوف يعطي – السائل. تقول: "يا بني إن ســـؤالك الناس ما في أيديهم من أشد الافتقار إليهم، ومن افتقرت إليه هُنتَ عليه، ولا تزال تحفظ وتكرم، حتى تسأل وترغب، فإذا ألحت عليك الحاجة، ولزمك سوء الحال، فاجعل سؤالك إلى من إليه حاجة السائل والمسؤول فإنه يعطي السائل"(٤).

عرفـــت المـــرأة العربية سواء أكانت أماً أو أختاً أو ابنة عم قيمة الزواج، فالزوج هو الســـتر والغطـــاء والرفيق والمؤنس والحامي، كما أدركت بنظرها الثاقب وخبرتها الطويلة أن الـــزواج مـــن الأقـــارب أفضل من الزواج من الغرباء، فالقريب يداري السوءة، ويغفر الزلة، ويراعـــي القـــربى. ففي رواية عن الأصمعي قال: قالت أعرابية لبنات عم لها: السعيدة منكن

---

(١) الجاحظ، **البيان والتبيين**، الجزء الرابع، ص ٧٢-٧٣.

(٢) محمـــد إبراهيم حُوَّر، **تربية الأبناء في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي**، الطبعة الأولى، مكتبة المكتبة، أبو ظبي، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م، ص ١٢٨.

(٣) الحصري، **زهر الآداب**، الجزء الأول، ص ٤٣٨.

(٤) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الثاني، ص ٨٥.

يـتزوجها ابن عمها، فيمهرها بتيسين وكلبين وعيرين ورحيين، فيَنِبُّ التيسان، وينهق العيران، وينـبح الكلـبان، وتـدور الرحـيان، فيعجّ[١] الوادي، والشقية منكن من يتزوجها الحضري، فيكسوها الحرير، ويطعمها الخَمير، ويحملها ليلة الزفاف على عود، تعني سرجا"[٢].

أقامـت هـذه الأعرابية مقارنة بين المرأة التي تتزوج ابن عمها والمرأة التي تتزوج غريـبا، فالقريـب قد قدم مهراً يسراً مما تملك يده بل جعل من الشيء ضعفه، إذ كان مهرها مقومـات الحـياة الـبدوية التـيس لتتكاثر ماعزها، والكلب ليحرسها ويحرس مالها، والرحى لتطحـن قمحها، والعير لتحمل أثقالها، أما المرأة التي تتزوج من الحضري فيكسوها الحرير، ويطعمهـا الخمـير، ويحملها على ظهور الخيل، فهي شقية إذ لا تدري ما وراء هذا الحرير، وهي تبعد عن أهلها، ولا تدري ما يحل بها.

٤ـ في العصر العباسي في نهاية القرن الثاني:

أمـا في العصر العباسي، فقد كان للمرأة العربية نصيب لا بأس به من أدب الوصايا، فقـد أنتجت وصايا برزت فيها المرأة أديبة فصيحة، توصي فتحسن الوصية، متمثلة الأحداث بفكرها ولسانها، ومن أشهر النساء اللواتي ارتدن فن الوصية في هذا العصر السيدة زبيدة بنت جعفـر أم الأميـن وزوج الرشيد التي عرفت بفضلها وأدبها وعقلها وحزمها، مما أهلها مكانا مرموقاً بين فضليات نساء عصرها.

أوصـت السيدة زبيدة علي بن عيسى بن ماهان لما وجهه الأمين لقتال جيش المأمون، وتعـد وصـيتها الأولى من نوعها في تاريخ وصايا النساء، إذ أنها موجهة من امرأة إلى قائد جـيش، جـاءت فـي عصر أصبح للمرأة فيه دور ومكانة سياسية، حتى أصبح بعضهن يأمر وينهى، وينصب ويعزل[٣].

يجـد المـتأمل فـي وصية السيدة زبيدة هذه معاني رائعة تؤكد بعد نظر هذه المرأة، وسـلامة نيتها وبصيرتها الثاقبة وحسن نظرها في أمور السياسة والحكم، فضلاً عن مشاعرها وأحاسيسها الأنثوية المتدفقة.

---

(١) أي يصبح الوادي في جلبة وضوضاء.

(٢) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الثالث، ص ٤٧٠.

(٣) سـهام الفـريح، "الوصـايا ومـدى تطورها في العصر العباسي الأول"، **حوليات كلية الآداب**، الحولية السادسة، جامعة الكويت ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، الكويت، ص ٨٧.

كمـــا نلمـــح فـــي وصيتها روح الشفقة والرحمة للمأمون ابن زوجها وروح الثقة بأن النصر سيكون حليف ابنها الأمين، فكان هذا التصور قبل أن تظهر بوادر الضعف والوهن في جـيش الأمين، وعلائم القوة والانتصار في صفوف جيش المأمون، فقد تكون وصيتها هذه في الأيام الأولى من اشتعال نار الفتنة بينهما[١].

ولعـــل زبـــيدة أرادت أن تبقـــي على صلة مع المأمون، حتى لا تتجذم العلاقة تماما، وكأنمـــا هـــي ترقب ما قد تأتي به الأيام من مفاجآت غير متوقعة فتكون في أسوأ الأحوال قد وفـــرت لنفســـها نصيباً من الاحترام من قلب الغالب إن كان المأمون، وتركت لنفسها مساحة للتواصل معه إن كان وقع ما لابُدّ منه.

تعلـــم الســـيدة زبيدة أن هذه الفتنة بين أخوين، فلا تريد أن تحرق نارها أياً منهما، أو تكـــون سبباً في دمار دولة بني العباس، إذ قالت: "يا عليّ، إن أمير المؤمنين، وإن كان ولدي، إليه تناهت شفقتي، وعليه تكامل حذري، فإني على عبد الله منعطفة مشفقة، لما يحدث عليه من مكـــروه وأذى، وإنمـــا ابني مَلِكٌ نافس أخاه في سلطانه، وغاره على ما في يده، والكريم يُؤكلَ لحْمهُ ويُميته غيره"[٢].

وهـــي تضـــع لقائد الجيش الآداب الخاصة في معاملة المأمون إن غُلب، فهو من أبناء الملـــوك والخلفاء، فمعاملته ينبغي أن تتناسب مع مكانته، فتطلب عدم مجابهته بالكلام أو أسره كالعبـــيد، أو تقييده بالأغلال، أو منعه من جواريه، أو العنف في معاملته، أو السير أمامه، أو الركوب على الدابة قبله، أو شتمه إن بادر بالشتم.

جـــاء فـــي وصـــية زبيدة إلى علي بن عيسى بن ماهان : "فاعرف لعبد الله حق والده وأخوتـــه، ولا تجبهه بالكلام، فإنك لست نظيره، ولا تقتسره اقتسار العبيد، ولا ترهنه بقيد ولا غـــلّ، ولا تمـــنع منه جارية، ولا خادما، ولا تعنف عليه، ولا تساوره في المسير، ولا تركب قـــبله، ولا تســـتقل على دابتك حتى تأخذ بركابه، وإن شتمك فاحتمل منه، وإن سفه عليك فلا تُرادّه"[٣].

بلغت زبيدة من الحنكة والمعرفة بأمور السياسة ما بلغت، إذ وضعت في وصيتها هذه خطـــة للحـــرب ورســـمت صيغة المعركة بين ابنها الأمين وأخيه المأمون، لأنها تقدر عواقب الأمور وتدرك نفسية ابن الزوج إن ساءت معاملته، أو خدشت كرامته، أو نيل من هيبته.

---

(١) سهام الفريح، الوصايا في الأدب العربي القديم، ص ١٨٠.

(٢) الطبري، تاريخ الطبري، الجزء الأول٠، ص ١٤٩.

(٣) المصدر نفسه، الجزء الأول٠، ص ١٤٩.

وإلـــى جانب وصاياهن السياسية نجد وصايا سفر أسدتها المرأة إلى ابنها أو من يهمها أمره، فقد قال مهدي بن أبان : "قلت لولادة العبدية – وكانت من أعقل النساء– إني أريد الحج فأوصني. قالت: أوجز فأبلغ، أم أطيل فأحكم، فقلت: ما شئت"(١).

امتلكـــت هـــذه المرأة زمام البلاغة فأحكمته حتى نعتها المهدي بن أبان بأنها من أعقل النساء، ولذا فهو يطلب منها الوصية وهو قاصد الحج، وما يميز هذه الوصية أنها كانت بطلب مـــن رجـــل لامـــرأة عرفـــت بالبلاغة والفصاحة ورجحان العقل، فنجدها تخيره بين الإيجاز والإطـــناب، وهـــذا يشـــير إلى قدرتها على التصرف في القول، فكانت وصيتها قسمين الأول يتضـــمن وصـــايا بـــأمور مهمة وتقديم عاقبة كل أمر، والقسم الثاني نجد ابن أبان يسأل وهي توصي.

فكـــان أول ما أوصت به الجود، إذ إن الجواد في قومه سيد عليهم، وكذلك فهي تدرك أنـــه يقصـــد الحج وذلك يتطلب منه الصبر فتوصيه بذلك لأن الصبر ظفر. فقالت: "جُدْ تَسُد، واصبرْ تفز"(٢).

ويطلـــب ابـــن أبـــان الـــزيادة، فتوصيه بالحلم والحرص على الدين والمحافظة على العـــرض، ثـــم توصيه بتقديم العون والمساعدة للآخرين، لأنهم بذلك يخدمونه فقالت: "لا يتعد غضـــبك حلمـــك، ولا هواك علمك، وق دينك بدنياك، وفر عرضك بعرضك، وتفضل تخدم، واحلم تقدم"(٣).

ثـــم يســـألها مـــن يستعين ومن يستشير من الناس، ثم من يصاحب، فتقدم له المشورة والنصح دون أن تبخل عليه.

"قلت: فمن أستعين؟ قالت: الله. قلت: من الناسْ؟ قالت: الجلد النشيط، والناصح الأمين. قلـــت: فمن أستشير؟ قالت: المجرب الكيس، أو الأديب الصغير. قلت: فمن أستصحب؟ قالت: الصديق المسلم، أو المداجي المتكرِّم"(٤).

ثـــم تخـــتم وصيتها فتدعو إلى أن يكون عبداً صالحاً بين يدي الله فتقول: "يا أبتاه، إنك تفدْ إلى ملك الملوك، فانظر كيف يكون مقامك بين يديه"(٥).

---

(١) الآبي، نثر الدر، الجزء الرابع، ص ٨٥. وانظر ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص ٥٨.

(٢) الآبي، نثر الدر، الجزء الرابع، ص ٨٥. وانظر ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص ٥٨-٥٩.

(٣) الآبي، نثر الدر، الجزء الرابع، ص ٨٥.

(٤) **المصدر نفسه**، الجزء الرابع، ص ٨٥.

(٥) **المصدر نفسه**، الجزء الرابع، ص ٨٥.

وتــدرك المرأة أن الدين يزيد الإنسان جمالاً، لجمال ما يحمل من قيم، ولسمو ما يدعو إلــيه من مبادئ، ولرفعة ما ينادي به من أخلاق، ولا تنسى هذه المرأة أن الإنسان بطبعه يميل إلــى الحسن والجمال، لكن إن فاته هذا فليتحلَ بحلية الإيمان وليتجمل بقيم الدين وأخلاقه، فهذه أم الأوقــص، توصــي ابــنها أن يتجمل بالدين فقالت: "يا بني إنك خُلِقتَ خلقة لا تصلح معها لمجامعــة الفتيان في بيوت القيان، إنك لا تكون مع أحد إلا تخطتك إليه العيون، فعليك بالدين فإنه يرفع الخسيسة ويتم النقيصة"(١).

وهــا هــو الابن يشيد بسداد نصيحة أمه التي التزم بنودها، فأصبح قاضياً، إذ قال في خاتمة روايته لهذه الوصية: "فنفعني الله بكلامها فبلغت القضاء"(٢).

تحمل هذه الوصية أبعاداً مختلفة، بعداً دينياً أسلفت ذكره، وبعداً اجتماعياً وهو الإشارة إلــى ظاهرة بيوت القيان في العهد العباسي، فضلاً عن البعد النفسي الذي كشفت عنه الأم فيما يعانــيه ابــنها من نقص في الجمال، وأخيراً البعد الفني وما تحمله من جمال التعبير وإشراق العبارة.

وهكــذا كــان للمرأة العربية في العصور السالفة وصايا قيمة تميزت موضوعياً وفنياً، فلــم يقصر لسانها عن قول وصية أو تقديم نصح، إذ إن الفصاحة والبلاغة والتجربة والمعرفة لا تقتصر على جنس دون آخر، وكان ما مر معنا من وصايا خير شاهدٍ ودليل.

نســتنتج من تناول ما وصل إلينا من وصايا النساء حتى نهاية القرن الثاني الهجري ما يلي:

أولاً: كــان للمرأة العربية في مختلف العصور وصايا أدبية قيمة ذات دلالات معنوية وفنية لا يســتهان بهــا، فقــد عرفت فن الوصية وجاءت وصاياها معبرة عن مشاعر حقيقية عاشتها أماً، أو أحست بها أختاً، أو ابنة عم، أو صديقة أو مُعمرة فاضلة، كما حافظت فــي وصيتها على كنه ما تحمل الوصايا من ترغيب وتحذير، وإرشاد ونصح، وتنبيه علــى ضرورة الأخذ بالوصية، وتحبب للموصى ليحفظ الوصية، وإلى جانب ذلك فقد التزمــت ببناء الوصية من مقدمة وعرض وخاتمة فسارت على سنن الأولين واتبعت نهجهــم، ولم تخرج عن تقاليدهم في إسداء وصاياهم، ولم تغفل في وقت من الأوقات الجوانب الفنية فقد نوعت في أساليبها واهتمت بلغتها، ووشت نصوصها بالبديع.

---

(١) ابن قتيبة، **عيون الأخبار**، الجزء الثالث، ص ٣٢٢.

(٢) **المصدر نفسه**، الجزء الثالث، ص ٣٢٢.

ثانياً: تنوعت وصايا المرأة في موضوعاتها على أن أهمها وأغلبها كان في موضوع الزواج، إذ حرصت الأم في مختلف العصور على إسداء النصائح الزوجية التي تكفل للبنت حياة كريمة مع قرينها وعشيرها، ومن الملاحظ أن السواد الأكبر من وصايا الزواج كان من حظ الأم بوصفها وسيطاً بين البنت والأب أحياناً كثيرة، ومن الملاحظ أيضاً أن مضمون وصايا المرأة في العصور المختلفة يكاد يتشابه إلى حد كبير، إذ يتردد في وصاياها موضوع الطاعة الزوجية، وصيانة مال الزوج وعرضه، ثم العمل على راحته، وإعداد طعامه وشرابه، ونظافة بيته، فضلاً عن ضرورة التطيب له والتزين بأبهى زينة لتحل من قلبه موقعاً لائقاً، ومن عينه منظراً حسناً، يفرج الهم ويُنسي الغم.

ثالثاً: ارتادت المرأة الجانب الحربي في وصاياها، فقد كان عقلها يفكر ويخطط، وكانت أماً حنونة عطوفة حريصة في الوقت نفسه على مصلحة الأمة والجماعة وحماية الدين وإعلاء كلمة الله، وخير مثال على هذا الصنف من النسوة الخنساء في وصيتها لأبنائها في معركة القادسية، ومن بعدها زبيدة زوج الرشيد في وصيتها للأمين في مقابلة أخيه المأمون، إذ أدركت الأولى قيمة الجهاد وجزاء الشهداء فحثتهم على التقدم وولوج المعركة من غير خوف أو نكوص، وأدركت الثانية أيضاً قيمة الأخوة وضرورة الحفاظ عليها وعدم نقضها بأسباب الملك والخلافة.

رابعاً: هناك وصايا لأعرابيات في السفر لم تتحدد نسبتها، لكنها تحمل قيماً موضوعية وفنية جميلة، فقد أدركت المرأة ما قد يصادف أبنها المسافر أو أخاها أو المقرب لها من مخاطر، ومن ثم بثت في وصاياها بعداً حسياً لشعور المسافر بالغربة والخوف من المجهول، فأحاطته بجملة من الوصايا تعينه في سفره، وفي كيفية التصرف مع الأشخاص الذين يصادفهم ويتعامل معهم.

خامساً: ما وصل إلينا من وصايا المرأة أقل بكثير من خطبها، ولا يعني ذلك إغفالها قيمة الوصية، بل يعود ذلك إلى أسباب منها: أن مجتمع الوصية – كما أسلفنا – وجمهورها أضيق من مجتمع وجمهور الخطبة، ومن ثم يهيئ للنص الأدبي فرصة الحفظ والانتشار، وهذا ما لم يتوفر للوصية، إذ تقتصر في أغلب الأوقات على شخص واحد.

الرسائل :

كـــان انتشار الكتابة بين العرب في العصر الجاهلي ضيقاً محدوداً، لا يعدو مجموعات قلـيلة من الأفراد المنتشرين هنا وهناك في أنحاء جزيرة العرب، وربما ارتبطت معرفة هؤلاء القلة بالكتابة بحاجات اقتصادية كأمر التجارة أو بأغراض دينية لقراءة الأديان السماوية[١].

ولم يكن حظ المرأة أقل من حظ الرجل في معرفة الخط والكتابة في العصر الجاهلي، فقـد أورد الـبلاذري إشارة إلى أن الشفاء بنت عبد الله العدوية، من رهط عمر بن الخطاب، كانت "كاتبة في الجاهلية"[٢] ، إلا أننا لم نجد شيئاً من كتاباتها في العصر الجاهلي.

وفي العصر الإسلامي توسع النبي ﷺ في دعوته إلى تعلم الكتابة رجالاً ونساءً، فكان علـيه الصـلاة والسلام يبعث بكتبه مع سفرائه إلى الملوك والقبائل يدعوهم إلى الدين الجديد، وكذلـك سـار الخلفـاء الراشدون من بعده السيرة نفسها فكانوا يبعثون رسائلهم إلى الولاة في الدولة، ويتابعون بذلك شؤون الدولة وأمورها الداخلية والخارجية.

ولم تكن الكتابة حكراً على الرجال دون النساء، بل تعلمت المرأة الكتابة، وكانت تبعث برسائل سياسية أو اجتماعية في العصر الإسلامي وما تلاه من عصور، وستعرض الباحثة في هذا المحور أهم رسائل المرأة العربية وتتناول مضامينها.

١ـ في العصر الجاهلي:

لـم أستطع العثور على رسالة واحدة لامرأة في العصر الجاهلي، وربما يعود ذلك إلى تفشـي الأمية في ذلك العصر، ولتقاليده التي حدت كثيراً من حرية المرأة، فضلاً عن انشغالها بـأمور بيـتها، ومـن ثم تأخر عصر التدوين إذ إنه لو كُتب أدب العرب في العصور القديمة لوصـل إلينا منه شيء كثير، لكن ضاع منه الكثير في بطون الصحراء والفيافي الواسعة، كما أن الرسـائل من الفنون التي تحتاج إلى الكتابة أكثر من غيرها من الفنون، لذلك تأخر ظهور هذا الفن في حياة العرب عامة والمرأة خاصة.

---

(١) محمود المقداد، **تاريخ الترسل النثري في العصر الإسلامي**، الطبعة الأولى، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص ١١.

(٢) أبـو الفـرج الأصـفهاني، **الأغاني**، الجزء السادس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ص٢٥٠.

وواضح أننا نستطيع أن نعثر على خطبة أو وصية أو مناظرة أو مثل للمرأة الجاهلية، بيد أنه من العسر بمكان أن نجد رسالة كتبتها المرأة في هذا الاتجاه، لاعتماد الفنون السابقة على المشافهة واعتماد الرسائل على الكتابة التي لم تكن ميسورة للرجال فضلاً عن النساء.

لقد كانت سمة المشافهة في نقل الأخبار والأدب تطغى على أدب العصر كله ينضاف إلى ذلك أن العرب في العصر الجاهلي كانوا يميلون إلى الشعر أكثر من النثر بفنونه المختلفة لما للشعر من جرس موسيقى وإيقاعات وأوزان تسهل حفظه واسترجاعه عند الحاجة من الذاكرة التي يختزن فيها كل ما ينظم ويؤلف من فنون الأدب.

٢ ـ في العصر الإسلامي:

بدأت الكتابة تشيع شيئاً فشيئاً مع ظهور الدين الجديد، الدين الإسلامي، الذي حث على العلم والتعلم، وأتاح السبل لذلك، وحرر المرأة من بعض مظاهر الحياة الجاهلية التي تمتهن كرامتها، فنظر للمرأة نظرة إجلال وإكبار، إذ جعل من حقها التعلم والميراث والمشاركة في مجالات الحياة المختلفة، وشاركت المرأة في الحياة بصروفها، وأبرز مثال على ذلك مشاركتها في الحياة السياسية، كما حدث في موقعة الجمل وصفين، وقد كان للنساء في تلك المدة مراسلات سياسية تبادلنها فيما بينهن من جانب، كما تبادلنها الرجال من جانب آخر.

ومن أبرز النساء اللواتي كان لهن مشاركة واضحة في المراسلات السيدة عائشة أم المؤمنين فعندما همت بالخروج إلى البصرة بعد مقتل عثمان بن عفان جاءت إلى أم سلمة أم المؤمنين في مكة تغريها بالخروج معها للمطالبة بدم عثمان، فأبت أم سلمة أن تجيبها، وأظهرت موالاة علي بن أبي طالب ونصرته، وكتبت إلى السيدة عائشة رسالة تحاول أن تثنيها عن عزمها، محاولة النصح مرة، والتحذير من عواقب الخروج مرة أخرى[1].

تتميز هذه الرسالة أنها ذات موضوع سياسي، وأنها من امرأة إلى امرأة، تفيض بالنصح والإرشاد والدعوة إلى التروي عند فورة الغضب كي لا يقع ما لا يحمد عقباه.

وقد توفرت في رسالة أم سلمة عناصر الرسالة الشكلية، إذ افتتحتها بالسلام والحمدلة، واستعمل البعدية (عبارة أما بعد)، وقد ذكرت العنوان المتضمن اسم المرسل والمرسل إليه فقالت: "من أم سلمة زوج النبي ﷺ إلى عائشة أم المؤمنين: سلام عليك، فإني أحمد إليك الله

---

(١) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الرابع، ص ٣١٦.

الذي لا إله إلا هو، أما بعد"[١].

وشرعت أم سلمة بعد هذه المقدمة تبين مكانة السيدة عائشة بين المسلمين محذرة إياها من غضب رسول الله ومغبة خروجها، وقد بينت لها أن المرأة لم تخلق لمثل ذلك، وإلا لفرض الإسلام عليها الجهاد، ولكن جهادها جُعل في بيتها ودينها، تقول أم سلمة: "إنك سُدَّةٌ بين رسول الله عليه السلام وبين أمته، حجاب مضروب على حرمته. قد جمع القرآن ذيلك فلا تَتَدَحيه[٢]، وسَكَّرَ خَفَارَتَكِ[٣] فلا تبتذليها، فالله من وراء هذه الأمة، لو علم رسول الله ﷺ أن النساء يحتملن الجهاد عهد إليك، أما علمت أنه قد نهاك عن الفِرَاطة في البلاد[٤]، فإنّ عمود الدين لا يثبت بالنساء إن مال، ولا يُرأب بهنّ إن انصدع، جهاد النساء غَضُّ الأطراف، وضَمُّ الذيول، وقصْرُ الموادة، ما كنت قائلة لرسول الله ﷺ لو عارضك ببعض هذه الفلوات ناصَّةً[٥] قعوداً من منهل إلى منهل؟ وغداً تريدين على رسول الله ﷺ"[٦].

تحاول أم سلمة في رسالتها أن تؤثر على المنطقة العاطفية في عائشة، وذلك بالحديث عن صلتها الحميمة برسول الله، ﷺ، ورسم صورة سلبية لما سيكون عليه أمر الخروج مصوّرة معاتبة متخيلة بين الرسول والسيدة عائشة على ما قامت به.

ثم وصفت أم سلمة خروج عائشة أنه هتك لحرمة رسول الله عليه الصلاة والسلام، وأن رجوعها فيه رأب لصدع الأمة، فقالت: "واقسم لو قيل لي: يا أم سلمة ادخلي الجنة، لاستحييت أن ألقى رسول الله ﷺ هاتكة حجاباً ضربه عليّ، فاجعليه سترك، وقاعة البيت حصنك، فإنك أنصح ما تكونين لهذه الأمة ما قعدت عن نصرتهم، ولو أني حدثتك بحديث سمعته من رسول الله ﷺ لنَهَشْتِني نهش الحية الرقشاءُ والمُطرِقة[٧] والسلام"[٨].

---

(١) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الرابع، ص ٣١٦.

(٢) **لا تندحيه**: لا توسعيه بخروجك إلى البصرة.

(٣) **خفارتك**: حمايتك.

(٤) **الفراطة**: الإعجال والتقدم.

(٥) **ناصة**: من نص الناقة، أي استخرج أقصى ما عندها من السير.

(٦) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الرابع، ص٣١٦-٣١٧. وانظر الآبي، **نثر الدر**، الجزء الرابع، ص ٤٥-٤٦. مع اختلاف في نص الرواية. وانظر أحمد زكي صفوت، **جمهرة رسائل العرب**، الجزء الأول، المكتبة العلمية، بيروت، (د.ت)، ص٣١٢-٣١٤.

(٧) **المطرقة**: الساكتة

(٨) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الرابع، ص ٣١٧.

كمـــا تلجـــأ أم سلمة إلى الإقناع حيناً في رسالتها، كما في استدلالها بما جاء به الشرع مـــن فـــرض الجهاد على الرجال دون النساء. وتمضي أم سلمة في محاولتها ثني عائشة عن الخـــروج بحديـــث حدثهـــا إياه رسول الله ، وتخوف أم سلمة عائشة من ذلك الحديث الذي لو ســـمعته لـــنالها الفـــزع والخوف، وتختم أم سلمة بعد هذه النصائح لعائشة بإلقاء تحية الإسلام عليها.

فكـــان أن ردّت السيدة عائشة على رسالة أم سلمة برسالة عارضتها فيها، وتتماز هذه الرســـالة عن رسالة أم سلمة بقصرها، وإن اتفقت معها في بعض العناصر الشكلية كالاستهلال بذكـــر العـــنوان وحمـــد الله والثناء عليه والبعديّة:" من عائشة أم المؤمنين إلى أم سلمة، سلام عليك، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو، أما بعد"(١).

توضـــح السيدة عائشة أنها تلقت رسالة أم سلمة بما فيها من نصح ووعظ، لكنها ترى أن خروجها بات أمراً ضرورياً، إذ إنها تفصل بين طائفتين من المسلمين اقتتلتا، وأن حرصها علـــى وحـــدة المســـلمين يجعلهـــا مدفوعـــة إلى عدم القعود عن الخروج بغية الإصلاح بين المتخالفيـــن، ثـــم تختـــتم رســـالتها بالسلام، كما فعلت أم سلمة، إذ قالت: "فما أقبلني لوعظك، وأعرفني لحق نصيحتك، وما أنا بمعتمرة بعد تعريج، ولنعم المطلع مطلع فرقت فيه بين فئتين متشـــاجرتين مـــن المســـلمين، فإن أقعد فعن غير حرج، وإن أمضي فإلى ما لا غنى بي عن الازدياد منه، والسلام"(٢).

ولعلـــه غـــير خاف أن رسالة السيدة أم سلمة كانت أقوى إيقاعاً وأشد إقناعاً في النفس مـــن رسالة السيدة عائشة التي مضت مصممة على فكرة الخروج، تلك الفكرة التي حاولت أم سلمة ثنيها عنها بالمودة والرفق، ولكن من غير طائل.

ومـــن الرســـائل السياسية التي تدور في المضمار نفسه، ما كتبته السيدة أم سلمة إلى علـــي بـــن أبي طالب، إذ تتميز هذه الرسالة في أنها موجهة من امرأة إلى رجل، تعلن فيها أم ســـلمة تأيـــيدها وولاءَها لعلي بن أبي طالب، وتعتذر عن عدم الخروج معه طاعة لله، إذ نهى عن خروج النساء، وأقر بلزومهن بيوتهن، لذا فإنها تبعث ابنها مندوباً عنها وتوصيه به خيراً.

وتســـير رســـالة أم ســـلمة على هذه الصورة: "أما بعد، فإن طلحة والزبير وأشياعهم أشياع الضلالة يريدون أن يخرجوا بعائشة إلى البصرة، ومعهم ابن الحزان، عبد الله بن عامر

---

(١) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الرابع، ص ٣١٧. وانظر أحمد زكي صفوت، **جمهرة رسائل العرب**، الجزء الأول، ص ٣١٥. مع اختلاف في الرواية.

(٢) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الرابع، ص ٣١٧.

بـــن كريـــز، ويذكرون أن عثمان قتل مظلوما، وأنهم يطلبون دمه، والله قافيهم بحوله وقوته، ولـــولا مـــا نهانـــا الله عـــنه من الخروج، وأمرنا به من لزوم البيوت، لم أدع الخروج إليك، والنصـــرة لك، ولكني باعثة نحوك ابني، عدل نفسي عمر بن أبي سلمة، فاستوص به يا أمير المؤمنين خيراً"(١).

وواضـــح للعـــيان أن رسالة أم سلمة هذه تلتقي مع رسالتها الآنفة في بعض المحاور، ولا سيما معارضتها فكرة الخروج، واستنادها إلى النص الشرعي الداعي إلى قرار النساء في بيوتهن وعدم خروجهن.

كانـــت السيدة عائشة في تلك الأحداث العصيبة ذات إصرار كبير على الخروج رغم كـــل النصـــائح التي وجهت إليها، والرسائل التي كتبت إليها، لكنها كانت ترى فيما هي عازمة عليه الصواب والسداد، فقد ردت بالمثل على الأشتر الذي نصحها بلزوم بيتها وعدم الخروج، وتـــبدو الســـيدة عائشـــة فـــي ردها متمسكة بفكرة الخروج وملاقاة قتلة عثمان بن أبي عفان والانـــتقام مـــنهم، وهي ترى أن الأشتر لم يقدم النصح لها، وأنه لا يعدم أن يكون مثبطاً حالاً عاديـــاً من رؤوس الفتنة، من دعاة الفرقة الذين خرجوا على الأئمة، وشاركوا في قتل عثمان، لذا فلا تملك السيدة عائشة إلا أن تكشف حقيقة وتقولها على الملأ، وأن تجيبه بالقتال، إذ قالت: "أمـــا بعـــد، فإنك أول العرب شب الفتنة، وقد علمت أنك لن تعجز الله حتى يصيبك منه بنقمة وينتصـــر بها منك للخليفة المظلوم، وقد جاءني كتابك، وفهمت ما فيه، وسيكفنيك الله، وكل من أصبح مماثلاً لك في ضلالك وغيك إن شاء الله"(٢).

ويـــتراءى مـــن هـــذه المراسلات أن المرأة حظيت في العصر الإسلامي بدرجة من الحـــرية والمشـــاركة الفعلـــية في الأحداث السياسية، إذ وجدناها ترفض مهادنة أو صلحاً، بل تطلـــب المـــؤازرة والنصـــرة، وتحث على الانضمام إلى حزبها، كما فعلت السيدة عائشة في رســـائلها إلى أم سلمة والأشتر، وكما هو الشأن في رسالة وجهتها السيدة عائشة أيضاً إلى زيد ابن صوحان تطلب انضمامه إلى حزبها وتثبيط الناس عن علي بن أبي طالب.

تســـلك الســـيدة عائشة في رسالتها هذه مسلكاً دقيقاً، فهي تحاول التأثير على المنطقة الوجدانـــية العاطفـــية فـــي المخاطب، مبينة علو منزلة زيد، فهو ذو شرف، وأبوه من الرجال المعروفيـــن فـــي الجاهلية والإسلام، وهو بالمثل شرفاً وسيادة، وهي بذلك تسلك المسلك القائم

---

(١) ابـــن أبـــي الحديـــد، **شرح نهج البلاغة**، الجزء السادس، ص ٢١٩. وانظر أحمد زكي صفوت، **رسائل العرب**، الجزء الأول، ص٣١٥-٣١٦.

(٢) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، **الجزء السادس**، ص ٢٥٥.

على الثناء العاطر على المخاطب ابتغاء استمالته حتى يكون إلى جانبها، ثم تتحدث عن مقتل عـثمان ظلمـا، وتطلب منه أحد أمرين: إما الانضمام لحزبها، أو العمل على تثبيط الناس عن علـي بـن أبـي طالـب، وأخيراً تطلب منه الانتظار حتى تصله تعليماتها، وهي بذلك ترسم مخططـاً عسـكرياً فتطلق الأوامر وتعطي التعليمات والتوجيهات، فقد جاء في الرسالة: "من عائشـة أم المؤمنيـن إلى ابنها الخالص زيد بن صوحان، سلام عليك. أما بعد، فإن أباك كان رأسـاً في الجاهلية، وسيداً في الإسلام، وإنك من أبيك بمنزلة المصليّ من السابق يقال كاد أو لحـق، وقـد بلغـك الذي كان في الإسلام من مصاب عثمان بن عفان، ونحن قادمون عليك، والعـيان أشفى لك من الخبر، فإذا أتاك كتابي هذا فاقدم فانصرنا على أمرنا هذا، فإن لم تفعل فثبط الناس عن علي بن أبي طالب وكن مكانك حتى يأتيك أمري، والسلام"[1].

يتضـح مما سبق أن المرأة تعاطت الكتابة في هذا العصر، فجاد قلمها برسائل سياسية عبرت فيها عن انتماءاتها السياسية والحزبية، وبعثت إلى جهات تطلب مؤازرتها، وإلى أخرى تـرفض قبول نصيحتها تدعو إلى الانسحاب والتراجع، وقد عرفت المرأة العربية بحق قواعد التراسل والتزمت بها شكلاً ومضموناً.

٣ـ في العصر الأموي:

ظلـت نـار الفتـنة في بداية هذا العصر ثائرة، والنفوس حائرة، والانشقاقات قائمة، والـناس بيـن مؤيـد ومعارض، ولم يرض حزب علي بهذه النهاية التي كانت نتيجتها تولي معاويـة الخلافـة والإطاحـة بشيعته، فوفدت على معاوية الوفود شاكية من ولاته وتعسفهم، مؤنبيـن ومقرعين له على سفكه دماء المسلمين واستباحته حرمتهم، وفي غمرة هذه الأحداث والاعتراضات شاركت المرأة أيضاً في صنع الحدث السياسي، أمثال نائلة بنت الفرافصة زوج عثمان بن عفان –رضي الله عنه – فقد روي عن الشعبي أن نائلة بنت الفرافصة امرأة عثمان ابـن عفـان كتبت إلى معاوية كتاباً مع النعمان بن بشير، وبعثت إليه بقميص عثمان مخضوباً بالدماء.

وقـد افتتحت نائلة رسالتها ببيان نعمة الله على معاوية وحزبه إذ نصرهم، وتُذكر فيها الخلـيفة بحق عثمان بنصره والأخذ بثأره، وتعمد أثناء ذلك إلى حشد طائفة من مناقب عثمان، فهو أمير المؤمنين، وهو من أوائل المسلمين، ومن المجاهدين، وهو بعد من المبشرين بالجنة،

---

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، الجزء الرابع، ص ٣١٧.

وتجـــري رســـالة نائلة على هذه الصُورة: "من نائلة بنت الفرافصة إلى معاوية بن أبي سفيان، أما بعد: فإني أدعوكم إلى الله الذي أنعم عليكم، وعلمكم الإسلام، وهداكم من الضلالة، وأنقذكم من الكفر، ونصركم على العدو، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة، وأنشدكم الله واذكركم حقه وحـــق خليفـــته أن تنصروه بعزم الله عليكم، فإنه قال: ﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلـــوا فأصـــلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلـــوا التي تبغي حـــتى تفيء إلى أمـــر الله**﴾[1]، فإن أمير المؤمنين بغي عليه، ولو لم يكن لعثمان عليكم إلا حق الولاية لحق على كل مســـلم يـــرجو إمامته أن ينصره، فكيف وقد علمتم قدمه في الإسلام، وحسن بَرْئِه، وأنه أجاب الله، وصـــدق كـــتابه، واتـــبع رســـوله، والله أعلـــم به إذ انتخبه، فأعطاه شرف الدنيا وشرف الآخرة"[2].

وتـــأخذ نائلـــة تقـــص على معاوية الجريمة البشعة التي ارتكبت بحق الخليفة المغدور ومخطـــط سير العملية التي دبرت ضده، إذ تصور كيف حوصر في بيته مع الحراسة المشددة التـــي فرضـــت علـــيه، ومـــنعه مـــن كل شيء حتى الماء مدة خمسين يوماً، ثم تذكر أسماء المشتركين في هذه الجريمة والقبائل المشاركة فيها أيضاً، فقالت: "إن أهل المدينة حصروه في داره وحرســـوه لـــيلهم ونهارهم، قياماً على أبوابه بالسلاح، يمنعونه من كل شيء قدروا عليه، حـــتى مـــنعوه الماء، فمكث هو ومن معه خمسين ليلة، وأهل مصر قد أسندوا أمرهم إلى علي ومحمـــد بن أبي بكر وعمار بن ياسر وطلحة والزبير، فأمروهم بقتله، وكان معهم من القبائل خـــزاعة وســـعد بـــن بكر وهذيل وطوائف من جهينة ومزينة وأنباط يثرب، فهؤلاء كانوا أشد الناس عليه"[3].

يـــنال تصـــوير الجريمة البشعة جزءاً مهماً من الرسالة، إذ راحت نائلة تصف وصفاً دقـــيقاً كيفـــية قـــتل عـــثمان وأصحابه ظلماً وعدواناً بغير حق[4]. وتختم نائلة بطلب النصرة وتحـــرض على الأخذ بثأر عثمان، وتستدعي الصالحين إلى القيام بواجب النصرة إذ أنها تعد الخـــذلان عن مناصرته مشاركة في الجريمة، والإثم، ثم لا تملك إلا أن تدعو لعثمان بالرحمة، واللعـــنة على قتلته، تقول: "وقد أرسلت إليكم بثوبه عليه دمه، فإنه –والله– إن كان أثم من قتله فمـــا ســـلم مـــن خـــذله، فانظروا أين أنتم من الله، وأنا أشتكي كل ما مسنا إلى الله عز وجل،

---

(١) سورة الحجرات، الآية ٩.

(٢) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الرابع، ص ٣٠٠-٣٠١.

(٣) **المصدر نفسه**، الجزء الرابع، ص ٣٠١.

(٤) **المصدر نفسه**، الجزء الرابع، ص ٣٠١.

وأستصـــرخ بصالحي عباده، فرحم الله عثمان، ولعن قتلته وصرعهم في الدنيا مصارع الخزي والمذلة، وشفى منهم الصدور"[1].

٤ـ في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثاني:

أتـــاح العصـــر العباسي بظروفه الجديدة للمرأة أن ترتاد الأدب بفنونه المختلفة، فكما نظمـــت الشـــعر أجـــادت النـــثر، فخطبـــت وأوصـــت وكتبـــت الرسائل، بل إنها نوعت في موضـــوعاتها، فإذا كانت المرأة في عصر صدر الإسلام والعهد الأموي طرقت باب الرسائل السياســـية، فـــإن الجديد في رسائل المرأة في العصر العباسي أنها توسعت أكثر فأكثر فشملت الرســـائل الإخوانية التي عبرت فيها المرأة عن عواطفها ومشاعرها وأحاسيسها الخاصة. ومن الرســـائل التي تمثل هذا الجانب رسالة السيدة زبيدة إلى المأمون في الاستعطاف، إذ مضت في رســـالتها تطلب عفوه ورضاه، وتدعو له بالخير، وتستميل قلبه بعباراتها اللطيفة، وقد بدت في غايـــة الضـــعف والاستكانة والحاجة إلى نصرته، وهي تتمثل في ذلك بالمقولة "ارحموا عزيز قوم ذلّ".

ونلحـــظ أن رســـالتها جاءت في قسمين، تمتدح في الأول المأمون وتثني على شريف خصـــاله، وتبين في القسم الآخر مدى حاجتها إلى العفو والمساعدة على نوائب الدهر، فها هي تقـــول :"كـــل ذنب يا أمير المؤمنين – وإن عظم – صغير في جنب عفوك، وكل زلل – وإن جـــلّ– حقير عند صفحك، وذلك الذي عودك الله، فأطال مدتك، وتمم نعمتك، وأدام بك الخير، ورفـــع بـــك الشر، هذه رقعة الواله الذي ترجوك في الحياة لنوائب الدهر، وفي الممات لجميل الذكـــر، فـــإن رأيت أن ترحم ضعفي واستكانتي وقلة حيلتي، وأن تصل رحمي، وتحتسب فيما جعلك الله طالباً، وفيه راغباً، وتذكر من لو كان حياً لكان شفيعي إليك"[2].

يـــبدو أن السيدة زبيدة كتبت هذه الرسالة إلى المأمون بعد مقتل ولدها الأمين في حرب أهلـــية طاحنة، فراحت تقدم للمأمون صورة مؤلمة لما انتهت إليه حالتها بعد أن أصيبت بابنها، معـــتمدة في ذلك ما يربطها بالمأمون من أواصر الرحم، إذ هي زوج أبيه الرشيد، الذي تتخذه شـــفيعاً لها، وهي تستمر في هذا المنحى لتذكر المأمون بما يلزم الابن من رعاية زوجة أبيه، التي تقوم مقام أمه.

---

(١) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الرابع، ص٣٠١.

(٢) الطـــبري، **تاريخ الطبري**، الجزء الأول٠، ص ٢١٣. وانظر أحمد زكي صفوت، **جمهرة رسائل العرب**، الجزء الثالث، ص ٣١٤.

ومن رسائل الاستعطاف أيضاً رسالة شكلة، أم إبراهيم المهدي، إلى المأمون وقد ردت شـكلة بهذه الرسالة على رسالة بعثها إليها المأمون يتوعدها فيها، بسبب عصيان ابنها إبراهيم وخـروجه على السلطة، وتمتاز رسالتها بالإيجاز الشديد والتركيز والتكثيف، فهي تحمل طلب العفـو، وتضع نفسها في مقام أمه لكبر سنها، فلا تؤخذ بذنب ابنها إبراهيم، لأن الإنسان وحده المسـؤول عـن جرائره، ولا يحمل وزر غيره، وتنهي رسالتها بالسلام الذي توده من الخليفة وتنشده لنفسها، إذ قالت: "أنا يا أمير المؤمنين أم من أمهاتك، فإن كان ابني عصى الله فيك فلا تعصه فيّ، والسلام"(١).

وشـاعت في العصر العباسي إلى جانب رسائل الاستعطاف رسائل الهدايا التي كانت تتـبادل مـع الخلفاء والوزراء والقواد والقضاة والعمال والولاة والمغنيين وغيرهم، ومن ذلك رسالة بعثت بها جارية إلى المأمون، وليس الغريب في الرسالة إنما في الموضوع الذي دارت حوله الرسالة، وهو وصف حبة تفاح وحديث عن عظم فوائد التفاح، وإقران هذه الرسالة بحبة تفاح.

افتتحت الجارية الرسالة بتصوير تنافس الرعية في تقديم الهدايا له، ومن ذلك نستشعر حـرص الرعـية على تقربهم إلى الخليفة ومحاولة نيل الحظوة عنده، وكانت هذه الجارية من بينهم، ثم تبين الجارية مزايا الهدية التي قدمتها للخليفة، فهي خفيفة الوزن، قليلة الكلفة، عظيمة الفائدة، جميلة المنظر: "إني يا أمير المؤمنين لما رأيت تنافس الرعية في الهدايا إليك، وتواتر ألطـافهم عليك، فكرت في هدية تخف مؤونتها، وتهون كلفتها، ويعظم حظرها، ويحل موقعها، فلم أجد ما يجتمع فيه هذا النعت، ويكمل فيه هذا الوصف إلا التفاح"(٢).

ومـن ثم تشير الجارية إلى اقتصارها في الهدية على حبة تفاح واحدة، وتؤكد أن هذا العـدد له رمـز إذ له دلالات كثـيرة، وكأنما قصدت أن يستأثر الخليفة وحده بالهدية، فيتمتع بحسـن الـتفاحة المهداة وحده، ولا يصرفها إلى غيره، حتى إذا كان موعد تناولها اختص بها وحـده دون جلسـائه، فالجارية تحاول الاستئثار بالخليفة، لأن استئثار الخليفة بهديتها هو في

---

(١) الآبي، نثر الدر، الجزء الرابع، ص ٦٣.

(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد، الجزء السادس، ص ٢٨٧.

واقـــع الأمـــر اســـتئثار بمرســـلة الهدية[1]. فقالت : "فأهديت منها واحدة في العدد، كثيرة في التصرف"[2].

كمـــا حرصـــت الجارية أن تقرب الهدية أكثر من نفس الخليفة، فاحتجت لذلك بأقوال الخلفـــاء والفلاسفة والأطباء والشعراء في فائدة التفاح، كما احتجت بقول الرشيد، والد الخليفة، إذ قالـــت: "وأحببـــت يـــا أمير المؤمنين أن أعرب لك عن فضلها، وأكشف لك عن محاسنها، وأشـــرح لك لطيف معانيها، ومقالة الأطباء فيها، وتفنن الشعراء في وصفها، حتى ترمقها بعين الجلالـــة، وتلحظها بمقلة الصيانة، فقد قال أبوك الرشيد رضي الله عنه: أحسن الفاكهة التفاح، اجتمع فيه الصفرة الدرية، والحمرة الخمرية، والشقرة الذهبية، وبياض الفضة، ولون البرّ، يلذ بها من الحواس العين ببهجتها، والأنف بريحها، والفم بطعمها"[3].

وتضـــيف فـــتقول: "وقـــال اســـطاطاليس الفيلسوف عند حضوره الوفاة، واجتمع إليه تلامـــيذه: التمسوا لي تفاحة أعتصم بريحها، وأقضي وطري من النظر إليها. وقال إبراهيم بن هانـــئ: مـــا علـــل المـــريض المبتلى، ولا سكنت حرارة الثكلى، ولا ردت شهوة الحبلى، ولا جمعـــت فكـــرة الحيران، ولا سلت حسيفة الغضبان، ولا تحيت الفتيان في بيوت القيان، بمثل التفاح"[4].

وربما كانت الإشارة الثانية لتكون الجارية نفسها المقصودة بحبة التفاح، عندما تحدثت عـــن أن حمل الخليفة حبة التفاح لا تؤذي وحتى وإن ضرب بها فهي لا تؤلم، وفي الواقع أن الإنســـان إذا رمـــي بـــتفاحة قـــد تؤلمه، لكنها ترى في نفسها راحة الخليفة وإسعاده، فقالت: "والتفاحة يا أمير المؤمنين إن حملتها لم تؤذك، وإن رُميت بها لم تؤلمك، وقد اجتمع فيها ألوان قوس قزح من الخضرة والحمرة والصفرة وقال فيها الشاعر:

حمرةُ التفاح مع خضرتِهِ ... أقربُ الأشياء من قوس قزحْ

فعلى التفاح فاشربْ قهوةً ... واسقنيها بنشـــاطٍ وفـــــرحْ

ثم غَنِّ الآن كي تطربَني ... طرفُكَ الفتانُ قلبي قدْ جَرَحْ[5]

---

(١) محمـــد محمود الدروبي، **الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري**، الطبعة الأولى، دار الفكر، عمان، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص ٢٥٩.

(٢) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء السادس، ص ٢٨٧-٢٨٨.

(٣) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء السادس، ص ٢٨٨.

(٤) **المصدر نفسه**، الجزء السادس، ص ٢٨٨.

(٥) **المصدر نفسه**، الجزء السادس، ص ٢٨٨.

وأخـيراً تصف هذه الجارية للخليفة كيفية تصرفه بالتفاحة عند وصولها إليه إذ توصيه أن يحسن التصرف بها، فتطلب منه أن يتناولها بيمينه، وينظر إليها بحسن الرعاية، ولا يبعدها عـن عيـنه، ولا يؤذها ولا يصرفها لغيره، بل ليخص نفسه بها هنيئاً مريئاً، وربما كانت هذه الإشارة الثالثة إلى أن المقصود بالتفاحة الجارية نفسها، ولكن كان ذلك منها إيحاءً لا تصريحاً.

يـبدو للدارس مما سبق أن المرأة في العصر العباسي تعاطت كتابة الرسائل وحافظت علـى شكلها، وجددت في موضوعاتها، فطرقت أبواباً لم تطرقها في العصور المارة، كرسائل الاسـتعطاف والهدايـا وغـيرها من الإخوانيات والرسائل الإخوانية، وقد شاركت النساء من الجواري والحرائر في هذا اللون الأدبي فكانت لها رسائلها اللطيفة.

المناظرات والمحاورات:

يستعمل مصطلح المناظرة[١] للدلالة على نص يعرض حواراً بين شخصين، وأحياناً أكثر، كل من الاثنين يخالف الآخر في الموضوع المطروح للمناقشة، ويتبنى فرضية تخالف فرضية الخصم، ويحاول دعمها بالحجج والبراهين ودحض فرضية الآخر وأدلته. يدور هذا الحوار بحضور أشخاص آخرين يختلف عددهم كما تختلف صفاتهم، منهم أمراء أو خلفاء أو وزراء أو موظفون كبار في الدولة أو علماء مثقفون، أو أيضاً من العامة. وبحسب اختلاف الجمهور يختلف المكان الذي تدور فيه المناظرة، فمن دار الخلافة وقصور الأمراء ومجالس الوزراء إلى مجالس العلماء في المساجد أو دكاكين الوراقين في الأسواق، كما تختلف الموضوعات المطروحة وتتنوع لكنها يغلب عليها علم الكلام، وتشمل الموضوعات الاجتماعية والأدبية والسياسية والثقافية[٢].

ومن أبرز سمات المناظرة أدبياً بناؤها الحواري، فالنص منتج من قبل طرفين هما المتناظران، بخلاف الأنواع الأدبية الأخرى حيث لا يعبر عن نفسه إلا شخص واحد[٣].

والسؤال الذي تُعنى به هذه الدراسة: هل عرفت المرأة العربية المناظرة والمحاورة وارتادت آفاقهما؟ وما الموضوعات التي طرحتها في مناظراتها ومحاوراتها؟

١- في العصر الجاهلي:

تشير المصادر العربية، ولاسيما أمثال "بلاغات النساء" لابن طيفور و"نثر الدر" للآبي إلى أن المرأة عرفت فن المناظرة في العصر الجاهلي، بل وكان لها دورٌ في ذلك، لكن لم يصل إلينا من مناظراتها إلا نزر يسير، ولعل ذلك يعود إلى تأخر عصر الكتابة والتدوين من جهة، وإلى تجاهل دور المرأة في المجال السياسي والثقافي من قبل الرجل، ومحاولة تهميش دورها وجعله مقتصراً على شؤون البيت والأسرة من جهة أخرى، فضلاً عن ضياع كثير من نصوص الأدب الجاهلي بسبب شيوع الأمية، ينضاف إلى ذلك قيام المناظرة على المشافهة مما جعل تدوينها بعيداً.

---

(١) ابن منظور، **لسان العرب**، المجلد الخامس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٠م، ص ٢١٩. (مادة نظر).

(٢) محمد حسين الصديق، **المناظرة في الأدب العربي الإسلامي**، الطبعة الأولى، مكتبة لبنان، بيروت ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص ٦٣.

(٣) **المصدر نفسه**، ص ٢٤٥.

ومـــن أبـــرز المناظرات الجاهلية مناظرة جمانة بنت قيس بن الربيع بن زهير العبسي لجدها في أحقية درع اختلفا عليها.

تمـــيزت هذه المناظرة أنها جاءت على لسان امرأة، ثم إن الخصمين اللذين أرادت أن توفق بينهما تربطها بهم صلة الأبوة، وتربطهم ببعض الصلة نفسها.

تعهدت جمانة لأبيها بمناظرة جدها ومن ثم إنصافه، فبينت لجدها سبب مناظرتها إياه، إذ أنهـــا تـــرى أنه من حق الأبوة عليها أن تناصر قيساً والدها، ومن حق البنوة أن يرد جدها لقـــيس درعـــه، فقالت لأبيها: "دعني أناظر جدي، فإن صلح الأمر بينكما، وإلا كنت من وراء رأيـــك، فـــأذن لها: فأتت الربيع فقالت: إن كان قيس أبي فإنك يا ربيع جدي، وما يجب له من حـــق الأبـــوة علـــيّ إلا كالذي يجب عليك من حق البنوة لي. والرأي الصحيح تبعثه العناية، وتجلي عن محضه النصيحة"[١].

بعد هذه المقدمة التي سوغت فيها جمانة لنفسها نصرة أبيها، صرحت أن جدها الربيع ظلـــم والدهـــا قيساً، فتنذره لذلك سوء العاقبة، مستشهدة بالحكم والأمثال، فالمعارض منتصر، والبادي أظلم، كما أن قيساً شجاع لا يُهدّد ولا يُخوّف.

فبادرت جدها بالقول: "إنك قد ظلمت قيساً بأخذ درعه، وأجد مكافأته إياك سوء غرمه، والمعـــارض منتصـــر، والبادي أظلم، وليس قيس ممّن يخوّف بالوعيد ولا يردعه التهديد، فلا تركنن إلى منابذته، فالحزم في متاركته"[٢].

ثم تبين أن الحروب مهلكة وخسائرها فادحة، وتدعو خوفاً من نتائج الحرب إلى إقامة السلم، فتعدد نعمه على الإنسان بما يحققه من راحة البال، ويحفظ الأنفس والرجال، وهذا رأيها ونصـــحها قد قدمته، واللبيب يدرك ويستفيد من النصح والإرشاد، ثم تنهي مناظرتها ببيتين من الشـــعر تلخـــص فـــيهما الموقف، تقول جمانة: "والحرب مُتْلِفة للعباد، ذهّابَة بالطارق والتِلادِ، والســـلم أرخـــى للبال، وأبقى لأنفس الرجال، وبحقٍ أقول، لقد صدعت بحكم، وما يدفع قولي غير ذي فهم، ثم أنشأت تقول:

أبي لا يرى أن يتركَ الدهر درعَهُ ... وجدي يرى أن يأخذ الدرعَ من أبي

فرَأيُ أبي رأيُ البخيـــلِ بمالـــــه ... وشيمةُ جدّي شيمةُ الخائفِ الأبـــيّ[٣]

---

(١) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص ١٥٣. وانظر الآبي، نثر الدر، الجزء الرابع، ص ٩١.

(٢) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص ١٥٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٥٣.

وربمـــا كان النص يومئ بمعانٍ أبعد من هذا الخلاف الظاهر بين أب وابنه على درع، فـــالدرع آلة حرب ووسيلة للدفاع عن النفس، وربما كانت تريد أن الإنسان عليه أن يدافع عن ملكـــه وعن حقه من غير توانٍ، ولو كان الخصم أقرب الناس وأعزهم، كما أن عليه أن يسعى لحفظ ملكه وماله ونفسه.

نلاحظ أن هذا النص، على بساطته ، يعد من النصوص المبكرة التي يمكن أن تكشف عـــن بدايات المناظرة الدفاعية في أدب المرأة النثري، كما أن هذه المناظرة تقوم على طرف واحـــد، إذ نجد مناظرة غير متكافئة، فجمانة تتولى مناظرة جدها من غير أن نسمع إلى ردود الطرف الآخر ووجهة نظره.

ويلحـــظ الباحـــث أن فكرة المناظرة عند جمانة تقوم على الجانب العاطفي، فهي تدافع عـــن أبـــيها لما يربطها به من علاقة، غير أن ذلك لا يلغي أن هذه المناظرة غير المكتملة قد اشـــتملت على بعض جوانب التفكير المنطقي، ولا سيما عند الحديث عن الحرب، وما قد ينجم عنها من عواقب وخيمة يدركها اللبيب بمنطقه.

وكـــان للمـــرأة العربـــية فـــي العصر الجاهلي بعض المشاركات في الأسواق الأدبية كمـــناظرة هـــند وجمعـــة ابنتـــي الخس التي عقدها القلمّس الكناني، وتذكر المصادر العربية أخـــبارهما إذ أنهما وافتا سوق عكاظ، فاجتمعتا بين يدي القلمّس وأراد أن يعرف أيهما أفصح وأبلـــغ وأذكـــى فقـــال لهن: "إني سائلكما لأعلم أيكما أبسط لساناً، وأظهر بياناً، وأحسن للصفة إتقاناً، قالتا: سلنا عما بدا لك، فستجد عندنا عقولاً زكية، وألسنة قوية، وصفة جلية"(١).

ويـــبدو أن كلتـــيهما كانتا على قدر وافر من الأدب والعلم، إذ كانتا تجدان في نفسيهما القـــدرة على الإجابة عن أي سؤال كان سيلقيه القلمّس عليهما باقتدار عال وبراعة نادرة وبيان لافت، فكان أول ما سألهما عنه الإبل.

وقـــد كان القلمّس على درجة عالية من الفصاحة والحكمة، إذ جعل سؤاله لهما يتناول أمـــوراً عـــدة مع توحد الصيغة وهي: أيهما أحبّ؟ وأيهما أبغض؟. وهو بذلك يريد أن يعرف أيهمـــا أفصـــح وأقـــدر على الجواب من أختها، وبهذا سوف تصف كل واحدة الأمر نفسه حباً وكرها، سلباً وإيجاباً، كما أن من البراعة الأسلوبية أن تصف الشيء وضده، ومحاسن الأشياء ومساوئها.

---

(١) ابـــن طيفور، **بلاغات النساء**، ص ٧٠. وانظر أحمد زكي صفوت، **جمهرة خطب العرب**، الجزء الأول، ص ٦٨.

تثني هند على تلك الصفات من الإبل، لكنها تفضل غيرها فهي تفضل ما كان منها تام الخلقة حتى وإن كان ليس بالضخم، وتحبه أيضاً قليل الرّغاء له قدرة على التحمل والنهوض بالأعباء الثقيلة التي يحتاجها العربي.

وهكذا يستمر القلمّس في السؤال عن أحب الأشياء، من الذكور ومن الإناث، ثم أبغضها، فيسأل بعدها عن النوق، ثم الخيل ذكورها وإناثها، ولا ريب أن تكون الخيل مما يسأل عنه، إذ تمثل للعربي رمزاً مهماً من رموز حياته، فهي من أدوات حربه، وهي رفيقه في الفيافي الواسعة، وهي من وسائط حطه وترحاله، وكره وفره، وصولته على أعدائه، وهي فوق ذلك من لوازم السيادة في المجتمع القبلي.

وتسوق جمعة كلاماً جامعاً في صفة ذكر الخيل الذي تراه الأجدر بالتقديم من غيره فتقول: "أحب المنسوب جدّه، الأسيل[١] خدّه، السريع شدّه، الطويل مدّه[٢]، الشديد هدّه[٣]، الجميل قدّه"[٤].

وتقدم جمعة ههنا طائفة من صفات الجواد العربي الذي يسعى كل فارس إلى تحققها في فرسه، وأول هذه الصفات أن يكون أصيلاً، ومن سلالة معرقة، سريعاً، واسع الخطوة، قوياً وجميلاً.

وهند إذ تثني على ذلك الجواد المميز لكنها ترى أن غيرها أحب إليها، وهي تجعل فوق تلك الصفات الممدوحة صفات أعلى منها فتقول: "أحب الوثيق الخلق، الكريم العرق، الكثير السبق، الشديد الذلق[٥]، يمر عن البرق. قال: كلتاكما محسنة"[٦].

إن الفرس الذي تحبه هند فرس مميز، لا كغيره من الأفراس، فهو ينماز بمميزات تؤهله للسبق فهو تام الخلقة، أصيل العرق، سبوق لا يدركه فرس آخر، بل إنه ليكاد يسبق النظر أحياناً.

ثم يتابع القلمّس سؤاله عن الخيل بعد أن يثني على الإجابة، ويشيد بحسن الجواب وبراعته، فهو يسأل عن إناث الخيل، فيقول: "فأي إناث الخيل أحب إليك يا جمعة؟ قالت: أحب

---

(١) الأسيل: الأملس الناعم.

(٢) مدّه: الجذب والمطل.

(٣) هدّه: الصوت الغليظ.

(٤) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص ٧١.

(٥) الذلق: من كل شيء حدّه.

(٦) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص ٧١.

كـــل حيـــية الفؤاد، سبوح جواد، سلسة القياد، شديدة الاعتماد، في الدفع والاشتداد، ذات هباب وثماد[١]. قال القلمّس: كيف تسمعين هذا يا هند؟ قالت: هذه فرس صاحبها خليق ألا يفوته أمر، ولا يهوله ذعر، إذا شاء كر، وإذا شاء فر، وغيرها أحب إلي منها. قال: فقولي. فقالت: أحب الشديد أسرها، البعيد صبرها، القليل فترها، الجميل قدرها، السريع مرها، المخوف كرها. قال القلمّس: كلتاكما محسنة"[٢].

ويـــبدو أن جمعـــة وهـــند تفرقان في الخيل بين ذكورها وإناثها، فصفات أنثى الخيل المحبـــبة تختلف عن الذكر، فكلتاهما قدمت الصفات التي ترى أنها الأجدر بالأفضلية، ويمكن إجمال تلك الصفات بصغر العمر، وحسن القياد، والسرعة في الفر والكر، والجمال في الشكل وتحمل التعب والعناء.

ثـــم ينـــتقل القلمّس للسؤال عن النساء أيهما يحبان ويبغضان، وهذا السؤال يحمل في كنهه سؤالاً عن الزوجة الصالحة التي يتمناها الرجل، وعن الزوجة التي يكره الرجل أن تكون ربة بيته، ولا بد أن القلمّس أصاب في توجيه هذا السؤال إلى نسوة، لأنهن أقرب إلى مثل هذه الأمـــور وأدرى بأحوالهـــا، فـــتذكر جمعة أولاً الصفات التي تتشدها في المرأة فتقول: "أحب الغريـــرة[٣] العـــذراء، الرعبوبة[٤] العيطاء[٥]، الممكورة[٦] اللقاء، ذات الجمال والبهاء، والستر والحياء، البضة[٧] الرخصة[٨]، كأنها فضة بيضاء"[٩].

وتعلق هند على ذلك فتقول: "وصفت جارية هي حاجة الفتى، ونهية الرضا"[١٠].

هـــذه هـــي الصفات المحمودة التي تلح جمعة على تطلبها في المرأة، وهي تدور حول الشـــباب والجمـــال، وهما عنوان المرأة التي كان ينشدها الرجال آنذاك. أما الشباب فيتمثل في عـــذارة المـــرأة مـــع اكـــتمال بلوغها، في حين يتجلى الجمال واضحاً في جملة من الصفات

---

(١) **ثماد:** من ثمد أي سمن.

(٢) ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص ٧٢.

(٣) **الغريرة:** الشابة.

(٤) **الرعبوبة:** البيضاء الحسنة والرطبة الحلوة الناعمة الممتلئة الجسم.

(٥) **العيطاء:** طويلة العنق.

(٦) **الممكورة:** المطوية الخلق والمستديرة الساقين.

(٧) **البضة:** الممتلئة.

(٨) **الرخصة:** الناعمة.

(٩) ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص ٧٣.

(١٠) **المصدر السابق**، ص ٧٣.

الجمالية التي كان المجتمع الجاهلي يقيم لها وزناً، كأن تكون المرأة بيضاء البشرة، ناعمة الملمس، ممتلئة الجسم، طويلة العنق، مستديرة الساقين.

وتقدم هند صفات المرأة التي تحب باقتضاب وتركيز، فتقول : "أحب كل مشبعة الخلخال[١] ذات شكل ودلال، وظرف وبهاء وجمال"[٢].

ولا تخرج هذه السمات الجمالية عن مجمل ما حكته جمعة في حديثها الآنف، فهما من هذه الجهة تكادان تجمعان على الصفات المستحسنة عينها، ولعل اتفاقهما ههنا ما يشير إلى توحد نظرتهما الجمالية إلى المرأة.

يتراءى من النص السابق أن هند وجمعة كانتا على قدر من البراعة والفصاحة والبلاغة، وحضور البديهة، وسرعة الخاطر، فالإجابة تبدو دائماً حاضرة وفي مكانها، وهذه السمة من أبرز سمات المناظر الناجح.

فحضور البديهة يسعف في تقديم كلام قيم يسد الخلة، ويدفع الزلة، يضاف إلى ذلك طلاقة اللسان التي اتسمت بها كلتاهما، إذ أنها من ألزم صفات الأديب وأشدها أثراً في انتصاره في ميادين القول[٣].

وقد استطاعتا أن تمتلكا زمام البلاغة والفصاحة فكل منهما عبرت عن المعنى الواحد بألفاظ متعددة مع التزامها بصياغة لغوية مغايرة للأخرى، وهذا يدل على وفرة مخزونهما اللغوي والمعرفي.

إن أنعمنا النظر في الأشياء التي سأل عنها القلمّس نجدها تمثل مقومات الحياة البدوية، فالرجل والمرأة خيارهم وشرارهم أساس المجتمع القبلي، وبهما تكون الأسرة، وهما يحتاجان لما ينقلهما وينهض بأعبائهما كالإبل والخيل، وكذلك يحتاجان لما يدر عليهما الشراب والطعام كالماعز والضأن، ولعل السر في السؤال عن ذكور الأشياء الإشارة إلى الثنائية الموجودة في الكون من جانب، ولضرورة وجود الزوجين في كل شيء إنساناً وحيواناً، نباتاً وطيراً ليكون التكاثر بينهما ومن ثم تدوم الحياة، من جانب آخر.

وأخيراً نلاحظ ندرة المناظرات النسوية في العصر الجاهلي، ولعل ذلك سببه قلة عناية الباحثين بهذا اللون النثري، ونزوعهم إلى الشعر، وميلهم إليه أكثر من الألوان النثرية

---

(١) مشبعة الخلخال: ملأى سمنا.

(٢) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص ٧٣.

(٣) محمد أبو زهرة، الخطابة أصولها، تاريخها في أزهى عصورها عند العرب، ص ص٥٥-٥٦.

الأخـــرى، وهـــذا الـــنزوع نـــاتج عن الحنين الذي يحمله العربي نحو غنائية التعبير منذ أقدم العصور، أي منذ كان الشعر هو اللوحة المثلى في الكشف عن الذات بأداء فني(١).

كمـــا يمكـــن القول أن اعتماد هذا اللون المشافهة وتأخر عصر التدوين، أدى إلى عدم وصـــول كثـــير من المناظرات فقد كان مصيرها الضياع. ينضاف إلى ذلك ارتباط هذا اللون بالأحداث السياسية والفتن التي كانت سبباً في ازدهاره فيما بعد.

٢ـ في صدر الإسلام:

وفي عصر صدر الإسلام وجدت المناظرة بيئة مناسبة للنمو والنضج، إذ جاء الإسلام وحـــرر المـــرأة مـــن التبعية والعبودية وأكرمها وأحسن إليها، فخطبت وأوصت وكاتبت، ثم ناظرت الخلفاء بلسانٍ حادٍ، وقريحةٍ وقادةٍ، ورأيٍ ثابت، وجرأة وشجاعة.

ومـــن النســـاء المـــناظرات في صدر الإسلام أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية، محدثـــة فاضـــلة، ومجاهدة جليلة، كانت من ذوات العقل والدين والخطابة حتى لقبوها "خطيبة النســـاء"، أتـــت النبـــي ﷺ وهي في أصحابه فقالت: "بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أنا وافدة النســـاء إلـــيك، إن الله عـــز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة فآمنا بك وبإلهك، وإنا معشر النســـاء محصـــورات مقصـــورات قواعد بيوتكم، ومقضى شهواتكم وحاملات أولادكم، وإنكم معشـــر الرجال فضلتم علينا في الجمع والجماعات وعيادات المرضى وشهود الجنائز، والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله عز وجل، وإن الرجل منكم إذا خرج حاجاً أو مجـــاهداً حفظنا لكم أموالكم وغزلنا أثوابكم، وربينا لكم أولادكم، أفلا نشارككم في هذا الأجر. فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه بوجهه كله ثم قال: هل سمعتم مقالة امرأة قط أحسن من مسائلها في أمر دينها من هذه؟ فقالوا: يا رسول الله ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا. فالتفت النبي ﷺ إلـــيها فقال: افهمي أيتها المرأة وأعلمي من خلفك من النساء إن حسن تبعل المرأة لزوجها وطلبها مرضاته، واتباعها موافقته يعدل ذلك كله. فانصرفت وهي تهلل"(٢).

---

(١) خولـــة عمـــر الحليبـــي، "فن المناظرات في أدب الترسل في القرن الثالث للهجرة"، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، دمشق، ص ٩-١٠.

(٢) العســـقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ص ٢٣٤-٢٣٥. وانظر: محمد رضا الحكيمي، أعيان النساء عبر العصور المختلفة، ص ٣٧.

أدركـــت هـــذه المرأة المسلمة الشجاعة قيمة الجهاد وأجره كما أدركه المسلم، ورغبت فـــي الشهادة، إذ أنها تريد الآخرة، داراً باقية ونعيماً لا يزول، إذ تبين هذه المحاورة أن المرأة كانت على قدر وافر من الشجاعة والجرأة الأدبية وحسن التصرف في القول.

وهـــي تدرك حقوقها التي أوجبها الإسلام، ومنها حقها في المهر، وقد أباح الله للمرأة التصـــرف فيه، وترفض أن يُهتضم هذا الحق، كما رفضت امرأة ما أقره عمر بن الخطاب في تحديـــد المهور، فقد ذكر أن عمر بن الخطاب قال: أيها الناس ما هذه الصدقات التي قد مددتم إلـــيها أيديكـــم، لا يبلغني أن أحداً جاوز بصداقه صداق النبي ﷺ. قال: فقامت إليه امرأة برزةٌ فقالـــت: ما جعل الله لك ذلك يا ابن الخطاب، وقد قال الله –عز وجل–: **﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً فـــلا تأخذوا منه شيئاً﴾**[١]. فقال عمر ألا تعجبون؟ أميرٌ أخطأ، وامرأةٌ أصابت، ناضلَ أميركم فنضـــل"[٢]. ردّت هذه المرأة على الخليفة عمر بن الخطاب رداً حازماً، إذ استشهدت بكلام الله تعالى، وأقر عمر بن الخطاب إصابتها كما أقر بخطأه.

يشير هذا النص إلى أن تعاليم الدين الجديد بدأت تترسخ في المجتمع الإسلامي، بحيث يتسع لها صدر الخليفة نفسه، ومن ثم يعدل موقفه اتجاهها.

ومـــن النساء اللواتي عرفن بالأدب والفصاحة الخنساء بنت الشريد، التي فقدت أخويها صـــخراً ومعاويـــة، ولم تنس هذه المصيبة برغم مرور السنين، فالأخ هو السند، ولا سيما إن كـــان بطـــلاً، شـــجاعاً، فارساً، كريماً، ومضت ترثيهما شعراً ونثراً، قيل لها يوماً: "صفي لنا أخويـــك صـــخراً ومعاويـــة. قالت: كان صخرٌ والله جنة الزمان الأغبر، وزعاف[٣] الخميس الأحمر، وكان والله معاوية النائل والفاعل. قيل لها: فأيهما كان أسنى وأفخر؟ قالت: أما صخر فحرُّ الشتاء، وأما معاوية فبرْد الهواء. فأيهما أوجع وأفجع؟ قالت: أما صخر فجمر الكبد، وأما معاوية فسقام الجسد"[٤].

لا تملـــك الأخت إلا أن تمدح أخويها الفارسين، الكريمين، إذ لا يفضل أحدهما الآخر. ثم أنشأت تقول:

أسدان مُحْمَرّا المخالب نَجْـــدَةٌ بَحران في الزمن الغَضوب الأثمر

---

(١) **سورة النساء:** الآية ٢٠.

(٢) ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص ١٥٥–١٥٦. وانظر ابن كثير، **البداية والنهاية**، ص ٦٧.

(٣) **زعاف:** القاتل من السم.

(٤) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الثالث، ص ٢٦٧.

قمران في النادي رفيعاً مُحتِدِ في المَجْد قرْعاً سَوددٍ مُتخيِّـــــر[١]

اجتمعت الشجاعة في صخر ومعاوية حتى شبهتهما أختهما بالأسد الذي لا ينازل، كما اجتمعت فيهما السيادة والرفعة والمجد.

٣ـ في العصر الأموي:

أذكت الخلافات التي شهدها العصر الأموي من فتن واضطرابات وحروب داخلية كان مـــثارها الخلافة قريحة المرأة الأدبية، فشاركت في هذه الأحداث السياسية معارضة أو مؤيدة، محرضة أو مثبطة، ومن جوانب مشاركتها هذه ما أثرناه عنها من الخطب والوصايا والرسائل والمناظرات.

كانـــت فرصـــة المـــرأة في المناظرة في هذا العصر أكبر من العصور الآنفة، إذ إن الخلافـــات والفتن وظهور الأحزاب كانت مادة خصبة لنمو هذا اللون الأدبي، وتتمثل مناظرة النســـوة العربـــيات أكثر ما يكون في هذا العصر في وفادتهن على معاوية، بعد أن استوى له أمر الخلافة.

ومـمـــا يجدر ذكره أن وفادة النساء على معاوية قد تتضمن في جزء منها خطبة، وفي جزء آخر منها مناظرة دارت بينها وبين معاوية ومن في مجلسه.

وقـــد ظهـــرت جرأة النساء في مواجهة معاوية بشكل لافت للأنظار، فاق كثيراً جرأة كثـــير مـــن الـــرجال، فوصلت حد الجرأة بهن انتقاد سياسة معاوية، وتوبيخه أحياناً، وإظهار كراهيتهـــن له علناً، ولم نجد ذلك عند الوافدين من الرجال، ولعل ذلك عائد إلى خوف الرجال مـــن بطـــش الســـلطان، بينما كانت النساء في مأمن من ذلك؛ لأن العربي من طبيعته الرفق بالنساء، وعدم التعرض لهن لأن ذلك مما يخدش الرجولة[٢].

ومـــن أبـــرز النساء اللواتي حظين بمناظرة معاوية أم الخير بنت الحريش، التي كانت قويـــة الحجـــة، لا تخشى الباطل، تنادي بالحق والحقيقة أينما حلت من غير مواربة أو تصنع، وقـــد تذاكـــر معاوية في يوم من الأيام مع أصحابه أم الخير ودورها في معركة صفين، فبعث إلى واليه في الكوفة يطلب إرسالها، محاولاً استثمار نفوذ الوالي في التأثير على نفسيتها، علها تلين، وتميل إلى معاوية، وتتخلى عن عقيدتها في أحقية علي –كرم الله وجهه– بالخلافة.

---

(١) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الثالث، ص ٢٦٧.

(٢) هـــناء نـــايف حمدان، "**النثر في بلاد الشام في العصر الأموي**"، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، عمان، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص ١٤٦.

أقامت أم الخير ثلاثة أيام في قصر الخليفة تكريماً لها، ثم أدخلها مجلسه وناظرها بعد أن أصغى لخطبتها في يوم صفين من أحد الرجال في مجلسه، وعلق معاوية على تلك الخطبة بقوله: "يا أم الخير ما أردت بهذا الكلام إلا قتلي، ولو قتلتك ما حرجت في ذلك؛ قالت: والله ما يسوءني أن يجري قتلي على يدي من يسعدني الله بشقائه، قال: هيهات يا كثيرة الفضول"(١).

أراد معاوية الإيقاع بأم الخير، فسألها عن عثمان بن عفان وطلحة والزبير، لعلمه أنها ترى فيهم غير رأيه، فقال لها: "ما تقولين في عثمان؟ قالت: وما عسيت أن أقول فيه، استخلفه الناس وهم له كارهون، وقتلوه وهم راضون، قال لها معاوية: يا أم الخير – هذا والله – أصلك الذي تبنين عليه"(٢).

ولعل معاوية يومئ إلى سوء رأيها في عثمان، مما دفعها إلى نصرة علي، لكن أم الخير دقيقة الملاحظة، سريعة الفهم، فتبادره بقولها: "لكن الله يشهد بما أنزل إليك، أنزله بعلمه، والملائكة يشهدون ﴿**وكفى بالله شهيداً**﴾(٣) ما أردت لعثمان نقصاً، ولكن كان سباقاً إلى الخيرات، وإنه لرفيع الدرجة"(٤).

ويتابع معاوية استنفاد ما عندها فيسألها عن طلحة فيقول: "ما تقولين في طلحة بين عبيدالله؟ قالت: وما عسى أن أقول في طلحة اغتيل في مأمنه، وأوتي من حيث لم يحذر، وقد وعده رسول الله ﷺ الجنة"(٥).

بينت أم الخير جزاء طلحة وهو الجنة، ثم راح معاوية يسألها عن الزبير، فقالت: "يا هذا لا تدعني كرجيع الصبغ(٦) يعرك في المركن(٧)، قال حقاً، لنقولن ذلك، وقد عزمت عليك فقالت: وما عسيت أقول في الزبير عَمّة رسول الله ﷺ وحواريه وقد شهد له رسول الله ﷺ بالجنة، ولقد كان سباقاً إلى كل مكرمة في الإسلام"(٨).

---

(١) ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص ٥٣. وانظر ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الثاني، ص ١١٨.

(٢) ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص ٥٥.

(٣) **سورة النساء: الآية ٧٩.**

(٤) ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص ٥٥.

(٥) **المصدر نفسه**، ص٥٥.

(٦) **رجيع الصبغ**: الثوب المصبوغ.

(٧) **المركن**: الإناء.

(٨) ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص ٥٥.

كمـــا ذكـــرت بعد إلحاح من معاوية رأيها في الزبير، فهو من أنصار رسول الله ﷺ ومـــن المبشـــرين بالجـــنة، في حين أن معاوية يعرف أن الشيعة يقولون إن الزبير وقاتله في الـــنار، وقـــد أدركت أم الخير ببعد نظرها مغزى معاوية من هذه الأسئلة المعضلة، فطلبت أن يعفيها من هذه المسائل الشائكة ففعل، وردها إلى بلدها.

وفـــي وفادة الزرقاء بنت عدي بن قيس على معاوية في دمشق دارت في طرف منها مـــناظرة بينها وبين معاوية، وكان موضوع المناظرة يدور حول تقريع الزرقاء على ما أحدثته مـــن تأليـــب الـــنفوس يوم صفين، فقال لها معاوية: "والله يا زرقاء لقد شركت علياً في كل دم سفكه"(١).

ومـــا كان منها إلا الجرأة والثبات، فلم تخف ولم تعتذر، إذ فرحت لشهادة معاوية لها، إذ بذلـــك ستنال أجر المجاهدين، فقالت: "أحسن الله بشارتك، وأدام سلامتك، فمثلك بشر بخير، وســـر جليســـه، قـــال: أويســـرك ذلك؟ قالت: نعم والله لقد سررت بالخبر وأنى لي بتصديق الفعل"(٢).

لقد فوجئ معاوية من وفاء الزرقاء بنت عدي لعلي حتى بعد مماته، وهذه السمة كانت عند أكثر أتباع علي، ومعنى ذلك أنهم على رأي ثابت من أحقية علي بالخلافة، فأجابها معاوية مندهشاً: "والله لوفاؤكم له بعد أعجب من حبكم له في حياته"(٣).

ومـــاذا عســـى أن يفعـــل الخلـــيفة بامرأة عجوز أثارت في نفسه الدهشة مما رآه من فصـــاحة وبلاغـــة وثبات على الرأي وشجاعة في القول، ثم سألها حاجتها فأبدت تمنعاً وتعففاً لكنه أعطاها وأجزل عطاءها.

وتـــناظر أروى بنـــت عبد المطلب معاوية ومن في مجلسه، وتعاتبه بلسان سليط على خصومته لابن عمها، ثم تفاخره ببني هاشم، وتفضلهم على بني أمية.

تناولـــت في مناظرتها موضوع الخلافة وحق علي فيها، إذ أجابت معاوية عندما سألها عـــن حالهـــا بأنـــه كافر بالنعمة، وهذا اتهام مباشر للخليفة وجههته وهي واثقة لا خائفة. ومن كلامها : "يا ابن أخي، لقد كفرت يد النعمة، وأسأت لابن عمك الصحبة، وتسميت بغير اسمك،

---

(١) ابـن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الثاني، ص١٠٨. وانظر ابن أعثم، **الفتوح**، ص٨٤-٨٥. وانظر ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق، تراجم النساء**، ص١٠٩-١١١.

(٢) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الثاني، ص ١٠٨.

(٣) **المصدر نفسه**، الجزء الثاني، ص ١٠٨.

وأخـذت غـير حقـك، من غير بلاء كان منك، ولا من آبائك، ولا سابقة في الإسلام، بعد أن كفرتم رسول الله ﷺ"[١].

ثم تبين حجتهم في حقهم المزعوم، إذ يدعون أنهم الأقرب من رسول الله ﷺ فعليّ ابن عـم رسـول الله وزوج ابنته، وجد الحسن والحسين، فقالت: "تحتجون بقرابتكم من رسول الله ﷺ، ونحـن أقرب إليه منكم، وأولى بهذا الأمر، فكنا فيكم بمنزلة بني إسرائيل من آل فرعون، وكان علي بن أبي طالب –رحمه الله– بعد نبينا ﷺ بمنزلة هارون من موسى"[٢].

وعـندما احـتج علـيها عمرو بن العاص عيرته بنسبه، وأفحمت مروان وأسكتته، ثم التفتت إلى معاوية فقالت: "والله ما جرأ عليّ هؤلاء غيرك، فإن أمك القائلة في قتل حمزة:

نحنُ جَزَيْناكم بيـوم بـدر ... والحربُ بعدَ الحربِ سعر

ما كان لي عن عتبة من صُبر ... وشكرُ وحشيّ عليّ دهري

حتى تَرِمْ أعظمي في قبري[٣]

كانـت أروى إلـى جانـب فصاحتها وبلاغتها وشجاعتها عفيفة النفس إذ لم تقبل من معاوية حاجة، وانصرفت من مجلسه، ولم تَحِد عن مبادئها التي كانت عليها. وبذلك تعد أروى نموذجـاً للمـرأة العربـية المتمـتعة بثبات النفس وقوة الإرادة، وتأثرها بدينها واجتهادها في المحافظـة علـيه مهمـا علت التضحيات، لذلك عندما تشعبت الآراء في تلك الأيام، وتباينت المذاهـب بقي ثباتها على رأيها شبيهاً بثباتها على دينها، ولم يحولها عنه تحول الزمان وتداول الدول والخلفاء والمذاهب[٤].

ومـع المـناظرات، بعـيداً عن السياسة إلى العلاقات الاجتماعية ومجلس القضاء، إذ جرت مناظرة بين الأسود الدؤلي وامرأته، تميزت هذه المناظرة أنها ذات موضوع قضائي، إذ تـناظر كلا الزوجين المتخاصمين أمام زياد ابن أبيه لينصف أحدهما، والطريف أن موضوع الخلاف والنزاع كان في الابن الذي يريده كل واحد منهما لنفسه ويدعيه له.

---

(١) ابـن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الثاني، ص١١٩-١٢٠. وانظر محمد رضا الحكيمي، **أعيان النساء**، ص ٢٤-٢٥.

(٢) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الثاني، ص١٢٠.

(٣) **المصدر نفسه**، الجزء الثاني، ص١٢٠.

(٤) كلودا أبي شقرا، **نساء عربيات**، ص ١٢.

وتأبى عاطفة الأمومة التنازل عن الابن أبداً، فتقدم حجتها على أنه من حقها، إذ حملته في بطنها تسعة أشهر، ثم أرضعته حولين كاملين، وسهرت عليه ترعاه حتى بلغ السابعة من عمره، فتقول: "أصلح الله الأمير، هذا ابني، كان بطني وعاؤه، وحجري فناؤه، وثديي سقاؤه، أكلؤه إذا نام، وأحفظه إذا قام، فلم أزل بذلك سبعة أعوام، فلما استوى فصاله وكملت خصاله، واستوكعت أوصاله، وأمّلت نفعه، ورجوت عطفه، أراد أن يأخذه مني كرهاً، فآدني أيها الأمير، فقد أراد قهري، وحاول قسري"[١].

قدمت الزوجة حججها الدامغة في حقها في حضانة ابنها، وساقت الأدلة والبراهين التي داعبت بها قلب الخليفة، بلغتها المؤثرة، وقد ساعدها على ذلك حرارة العاطفة الصادقة.

ثم قدم أبو الأسود حجته فيما يدعيه من حقه بابنه، إذ أنه يعود إليه نسباً، وهو مؤدبه، ومعلمه، ومربيه على الأخلاق الفاضلة، إذ قال: "هذا ابني حملته قبل أن تحمله، ووضعته قبل أن تضعه، وأنا أقوم عليه في أدبه، وأنظر في تقويم أوده، وأمنحه علمي، وألهمه حلمي، حتى يكمل عقله، ويستكمل فتله"[٢].

وعلى إثر كلام الزوج هبت الزوجة مؤيدة لكلامه في ظاهر الأمر، رافضة لحجته في باطن الأمر، فقد حمله حقاً من غير عناء، وحملته ثقلاً، ووضعه شهوة بينما وضعته كرهاً، فالحمل والولادة لا يساويان ما قدم الزوج، فقالت: "صدق أصلحك الله، حمله خفاً، وحملته ثقلاً، ووضعه شهوة، ووضعته كرهاً"[٣].

وبعد هذه المناظرة بين الزوج والزوجة تدخل زياد، وهو الحكم والفصل بينهما، فأمر أن يرد الولد إلى أمه، فحجتها أقوى، وكلامها أفصح، ومعانيها أبلغ، وقد شهد لها بذلك زياد إذ قال: "أردد على المرأة ولدها؛ فهي أحق به منك، ودعني من سجعك"[٤].

يبدو مما سبق أن الأحداث السياسية أذكت في المرأة الجدل والتحاور وجعلتها تخوض غمار السياسة وتناظر الخلفاء، على أن لغتها لم تهن ولم تضعف، وجرأتها لم تتأثر بسلطة أو قوة، بل ظلت ثابتة على مبدأها، مؤمنة بعقيدتها وفكرها السياسي.

---

(١) الحصري، زهرة الآداب، الجزء الثالث، ص١١١٤-١١١٥.

(٢) المصدر نفسه، الجزء الثالث، ص١١١٥.

(٣) المصدر نفسه، الجزء الثالث، ص١١١٥.

(٤) المصدر نفسه، الجزء الثالث، ص١١١٥.

٤ـ في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثاني:

لـم يكـن العصر العباسي أقل من العصور الآنفة في طرق باب المناظرة، بل كانت مجـالس الخلفاء العباسيين محط مناظرات الفقهاء والكلاميين، والأدباء والشعراء، وفوق ذلك كان الخليفة يشارك في هذه المناظرات والمحاورات يشجع فريقاً ويكافئ فريقاً آخر.

وكـان للمرأة نصيب من ذلك، أمثال أم جعفر بن يحيى، إذ حاورت الرشيد في مجلسه أثـناء نكـبة البرامكة المشهورة، وتذكر الرواية أنها كانت قد أرضعت الرشيد مع جعفر، لأنه كـان ربي في حجرها وغذي برسلها، لأن أمه ماتت عن مهده. فكان الرشيد يشاورها مظهراً لإكرامها والتبرك برأيها، وكان آلى وهو في كفالتها ألا يحجبها ولا استشفعته لأحدٍ إلا شفعها، وآلـت علـيه أم جعفر ألا دخلت عليه إلا مأذوناً لها، ولا شفعت لأحد لغرض دنيا. واحتجب الرشـيد بعد قدومه يوماً، فطلبت الاذن عليه من دار البانوقة ومتت بوسائلها إليه، فلم يأذن لها ولا أمـر بشـيء فـيها. فلما طال ذلك بها خرجت كاشفة وجهها، واضعة لثامها محتفية في مشـيتها، حـتى صـارت بـباب قصر الرشيد. فلما دخل الفضل الحاجب، قال: ظئر[١] أمير المؤمنيـن بالباب في حالة تقلب شماتة الحاسد إلى شفقة أم الواحد. فقال الرشيد: ويحك يا عبد الله ! أوسـاعية؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين حافية. قال: أدخلها يا عبد الملك، فرب كبد غدتها، وكربة فرجتها وعورة سترتها"[٢].

إن مكانـة أم جعفر عند الرشيد مكانة الأم، كيف لا وقد رضع لبنها، ونام في حجرها، فعوضته شيئاً من الأمومة، فكان حقها أن تطلب فلا ترد، وأن تدخل من غير أن تستأذن، فلما دخلـت علـى الرشيد مجلسه، قام محتفياً حتى تلقاها بين عمد المجلس، وقبل رأسها ومواضع ثديـيها، فـبادرته الكـلام معاتـبة: "يا أمير المؤمنين، أيعدو علينا الزمان، ويجفونا خوفاً لك الأعـوان، ويحردك عنا البهتان، وقد ربيتك في حجري، وأخذت برضاعتك الأمان من عدوي ودهـري؟ فقال: وما ذلك يا أم الرشيد؟ قالت: ظئرك يحيى، وأبوك بعد أبيه، ولا أصفه بأكثر ممـا عـرفه بـه أمير المؤمنين من نصيحته، وإشفاقه عليه، وتعرضه للحتف في شأن موسى أخيه"[٣].

---

(١) **ظئر**: العاطفة على غير ولدها المرضعة له من الناس والإبل.

(٢) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الخامس، ص ٦٢.

(٣) **المصدر نفسه**، الجزء الخامس، ص ٦٣.

تطلـــب أم جعفر الشفاعة لزوجها مبررة ذلك بحقها عليه وحق يحيى من الأبوة عليه، لكـــن الخليفة على درجة من الغضب تجعله يرفض شفاعتها فيجيبها: "أمرٌ سبق، وقضاء حم، وغضب من الله نفذ"(١).

لكنها لم تيأس من عفوه وصفحه:" يا أمير المؤمنين، يمحو الله ما يشاء، ويثبت، وعنده أم الكتاب"(٢).

حاولـــت أم جعفر أن تنفذ إلى قلب الرشيد من بعد ديني، فما دام الله – هو من يحاسب الـــناس– يعفـــو عنهم ، فالأجدر بالخليفة – وهو من عباد الله – أن يعفو ويصفح . لكن الذنب عظـــيم، لا يـــدع الخلـــيفة يحتمل الصفح ومجاوزة سيئة يحيى، فتحاول أم جعفر مرة أخرى: "الغيب محجوب عن النبيين فكيف عنك يا أمير المؤمنين؟" فأطرق الرشيد مليا، ثم قال:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

فقالت بغير رويّة: ما أنا ليحيى بتميمة يا أمير المؤمنين، وقد قال الأول:

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال

هـــذا بعـــد قـــول الله عـــز وجل: **﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾**(٣).

تقـــدم أم جعفـــر الالتماسات كما تدعو الخليفة إلى الصفح والعفو شعراً، وقبل ذلك من آياتـــه عز وجل، فتدعوه للعفو لأنه من صالح الأعمال، وتطلب منه كظم غيظه لأنه من حسن الأخلاق.

ثم حاورته طويلاً مقدمة طائفة من الاعتذارات شعراً ونثراً وقرآناً، لكن ذلك كله يبوء بالفشـــل، فمـــا تجدهـــا إلا محاولـــة الكرة، لتداعب عاطفته وتضغط على مشاعره عله يغفر لـــزوجها، فتقدم له زمردة فيها قفل من ذهب فأخرجت منه قميصه وذؤابته وثناياه، وقد غمست جمـــيع ذلـــك بالمسك، فقالت: يا أمير المؤمنين، أستشفع إليك، وأستعين بالله عليك، وبما صار معي من كريم جسدك وطيب جوارحك ليحيى عبدك"(٤).

---

(١) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الخامس، ص ٦٣.

(٢) **المصدر نفسه**، الجزء الخامس، ص ٦٣.

(٣) **سورة آل عمران**: الآية ١٣٤. وانظر ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الخامس، ص ٦٣.

(٤) **المصدر نفسه**، الجزء الخامس، ص ٦٤.

فيتأثر الرشيد لحظة ويبادرها:﴿**إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها**﴾[1] قالت: والله يقـول: ﴿**وإذا حكمـتم بيـن الناس أن تحكموا بالعدل**﴾[2] ويقول: ﴿**وأوفوا بعهد الله إذا عـاهدتم**﴾[3]. ثـم طلب منها أن تشتريه. فقالت: برضاك عمّن لم يُسخطك، قال: يا أم الرشيد، أمـا لي عليك من الحق مثل الذي لهم؟ قالت: بلى يا أمير المؤمنين، أعزُّ عليّ وهم أحبّ إليّ. قال: فتحكمي في ثمنه بغيرهم. قالت: بلى، قد وهبتكه". وخرجت من مجلسه مطرقة أسِفة.

هكـذا فشلت أم جعفر في مناظرتها الرشيد، فعلى الرغم مما قدمت من أدلة وبراهين والتماسـات إلا أن الخلـيفة كـان يردّ الدليل بالدليل، واستطاع أن يضبط عواطفه وانفعالاته، ولاسيما إذا كان الجرم عظيماً لا يسمح بالعفو والصفح.

ـ الأمثال :

لم تختص الأمثال بشاعر أو خطيب أو سيد قوم أو رجل أو امرأة، بل هي متاحة لكل إنسـان، إذ أنها تنبع من حياة الشعب وتجاربهم، وتجري على سائر الألسنة. لقد جرت الأمثال مجـرى الأشـعار بيـن الناس، واستشهدوا بها في كلامهم كما استشهدوا بالأمثال، صحيح أن الأمـثال جمـل قصـيرة بلاغـية، ولكـنها تحلـت بصفات فنية بارزة[4]. وتعد الأمثال من الموضـوعات الموروثة في الأمم، فهي تجربة معاشة أو خبرة مكتسبة، وهي تعبير عن رؤية معيـنة أو موقف من مواقف الحياة، كما أنها تعكس عادات المجتمع وأخلاقه وتقاليده، لذا فهي مجال خصب لدراسة المجتمع بواسطتها[5].

وهي تشترك مع الأدب في الاستعمال الخاص للغة وغير المألوف منها الكلام اليومي، وتشـترك أيضاً في البلاغة من جهة في المعنى وحسن التشبيه، ثم تشترك معه في الوظيفة إذ تحقـق أهدافـاً لا تقل أهمية عن سائر الفنون الأدبية الأخرى كالمتعة أو الكشف التاريخي أو الاجتماعي، أو الاقتصادي لنواحي الحياة المختلفة.

---

(١) سورة النساء: الآية ٥٨.

(٢) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الخامس، ص ٦٥.

(٣) سورة النساء، الآية ٥٨.

(٤) محمد التونجي، **دراسات في الأدب الجاهلي**، حلب، ١٩٨٠م، ص ١٥٣.

(٥) يوسـف بن علي الثقفي، **أهمية الأمثال في تراث الأمة**، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ص ٩. وانظـر صلاح الدين المنجد، **أمثال المرأة عند العرب ما قالته المرأة وما قيل فيها**، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص ٧.

كمـــا أن للأمـــثال وظائف أخرى إذ تحقق الزينة للخطاب الشفوي المحفوظ، والتعبير عما في النفس من حزن أو فرح مما يعجز المرء عن إظهاره بغير قوة المثل البيانية[١].

أمـــا أهمـــية دراســـة الأمثال فتكمن في كونها تراثاً تتجلى فيه خلاصة تجارب الأمم، فتعطي صورة حقيقية للفكر الإنساني ونمط المعيشة ونوعية العلاقات السائدة بين مجتمع وآخر وتكمن أهميتها في اتخاذ العبرة والعظة منها[٢].

ومـــن الجدير ذكره أننا نلحظ في مصادر الأمثال أن أكثرها لا يعرف قائله أو اختلف فـــي نسبته، وذلك عائد إلى طبيعة المثل الذي يتمثل به الناس كثيراً في أحاديثهم اليومية، إذ إن مـــا يعنـــيهم هـــو معـــنى المثل نفسه لا قائله، ومن ثم فإن لم يعرف قائله فإن العلماء القدامى ينسبونه إلى العصر الذي قيل فيه.

شـــاركت المرأة الرجل في قول الأمثال وضربها والتمثل بها في المواقف والأحداث، كما قيلت فيها أيضاً الأمثال في العصور المختلفة.

وتعـــددت الموضوعات التي دارت حولها الأمثال التي قالتها المرأة، إلا أن أغلبها كان فـــي صـــفات الأزواج والزواج وصفات المرأة المحمودة ورغير المحمودة وما له علاقة بالحياة الأســـرية، ومن ذلك المثل "أصبح ليل" قالته امرأة من طيء، وقصته كما ذكر المفضل الضبي أن امـــرأ القـــيس كـــان رجلاً مفركاً، لا تحبه النساء، ولا تكاد امرأة تصبر معه، فتزوج هذه المرأة التي تنتسب إلى قبيلة طيئ، فابتنى بها فأبغضته من ليلتها، وكرهت مكانها معه، فجعلت تقول: يا خير الفتيان أصبحت أصبحت. فيرفع رأسه فينظر فيرى الليل كما هو، فتقول: أصبح لـــيل. فلمـــا أصـــبح، قال لها: قد علمت ما صنعت الليلة، وقد عرفت أن ما صنعت كان من كراهية مكاني في نفسك، فما الذي كرهت مني؟

قالـــت: كرهت أنك خفيف العزلة، ثقيل الصدر، سريع الإراقة، بطئ الإفاقة، فلما سمع مـــنها ذلك طلقها. وذهب قولها: "أصبح ليل" مثلاً. يقال المثل في الليلة الشديدة التي يطول فيها الشر[٣].

---

(١) عبد الكريم محمد حسين، **الأمثال عند العرب طبيعتها، ومنهج دراستها**، الطبعة الأولى، منشورات مركز المخطوطات والتراث والوثائق، الكويت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ص ٤٠.

(٢) عبد المجيد قطامش، **الأمثال العربية دراسة تاريخية تحليلية**، الطبعة الأولى، دار الفكر، دمشق ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص ١١.

(٣) الميداني، **مجمع الأمثال**، الجزء الأول، ص ٤٩٤.

يمكـــن أن يضـــرب هـــذا المثل قصة أو حادثة مماثلة في الموضوع والمناسبة، أو قد يضـــرب فـــي حالـــة مشابهة، فكل أمر يشتد على الإنسان ويطلب مضي الوقت لتزول الشدة وتنفرج يصلح الاستشهاد والتمثل بهذا المثل.

وتكشـــف الأمـــثال العربية أهمية الزواج في الحياة وقيمته، وعن الصفات التي تحبها المـــرأة فـــي أن تكـــون في الزوج والصفات التي تكرهها منه، كما أدركت المرأة أن الزوج شـــريكها ومعيـــنها في الحياة، ومعه تبدأ حياة أسرية سعيدة إذ توفرت لهما أسبابها حتى قالت: "زوجٌ من عود خيرٌ من قعود".

قالـــته إحـــدى بنات ذي الإصبع العدواني، وقد روي عن علي بن عبد الله بن عائشة قـــال: كان ذو الأصبع العدواني رجلاً غيوراً، وكانت له بنات أربع، وكان لا يزوجهن غيرة، فاســـتمع عليهن يوماً، وقد خلون يتحدثن فقالت قائلة فيهن: لتقل كل واحدة منكن ما في نفسها ولنصدق جميعاً، قال: فقالت كبراهنّ:

ألا ليت زوجي من أناسٍ ذوي غنىً ... حديث الشباب طيب النشر والذكر
لصوق بأكباد النســـــــــاء كأنـــه ... خليفة جان لا يقيم على هجـــــر

فقلن لها : أنت تريدين غنياً شاباً. قال: وقالت الثانية:

ألا ليته يُعطي الجمال بَدِئيـــــة ... له جفنة تشقى بها الذيبُ والجُزُرُ
له حَكَماتُ الدّهر من غير كِبْرَةٍ ... تشينُ فلا فانٍ ولا ضرعٌ غُمْـــرُ

فقلن لها: أنت تريدين سيداً !! فقالت الثالثة:

ألا هل تراها مرة وحليلها ... أشم كنصل السيف عين المهنـــــد
عليماً بأدواء النساء ورهطهِ ... إذا ما انتمى من أهل بيتي ومحتدي

فقلـــن لها: أنت تريدين ابن عم لك، فقد عرفنه: وقلن للصغرى: ما تقولين: فقالت: لا أقـــول شيئاً. فقلن لها: لا ندعك وذاك، إنك اطلعت على أسرارنا وتكتمين سرك! فقالت: زوجٌ من عود خيرٌ من قعود"[1].

يـــبدو أن أصغرهن سناً أكثرهن إدراكاً لأهمية الزواج وقيمته، وتدرك أيضاً أن الأب ظل لا يدوم، وأن الزوج هو الأهل والمؤنس، ومن جانب آخر فإن هذه البنت الصغرى تخاف

---

(١) المـــبرد، **الكـــامل فـــي اللغة والأدب**، الجزء الثاني، الطبعة الثالثة، حققه وعلق عليه: محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، ص ٦٧٩. وانظر الميداني، **مجمع الأمثال**، الجزء الأول، ص ٣٥٥. وانظر العسكري، **جمهرة الأمثال**، الجزء الأول، ص ٥٠٣.

أن يكـــون مصـــيرها مصير أخواتها فلا تطلب شاباً غنياً، ولا تحلم بسيد أو فارس، إنما تكتفي بزوج لا يملك شيئاً يشغل بالها ويملأ حياتها.

وتكشـــف الأمـــثال أيضـــاً عن تباين النساء في صورة الزوج الذي يردن الزواج منه فبعضـــهن يفضـــل المـــنظر والجمال والحسب والمال في حين بعضهن يقدمن على ذلك العقل والخلـــق الكـــريم، فهذه عثمة بنت مطرود البجيلية تدرك أن الرجل بمخبره لا بمنظره، فقالت لأخـــتها خود وقد تقدم لخطبتها سبعة أخوة في أجمل حلة، وأبهى صورة: "ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدخل".

فلما شاور الأب ابنته قالت: "انكحني على قدري، ولا تشطط في مهري، فإن تخطئني أحلامهـــم، لا تخطئني أجسامهم، لعلي أصيب ولداً، وأكثر عدداً، فخرج أبوها فقال: أخبروني عـــن أفضلكم، فوصفتهم الكاهنة الشعثاء وكانت ترافقهم، فأشارت أختها عثمة فيهم فقالت لها: "تـــرى الفتـــيان كالنخل وما يدريك ما الدخل" اسمعي مني كلمة، إن شر الغريبة يعلن وخيرها يدفـــن، انكحي من قومك ولا تغررك الأجسام، فلم تقبل منها ونكحت أحدهم، فلم تلبث عنده إلا قلـــيلاً حتى صبحهم فوارس من بني مالك بن كنانة، فاقتتلوا ساعة ثم إن زوجها وإخوته وبني عامـــر انكشفوا فسبوها فيمن سبوا، فبينا هي تسير بكت، فقالوا: ما يبكيك؟ أعلى فراق زوجك؟ قالـــت: قـــبحه الله. قـــالوا: لقـــد كان جميلاً. قالت: قبح الله جمالاً لا نفع معه، إنما أبكي على عصياني أختي وقولها: "ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدخل"[١].

ويبيـــن هذا المثل أن المرأة كانت تنعم بقدر من الحرية، فكانت تشاور في أمر زواجها لتشـــارك والدها مسؤولية اختيار الزوج الذي خُدعت به خود وفضلته على بني عمومتها فكان مصيرها غير محمود.

وكمـــا يـــتراءى من الأمثال، فإن المرأة تحب في زوجها الشجاعة والإقدام لا الجبن، والـــتخاذل إذ تـــرى الجبن عيباً ينتقص من رجولته، فهذه امرأة من العرب تعير زوجها. وقد تخلـــف عـــن عـــدوه في منزله فرآها تنظر إلى قتال الناس فضربها، فقالت: "أغيرةً وجبناً"[٢] يضرب لمن يجمع بين شرين.

---

(١) الميدانـــي، **مجمع الأمثال**، الجزء الأول، ص١٧٢. وانظر العسكري، **جمهرة الأمثال**، الجزء الأول، ص ٢٧١.

(٢) الميداني، **مجمع الأمثال**، الجزء الثاني، ص ٦٧.

إن معاناة هذه المرأة مع زوجها كبيرة أن يجمع نقيصتين الغيرة المفرطة التي يعتورها الشـــك والجبن الذي لا يجتمع وصفة الرجولة. وهي بمصارحته ومكاشفتها لسوء ما يتصف به عرفت كيف ترد إهانته لها بضربها.

أمـــا عـــن علاقة المرأة بأبيها فهي علاقة قائمة على الاحترام والإعجاب والتقدير، إذ تـــرى فـــيه القدوة فتفتخر به في كل مجلس، وقد عبرت عن هذا الإعجاب العجفاء بنت علقمة السعدي ، فقد روي أنها خرجت مع ثلاث نسوة فجلسن في روضة يتحدثن فيها، ومن حديثهن الســـؤال عن أفضل الرجال، إذ قالت إحداهن: خيرهم الحَظِيّ الرضيّ غير الخطال ولا التبال، قالـــت الثانـــية: خـــيرهم الســـيد الكريم ذو الحسب العميم، والمجد القديم. قالت الثالثة: خيرهم الســـخي الوفـــي الذي لا يغير على الحرة، ولا يتخذ الضرة. قالت الرابعة: وأبيكن إن في أبي لنعتكـــن، كـــرم الأخلاق والصدق عند التلاق، والفلج عند السباق، ويحمده أهل الرفاق، فقالت العجفاء عند ذلك: "كل فتاة بأبيها معجبة"(١).

ونقـــرأ في الأمثال صفات المرأة المحمودة، كما نستكشف طبائع المرأة المذمومة، فمن الأمـــثال التي نستكشف فيها صفات المرأة المحمودة، المثل الذي أطلقته امرأة من العرب "بيتي يـــبخل لا أنـــا" وقصـــة المثل أن هذه المرأة سئلت شيئا تعذر وجوده عندها، فقيل لها: بخلت. فقالت: بيتي يبخل لا أنا(٢).

يـــبدو أن هذه المرأة تجود بما عندها على قدر الاستطاعة وأنها تعاني العوز والحاجة ولكـــنها تستر حاجتها وترفض أن توصف بالبخل، لأن البخل جاء من بيتها الفقير لا من نفسها الكـــريمة، كمـــا يكشف عن خلق عربي محمود وهو الكرم، ونبذ البخل حتى عدوه مما يشين الرجل وينتقص من شأنه.

تتميز الأم بعاطفتها القوية، فهي تمضي حياتها ترعى فلذات أكبادها أبنائها، ولا تنقطع هذه العاطفة ألبتة، ولا تفتر حتى وإن عقها ابنها، وهي مع هذا العقوق تجدها تخاف على ابنها وترجو له الخير(٣).

---

(١) الميدانـــي، **مجمع الأمثال**، الجزء الثاني، ص١٥٧. وانظر العسكري، **جمهرة الأمثال**، الجزء الثاني، ص ١٤٢.

(٢) العسكري، **جمهرة الأمثال**، الجزء الأول، ص ٢١٥.

(٣) محمـــود عبد المالك، **الأمثال العربية في العصر الجاهلي**، رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة اليرموك، إربد، ١٤٠٤هـــ/ ١٩٨٣م، ص ١١.

فقـد جاء في كتب الأمثال أن رجلاً تزوج امرأة وله أم كبيرة، فقالت المرأة للزوج: لا أنا ولا أنت حتى تخرج هذه العجوز عنا، فلما أكثرت عليه احتملها على عنقه ليلاً، ثم أتى بها واديـاً كثير السباع فرمى بها فيه، ثم تنكر لها، فمر بها وهي تبكي. فقال: ما يبكيك يا عجوز؟ قالـت: طرحني ابني ههنا وذهب وأنا خائف أن يفترسه الأسد. فقال لها: تبكين له وقد فعل بك مـا فعـل ؟ هـلا تدعيـن علـيه. قالت: "تأبى له ذلك بنات ألببي"[١] يضرب في الرقة لذوي الأرحام[٢].

يكشـف المـثل عن علاقة الأم بابنها وما نجده من عقوق بعض الأبناء من جهة وعن صـدق عاطفـة الأم وديمومتها رغم العقوق من جهة أخرى، وعن طبيعة علاقة الكنة بالحماة التي غالباً ما تكون علاقة موتورة.

كمـا دعـت المرأة إلى الصفح والعفو وبلغت بها الجرأة أن تخاطب بذلك الخليفة، فها هـي عائشة –رضي الله عنها– تقول لعلي–كرم الله وجهه– يوم الجمل حين ظهر على الناس فدنا من هودجها ثم كلمها بكلام: "ملكت فأسجح"[٣].

أمـا الأمثال التي تكشف عن صفات المرأة غير المحمودة فمنها المثل الذي قالته امرأة مـن العـرب: "تنهانا أمنا عن الغي وتغدو فيه"[٤]. وقد كانت هذه المرأة تخاف على بناتها أن يأخذن أخذها، فكانت إذا غدت في شأنها تقول لهن: "احفظن أنفسكن، وإياكن أن يقربكن أحد"، فقالت إحداهن: "تنهانا أمنا عن الغي وتغدو فيه". يضرب مثلاً لمن ينهى عن الشيء ويأتيه.

وبينـت الأمـثال أيضـاً بعض العلاقات الاجتماعية بين الضرائر من النساء، إذ أنها علاقة عدائية في الأغلب لا تلبث إحداهن أن تشتم الأخرى أو تعايرها نقمة عليها، فهذه إحدى ضـرائر رهـم بنـت الخـزرج، امرأة سعد بن زيد مناة، رمتها رهم بعيب كان فيها، فقالت الضرة: "رمتني بدائها وانسلت"[٥]. يضرب لمن يعير صاحبه بعيب هو فيه.

---

(١) **بنات ألبب:** عروق في القلب تكون منها الرقة.

(٢) الميداني، **مجمع الأمثال**، الجزء الأول، ص ١٦٨.

(٣) **المصدر نفسه**، الجزء الثاني، ص ٣٣٢-٣٣٣.

(٤) العسكري، **جمهرة الأمثال**، الجزء الأول، ص ٢٧٢.

(٥) الميداني، **مجمع الأمثال**، الجزء الأول، ص ٣٥٥.

وتكـــثر في المجتمع الأقاويل والإشاعات حتى بلغت أن تتهم البنت أسوأ اتهام، فقد قيل إن امـــرأة قيل إن أباها وطئها، فقالت: "عذرتني كل ذات أب"[١] .أي كل امرأة لها أب تعلم أن هذا كذب، يضرب في استبعاد الشيء وإنكار وجوده.

وكمـــا وجدت الأقاويل في المجتمع وجدت سلوكات غير محمودة بين النساء والرجال علـــى حد سواء، ومن ذلك ما كان يعقد بين الاثنين – المرأة والرجل – من مواعيد يضربونها للالـــتقاء خفاء خاصة بين الإماء، ومن ذلك المثل الذي جاء على لسان أمة واعدت صديقها أن تأتـــيه وراء الأكمة إذا فرغت من مهنة أهلها ليلا – والأكمة شجرة – فشغلوها أهلها عن الإنجـــاز بمـــا يأمرونها من العمل، فقالت حين غلبها الشوق: "حبستموني وإن وراء الأكمة ما وراءها"[٢]. يضرب لمن يفشي على نفسه أمراً مستوراً.

ومن السلوكات المنبوذة التي كانت توجد في المجتمع المتاجرة بالنفس من قبل المرأة، ولعـــل ذلـــك يعـــود لسوء التربية أو تفشي الجوع والفقر ومن ثم الاضطرار للإقدام على أمر مكـــروه، ومن ذلك ما جاء عن أن امرأة بغياً كانت تؤاجر نفسها من الرجال بدرهمين لكل من طلـــبها، فاســـتأجرها يومـــاً رجل بدرهمين، فلما جامعها أعجبها جماعه وقوته، فجعلت تقول: "صكا" أي صك صكا "ودرهماك لك"[٣]. يضرب للرجل تراه يعمل العمل الشديد.

وقيل لابنة الخس: لم زنيت وأنت سيدة قومك؟ فقالت: "قرب الوساد وطول السواد"[٤]، والسواد: المسارة، وهو قرب السواد من السواد، يعني الشخص من الشخص.

وفـــي الأمثال أيضاً أسرار نجاح الحياة الزوجية، وبيان لسبل السعادة وما يتوجب على الـــزوجة القيام به، فكما أكدت الأم في وصاياها لابنتها يوم زفافها على التطيب لزوجها كذلك أكـــدت الأمثال على هذه الضرورة، فالرائحة الطيبة مطلب عند الرجل على الزوجة ألا تغفله، لكن حبّى بنت مالك بن عمرو العدوانية أغفلت ذلك ليلة زفافها من ملك غسان، ويرى أن حبى كانت من أجمل النساء، فسمع ملك غسان بجمالها فخطبها إلى أبيها، وحكمه في مهرها، وسأله تعجيلها ، فلما عزم الأمر قالت أمها لتباعها، إن لنا عند الملامسة رشحة فيها هنة، فإذا أردتن

---

(١) الميداني، **مجمع الأمثال**، الجزء الثاني، ص ٣٩.

(٢) **المصدر نفسه**، الجزء الأول، ص ٢٨-٢٩.

(٣) **المصدر نفسه**، الجزء الأول، ص ٤٩٩.

(٤) **المصدر نفسه**، الجزء الثاني، ص١٠٩.

إدخالهـــا على زوجها فطيبنها، فلما أصبح قيل له: كيف وجدت أهلك طروقتك البارحة؟ فقال: ما رأيت كالليلة قط لولا رويحة أنكرتها. فقالت هي من خلف الستر: "لا تعدم الحسناء ذاما"[١].

ويضـــرب فـــي الأمـــر مهما كان حسناً لابد أن يكرهه أحد الناس فيجد له عيباً أو أن يخترع له عيباً من خياله ولو بشيء لا يؤبه له.

هكذا نجد أن المرأة لها أمثال جاءت على لسانها وكشفت عن عادات وسلوكات شاعت ووجـــدت في المجتمعات، فكانت هذه الأمثال صورة عن المجتمع وما كان فيها من تصرفات وصفات محمودة وغير محمودة للمرأة.

---

(١) الميداني، **مجمع الأمثال**، الجزء الثاني، ص ٢٤٩.

الفصل الثالث

الدّراسة الفنيّة

- الأسلوب
- اللغة
- البناء
- الصورة

ـ الأسلوب:

أ ـ الأسلوب الإنشائي:

نوّعت المرأة العربية في الأساليب التي اتبعتها فيما أنشأت من خطب وصايا ورسائل وغيرها من ألوان النثر العربي، وقد جاء هذا التنوع مندغماً مع طبيعة الفن النثري الذي طرقته، ومن الأساليب التي رصدتها الدراسة الأسلوب الإنشائي بما يتضمنه من نداء وأمر ونهي وتحذير وإغراء ونحوه.

ويلحظ الدارس أن هذه السمة تكاد تطغى على أكثر الفنون النثرية التي أتيح للمرأة العربية أن تتناولها في تلك المدة من حياة الأدب العربي. ولعل هذا الأسلوب آت في المقام الأول من قدرة المرأة على الإنشاء بما يختزنه من إيماءات عاطفية تلائم عاطفة المرأة الأدبية.

ركبت المرأة عدداً من الأساليب، وأثبتت قدرتها على امتلاك ناصية الأسلوب الذي يناسب المقام والفن الذي كانت تتناوله، فقد استعملت أسلوب النداء في مواقف عدة تريد بذلك لفت السامعين وإثارة انتباههم، كما في خطبة الزرقاء بنت عدي يوم صفين إذ قالت: "أيها الناس إنكم في فتنة غشتكم جلابيب الظلم، وحارت بكم عن قصد المحجة"(١).

وغالباً ما كانت تفتتح خطبها بالنداء لما يؤديه من استقطاب وجذب لاهتمام السامعين، ثم تكرر ذلك في أكثر من موضع: "أيها الرجال إلى الحرب قدماً غير ناكصين، فهذا يوم له بعد"(٢).

وعندما تتوجه المرأة بوصفها أما توصي ابنها أو ابنتها فإنها تستهل بالنداء أولاً، إذ تكاد لا تخلو وصية منه، وتعمد إلى ذلك بأداة نداء القريب لقرب منزلة المنادى. ومن ثم تصغر المنادى للتحبب إليه، ومن ذلك ما افتتحت به أعرابية وصيتها لابنتها ليلة زفافها: "يا بنية، اقلعي زج رمحه"(٣).

وما تلبث أن تنتقل من النداء إلى الأمر في مثل قول هند بنت عتبة، توصي ابنها: "يا بني إنه قلما ولدت حرة مثلك.... فاعمل بما وافقه"(٤).

---

(١) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص ٥٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥١.

(٣) ابن قتيبة، عيون الأخبار، الجزء الثالث، ص ٧٧.

(٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد، الجزء الأول، ص ١٢.

وترتبط جميع الصيغ الإنشائية من نهي وتحذير وترغيب بصيغة الأمر إذ تفضي جميعها إلى معنى الأمر، وما يلاحظ أن هذه الصيغ شاعت أكثر ما يكون في الوصايا؛ لأن الوصية في وجوهرها تستوي على ثنائية الأمر والنهي، إذ يوجهها الموصي إلى الموصى إليه ليأمره بالقيام بأفعال أو ينهاه عنها، ويحضه على بعضها أو يحذر منها.

ونقف عند وصية خالدة بنت هاشم بن عبد مناف إلى أخيها، إذ جاءت موجزة تحمل في طياتها النهي عن التعجل في الكلام، مقدمة له الطريقة المثلى للحديث اللبق، وواضح أن هذه المرأة دفعتها عاطفتها الحارة تجاه أخيها وخبرتها في الحياة، فسارعت إليه بكلمات نافعة مترددة له قبل أن تنهاه ليقبل منها وصيتها: "أي أخي، لا تُطلع من الكلام إلا ما قد روّات[١] فيه قبل ذلك ومزجته بالحلم، وداويته بالرفق، فإن ذلك أشبه بك"[٢].

كما استعملت المرأة أسلوب التحذير، وهو أمر للتنبه إلى حدوث فعل ما، واستعملت إلى جانب ذلك أسلوب الإغراء وهو أمر لإلزام الفعل كما هو في وصية أعرابية لابنتها في ليلة زفافها: "إياك والغيرة فإنها مفتاح الطلاق، وإياك وكثرة المعاتبة، فإنها تؤدي إلى النفاق، وعليك بالزينة، وأزين الزينة الكحل، وأطيب الطيب إسباغ الوضوء"[٣].

راوحت المرأة في أساليبها الإنشائية بين أمر ونهي واستفهام ونداء، حتى لا يكون أسلوبها رتيبا، وليمثل الانفعالات اللازمة[٤] ولتبعد الملل عن نفوس مستمعها، ولتضفي أنماطاً صوتية ملونة على كلامها، تقول أم الخير بنت الحريش: "أيها الناس: إن الأكياس، استقصروا عمر الدنيا فرفضوها، واستبطؤوا مدة الآخرة فسعوا لها، والله – أيها الناس – لولا أن تبطل الحقوق وتعطل الحدود، ويظهر الظالمون، وتقوى كلمة الشيطان لما اخترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه، فإلى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله ..." [٥].

إن هذه المغايرة في الأسلوب من نداء إلى إخبار، ثم إلى نداء فإخبار فاستفهام، يعمد إليها الخطيب ليضمن حسن استماع الجمهور إليه، وهكذا كان دأب المرأة في الوصايا حتى في أقصرها كوصية تلك الأعرابية لابنها في سفره: "يا بني إنك تجاور الغرباء، وترحل عن

---

(١) روّات: أي نظرت في عاقبته.

(٢) الأبي، نثر الدر، ص ٤٧-٤٨.

(٣) الوشاء، **الفاضل في صفة الأدب الكامل**، ص ٢٢٤-٢٢٥.

(٤) أحمد الشايب، **الأسلوب**، الطبعة الثامنة،مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م، ص١١٨.

(٥) ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص ٥٤-٥٥.

الأصـــدقاء، ولعلـــك لا تلقـــى غير الأعداء، فخالط الناس بجميل البشر، واتق الله في العلانية والسر"[١].

بدأت هذه الأعرابية بالنداء المقرون بصيغة التصغير التي تفيد التحبب (يا بنيّ)، وذلك لتلفـــت انتـــباهه، وبعد أن ضمنت حسن الانتباه انتقلت إلى صيغة الإخبار" "إنك تجاور الغرباء وتـــرحل عـــن الأصدقاء ولعلك لا تلق غير الأعداء" ثم بعد أن أخبرته عن طبيعة الحياة التي ستصـــادفه في غربته سارعت إليه، بطائفة أوامر تكون بمثابة دليل ومرشد له وكيفية التعامل مع الآخرين "فخالط الناس بجمل البشر، واتق الله في العلانية والسر".

وفـــي صدر الإسلام استوحت المرأة العربية من القرآن الكريم طرقا للقسم مغايرة لما كانـــت تقســـم به في العصر الجاهلي، هادفة إلى تحقيق مقاصد بلاغية تعبيرية تجلت في تأكيد الفكرة وبسطها، وتهويل الصورة والمبالغة في عرضها، فأقسمت بالله عز وجل كما هي الحال فـــي خطـــبة عائشـــة بنت أبي بكر رضي الله عنها: "أبي وما أبيه لا تعطوه الأيدي، ذاك والله حصـــن منـــيف، وظـــل مديد، أنجح إذا أكديتم، وسبق إذا ونيتم سبق الجواد إذا استولى على الأمد.." [٢].

وفي أواخر العصر الإسلامي وبداية العصر الأموي شاع استعمالها أسلوب القسم أكثر مـــن ذي قـــبل، ولعـــل السبب في ذلك عائد إلى الخصومات السياسية التي برزت والمذاهب الفكـــرية والاعـــتقادية التـــي شاركت فيها المرأة، فاحتاجت أن تؤكد حقها وتثبت حجتها، وقد اصطبغ قسمها بطابع التقريع والوعيد، فقد أقسمت عائشة رضي الله عنها عند مقتل عثمان بن عفـــان: "أما والله لقد كنتم إلى تشييد الحق وتأييده أحوج منكم إلى ما نهضتم إليه من طاعة من خالف عليه"[٣].

وممـــا تجـــدر الإشـــارة إليه أن صيغة القسم جاءت متباينة أشد التباين ما بين العصر الجاهلـــي والعصـــر الإســـلامي، فقد أقسمت المرأة العربية في العصر الجاهلي بأمور حسية فأقســـمت بالليل والمطر والريح.... إلخ، بينما التزمت في العصر الإسلامي القسم بالله إيماناً بوحدانيته، وذلك تعبير واضح عن التأثير القوي للإسلام في تغير النظرة وانقلابها إلى الالتزام بالقسم بالخالق لا بالمخلوقات.

---

(١) الحصري، زهر الآداب، الجزء الأول، ص ٤٣٨.

(٢) ابن طيفور، بلاغات، النساء، ص ١٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٨.

ومـــن الملاحـــظ أن صيغة القسم لم تشع إلا في الخطب، إذ لم نجدها في الوصايا أو الرســـائل أو الأمـــثال إلا لمامـــاً، لأن الخطبة تقوم على الإقناع والتأثير والقسم يؤدي إلى هذه الوظائف التعبيرية.

٢ ـ الأسلوب المصنوع:

يتضـــح ممـــا نقلـــه رواة الأدب أن الجاهليين مالوا إلى الأسلوب المصنوع أحياناً في أدبهم، وتجمع الروايات على ذكر كهان العرب، وما كانوا ينطقون به من الأسجاع التي عمدوا إلـــيها لمـــا لهـــا من تأثير على نفوس المستمعين، فاكتسبوا نوعاً من التصديق، وأضفوا على كلامهم شيئاً من القداسة، وكأنه موحى به[١].

وقـــد اعتمدت الكواهن هذا الأسلوب المسجع في تكهناتهن وتنبؤاتهن بالمغيبات فحظين هـــن الأخريات بمكانة مهمة في المجتمع الجاهلي، ومنهن الكاهنة زبراء التي توجهت بخطابها إلـــى بني رئام تحذرهم من خطر داهم: "واللوح[٢] الخافق، والليل الغاسق، والصباح الشارق، والـــنجم الطـــارق، والمزن الوادق، إن شجر الوادي ليأدوا[٣] ختلاً، ويحرق أنياباً عصلاً، وإن صخر الطود لينذر ثكلاً، ولا تجدون عنه معلاً[٤]".[٥]

اعـــتمدت زبـــراء على الأسلوب القسمي المسجع الذي جاء متوافقاً في ثلاث فواصل، وهـــذا الـــنوع يحتاج إلى كد ذهني لبلوغه، لكن وقعه يبدو شديداً في نفوس المتلقين، وهو ما تسعى إليه هذه الكاهنة.

وقـــد جـــاءت عناية المرأة بالسجع، لا سيما طائفة الكواهن، لوعيها بوظيفته في توليد الموســـيقا الداخلـــية، إذ إن الكلام الحافل بالموسيقا تستحسنه الأذن، ويجعل المتلقي أكثر قابلية للاستماع "فالحفظ إليه أسرع، والآذان لسماعه أنشط، وهو أحق بالتقييد وقلة التفلت"[٦].

---

(١) أنـــيس المقدسي، **تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي**، الطبعة السابعة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م، ص ١٣.

(٢) اللوح: الهواء.

(٣) يأدو: يختل.

(٤) معلاً: المهرب

(٥) القالي، **الأمالي**، الجزء الأول، ص ١٢٦.

(٦) الجاحظ، **البيان والتبيين**، الجزء الأول، ص ٢٨٧.

وقد استمر ظهور السجع والعناية بالصنعة في العصر الجاهلي في فنون النثر المختلفة، ومن ذلك ما جاء في مناظرة هند وجمعة ابنتي الخس مع القلمس الكناني، إذ كانت كل واحدة منهن تجيب عن سؤالات القلمس بلغة مسجوعة، وعناية فائقة بالألفاظ، ثم تسير الأخرى على الشاكلة نفسها وتختار نغماً موسيقياً آخر، ومن ذلك وصفهن إناث الخيل المحببة لديهن: "قالت جمعة: أحب كل حيية الفؤاد، سبوح جواد، سلسة القياد شديدة الاعتماد في الدفع والاشتداد، ذات هباب وثماد[١]. قال القلمس: كيف تسمعين يا هند؟ قالت: "هذه فرس صاحبها خليق أن لا يفوته أمر، ولا يهوله ذعر، إذا شاء كر، وإذا هان فر، وغيرها أحب إليّ منها، قال: فقولي، قالت: أحبّ الشديد أسرها، البعيد صبرها، القليل فترها الجميل قدرها، السريع مرّها، المخوف كرّها"[٢].

ولما كانت الوصية شبيهة في مضمونها بالخطبة، فقد جرت بما هو قريب من مجراها في الأسلوب، فجاءت وقد غلب عليها السجع، مع شيء من الهدوء والاسترسال[٣]، كما هو الحال في وصية أمامة بنت الحارث: "أي بنية إنك فارقت الجو الذي منه خرجت، وخلفت العش الذي فيه درجت إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه...واعلمي أن الكحل أحسن الحسن الموجود، والماء أطيب الطيب المفقود"[٤].

وفي العصر الإسلامي تميز الأسلوب الخطابي بقصر العبارة وشدة وقعها، مع وقوع السجع فيه لماماً بغير كلفة، إلا أنه تميز عن الأسلوب المسجع الجاهلي ببروز الأثر القرآني فيه، من حيث البدء والختام بالتسبيح والتحميد، وورود الأدعية المعترضة، وكثرة الشواهد من القرآن والحديث، وظهور النفحة الدينية في مضامينه.

ففي خطبة الزرقاء بنت عدي يوم صفين تحرض القوم وتستنهض هممهم: "ألا إن خضاب النساء الحناء وخضاب الرجال الدماء"[٥].

جاء السجع في هذه الخطبة وغيرها من خطب النساء، لا سيما خطب السياسة، عفو الخاطر من غير تكلف، لأن الخطيبة تركز على الفكرة، فيطغى انفعالها وتتساق وراء المعاني وإبراز الأفكار، ولا تحفل بالمحسنات البديعية إلا ما جاء عفو الخاطر.

---

(١) ثماد: أي سمن.

(٢) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص ٧٢.

(٣) كمال اليازجي، الأساليب الأدبية في النثر العربي القديم، ص ١٦.

(٤) الوشاء، الفاضل في صفة الأدب الكامل، ص ٢٢٤.

(٥) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص ٥٠-٥١.

اعتنـــت هـــذه الأعرابـــية بلغتها وحرصت على نيل اهتمام السامعين بكلامها فجعلت كلماتها موشاة بألوان البديع فهي تدرك أنها بكسب استماعهم إليها ستكسب عطاءهم.

ومن الفنون البديعية التي استعملتها المرأة في نصوصها النثرية: الجناس، وكان أكثره مـــن الجـــناس الناقص، ولعل ذلك يدل على عدم تكلفها وتصنعها، فزينة كلامها تأتي طوعا، ومـــنه مـــا جاء في وصية أمامة بنت الحارث: "وأشد ما تكونين له موافقة أطول ما يكون لك مرافقة"(١).

جـــاء الجـــناس فـــي كلمتي "موافقة ومرافقة"، وهذا اللون من البديع يساعد في تعزيز المعـــنى الذي تريده الأم، إذ تريد أن تبين أن المصاهرة أقل درجة من النسب والقرابة فتصنع بالمـــرافقة التـــي لا تـــدوم، لأنها عرضة للفراق في كل لحظة، بينما النسب وشيجة لا تحتمل الفراق لتظل ابنتها حذرة من الوقوع فيه طيلة حياتها الزوجية.

على أن الجناس برز أكثر ما يكون في الأمثال كما في المثل الذي قالته جاهلية: "قرب الوِساد، وطول السوّاد"(٢)، ورد الجناس الوساد والسواد، وهذا النوع من الجناس أقرب الأنواع إلـــى الجناس التام، إلا أن ثمة اختلافٍ في ترتيب الحروف، فاللغة لا تتيح مثل هذا الجناس إلا بجهد وكلفة، وهو ما لا ينسجم مع المثل الذي يميل إلى التلقائية(٣).

وقـــد تحقـــق بواسطته تناغماً موسيقياً ساعد في سهولة حفظ المثل، ومن ثم سيرورته وســـرعة انتشاره مثل: "ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدخل"(٤). وقولها: "زوج من عود خير من قعود"(٥).

ومـــن الفـــنون البديعـــية الأخـــرى التي ظهرت في كتابات المرأة: الطباق، وهذا أمر طبيعـــي، إذ إن الثنائـــية في حياة الإنسان قائمة لا محال، فهناك الخير والشر، والحب والكره، والصدق والكذب، وغيرها...

وقـــد حفلت نصوص المرأة في العصر الجاهلي بهذا الفن، ففي كلام الكاهنة الهمذانية: "والخفو والوميض، والشفق كالاحريص والقلة والحضيض.." (٦).

---

(١) الوشاء، **الفاضل في صفة الأدب الكامل**، ص ٢٢٤.

(٢) الميداني، **مجمع الأمثال**، الجزء الثاني، ص ١٠٩.

(٣) سالم عبد الرب السلفي، **الخصائص الأسلوبية للمثل**، ص٩٣.

(٤) الميداني، **مجمع الأمثال**، الجزء الأول، ص ١٧٢.

(٥) **المصدر نفسه**، ص ٣٩٥.

(٦) القالي، **الأمالي**، الجزء الأول، ص١٢٦.

قابلت الكاهنة الهمذانية في المعنى بين كلمة القلة وهي المكان المرتفع، وكلمة الحضيض وهو المكان المنخفض من الأرض، وهي بذلك تسعى لتحقيق الدهشة في نفوس سامعيها.

أما في العصر الإسلامي، فقد كانت العناية بهذا الفن أكثر من سابقه، وكان للصراعات والفتن وانقسام الناس إلى معارضين مؤيدين دور في ذلك.

وعت المرأة أن أمر السياسة يثير في النفس مشاعر متباينة تتفاوت بين الحب والكره، فتمثلت هذه المشاعر في منطوقها، كما هي حال هند بنت عتبة التي أوصت ابنها معاوية عندما ولاه عمر بن الخطاب ولاية الشام: "فاعمل بما وافقه أحببت ذلك أم كرهت"(١).

ولعل جوهر الطباق يتناسب مع طبيعة الصراع في صدر الإسلام، إذ انقسم الناس شيعاً وأحزاباً بعد مقتل عثمان بن عفان، وراح كل حزب ينافح عن حزبه، كما فعلت أم الخير بنت الحريش إذ ترى أن علياً على حق وأن معاوية وأتباعه على باطل، وأن له الجنة، ولمعاوية وأتباعه النار، فوصفت أهل الشام قائلة: "... باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدى، وباعوا البصيرة بالعمى.. من ضل عن الحق ووقع في الباطل، ومن لم يسكن الجنة، نزل النار"(٢).

لقد وظفت أم الخير الطباق في خطبتها لتعبر عن المعاني والأفكار التي تريدها، فقد قابلت بين الدنيا والآخرة، والحق والباطل، والجنة والنار، ولعله لا يخفى أن هذه الألفاظ تصطبغ بالصبغة الإسلامية.

يؤدي الطباق قيمة معنوية كبيرة، فهو يضخم المعنى ويجليه، ويعطي عمقاً لهذا المعنى إذ يحس القارئ أو السامع بصدمة قوية تدهشه أمام هذا التضاد(٣).

ولما كان الإنسان في السفر يعيش حالة من الشعور المضطرب، ويداخله صراع حول ما سيلقاه في سفره، طفقت المرأة توصي ابنها أن يأتي ما يستحسنه ويجتنب ما يستقبحه، فقد أوصت أعرابية ابنها قائلة: "ومثل لنفسك مثال ما تستحسن لغيرك، ثم اتخذه إماماً، وما تستقبح من غيرك فاجتنبه"(٤).

---

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، الجزء الأول، ص ١٢.

(٢) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص ٥٤.

(٣) محمود المقداد، تاريخ الترسل النثري عند العرب في صدر الإسلام، ص ٢٤٠.

(٤) الآبي، نثر الدر، ص ٨٨.

يتضح مما سبق أن المرأة استعملت أساليب الصنعة في مختلف العصور، في حين طغى السجع على نصوصها في العصر الجاهلي، بينما جاء في العصر الإسلامي وما تلاه من عصور طبيعياً متأثراً بالمعاني الدينية.

٣ ـ الأسلوب المرسل:

شاع هذا الأسلوب أكثر ما يكون في عصر صدر الإسلام، وأبرز ما تميز به هذا الأسلوب في هذه الحقبة مجاراة السجية والطبع، مع رقة الكلام، وقوة التركيب، والميل الظاهر إلى الإيجاز الوافي بالغرض، والإغضاء عن فضول الكلام، ينضاف إلى ذلك بدء الخطب، والرسائل وختمها بالتحميد والاستشهاد عند الحاجة بالآيات والأحاديث، وتضمين الأمثال والحكم وأبيات الشعر(١).

يمكننا أن نتبين ملامح هذا الأسلوب في خطبة عائشة بنت أبي بكر في أبيها: "وبغى الغوائل، وظن رجال أن قد اكثبت أطماعهم نهزتها، ولات حين الذي يرجون، وإني والصديق بين أظهركم، فقام حاسراً مشمراً قد رفع حاشيته، وجمع قطريه، فردّ نشر الدين على غرّه، ولمّ شعثه بطيّه، وقام أوده بثقافه، فابذقرّ النفاق بوطأته، وانتاش الدين فنعشه، فلما أراح الحق على أهله، وأقر الرؤوس على كواهلها، وحقن الدماء في أهبها، وحضرته منيته نضر الله وجهه..." (٢).

تميزت خطبة عائشة بطولها لكن أسلوبها جاء مرسلاً ارتكز على قوة التراكيب ومجاراة السجية والطبع من غير تكلف، فضلاً عن ذلك اعتمادها السرد والوصف اللذين يناسبهما هذا الأسلوب أكثر من غيره.

كما تمثلت المرأة الأسلوب المرسل في رسائلها، فقد اعتمدت على الإخبار، لاسيما في مدة الاضطرابات السياسية التي شهدها العصر والأحداث التاريخية، بدءاً بحادثة مقتل عثمان ابن عفان، ومن ثم انقسام الناس بسبب الخلافة إلى شيع وأحزاب، فقد تبادلت المرأة الرسائل ونظراً لجدية الموقف وتأزمه وحاجتها إلى إنشاء رسائل إبلاغ وتذكير مالت إلى الأسلوب المرسل الحر، وهذا مقطع من رسالة أم سلمة، رضي الله عنها، إلى أم المؤمنين عائشة بنت

---

(١) كمال اليازجي، الأساليب الأدبية في النثر العربي القديم، ص ٢٩.

(٢) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص ٢٠-٢١.

أبـــي بكـــر عـــندما همت بالخروج إلى الجمل: "يا عائشة إنك سدة[١] بين رسول الله ﷺ وبين أمـــته، حجـــابك مضـــروب على حرمته، وقد جمع القرآن ذيلك فلا تندحيه[٢]، وسكن الله من عقيراك فلا تصحريها[٣]، الله من وراء هذه الأمة، قد علم رسول الله مكانك، ولو أراد أن يعهد فـــيك عهـــد، بل قد نهاك عن القرطة في البلاد، ما كانت قائلة لو أن رسول الله ﷺ عارضك بأطراف الفلوات ناصة[٤]، مقوداً من منهل إلى منهل، إن بعين الله مثواك وعلى رسول الله ﷺ تعرضـــين، ولـــو أمرت بدخول الفردوس لاستحييت أن ألقى محمد ﷺ هاتكة حجاباً جعله الله عليّ"[٥].

وفـــي العصـــر الأمـــوي اعـــتمدت المرأة العربية الأسلوب المرسل، فيما أنشأت من نصوص نثرية وذلك بداعي الحاجة إلى التدقيق في المعاني والتفصيل في الأغراض، واختيار الألفـــاظ، وتنســـيق الكلام، والاستشهاد بالقرآن الكريم، كما هي الحال في خطبة أم كلثوم بنت علـــي – رضي الله عنهما– عند مقتل الحسين تقرع أهل الكوفة: "لقد جئتم بها شوهاء خرقاء، شـــرها طلاع الأرض والسماء، أفعجبتم أن قطرت السماء دماً؟ ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينظرون فلا يستخفنكم المهل فإنه لا تحفزه المبادرة، ولا يخاف عليه فوت الثار، كلا إن ربك لنا ولهم بالمرصاد"[٦].

ففـــي هـــذا المقطـــع مـــن خطبة زينب بنت علي رضي الله عنهما نلحظ قوة ومتانة الترتيـــب، واختـــيار الألفـــاظ، فضلاً عن اقتباس معانٍ قرآنية كريمة ساقتها في درج كلامها، وتخففها من الصنعة، إلا ما جاء عفو الخاطر.

ويـــندرج فـــي هـــذا الأســـلوب بعض رسائل المرأة العربية ولاسيما رسالة نائلة بنت الفرافصـــة إلى معاوية بن أبي سفيان التي وصفت فيها مقتل عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وقـــد طغـــى علـــى رسالتها طابع الاسترسال الذي فرضه وصف الحادثة مع عنايتها باللفظة واختيار المناسب منها، واستعمال بعض فنون البديع من غير تكلف، فقد جاء فيها:

---

(١) **سدة:** باب أي مدخل للناس إلى حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٢) **لاتندحيه:** لا توسعيه بخروجك إلى البصرة.

(٣) **لا تصحريها:** لا ترفعي صوتك عاليا.

(٤) **ناصة:** من نص الناقة، استخرج أقصى ما عندها من السير.

(٥) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص ٢٤-٢٥.

(٦) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص ٤٢.

"... ثـم جـاء نفـر من أصحابه فقالوا: إن ناساً يريدون أن يأخذوا بين الناس بالعدل فاخـرج إلى المسجد يأتوك. فانطلق فجلس فيه ساعة وأسلحة القوم مطلة عليه من كل ناحية، فقـال: مـا أرى اليوم أحداً يعدل، فدخل الدار، وكان معه نفر ليس على عامتهم سلاح، فلبس درعـه وقال لأصحابه: لولا أنتم ما لبست اليوم درعي. فوثب على القوم، فكلمهم ابن الزبير، وأخـذ علـيهم ميثاقاً في صحيفة بعث إلى عثمان: عليكم عهد الله وميثاقه، أن لا تقربوه بسوء حتى تكلموه وتخرجوا، فوضع السلام، ولم يكن إلا وضعه"[١].

وأضـافت نائلـة إلـى السمات الفنية في أسلوبها استعمال عنصري الحوار والحركة، والتـناص في المقطع الذي تناولته من الصحيفة التي بعث بها ابن الزبير وجماعته إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه.

٤ـ السرد والحوار:

عمـدت المـرأة إلـى اسـتعمالها أسلوب السرد، وقد ارتبط استعمال هذا الأسلوب بـالأحداث السياسـية الجسام كمقتل عثمان بن عفان، رضي الله عنه، ومن ثم الثورات والفتن الداخلـية المخـتلفة، إذ إن هذه الأحداث تحتاج إلى بيان وتفصيل وسرد، ولاسيما في الخطب والرسـائل، كما هي الحال في خطبة عائشة رضي الله عنها في مقتل عثمان بن عفان رضي الله عـنه، إذ وقفـت عائشـة بنت أبي بكر، رضي الله عنها، تخطب بالناس، إذ بدأت خطبتها بجملتيـن متلاحقتيـن، ثـم راحـت تسرد تفصيلاً لهما: "إن لي عليكم حرمة الأمومة، وحق الموعظة لا يتهمني إلا من عصى ربه"[٢].

أرادت عائشـة، رضـي الله عـنها، أن توضح هذه الحرمة وهذا الحق في الموعظة، فذكـرتهم بمكانتها، إذ إنها إحدى نساء رسول الله عليه الصلاة والسلام وابنة صاحبه وخليفته، واسـتذكرت فـي الوقت نفسه ما حل بالمسلمين بعد وفاته: "قبض رسول الله – صلى الله عليه وسـلم وآله – بين سحري ونحري، وأنا إحدى نسائه في الجنة له ادخرني ربي، وخصني من كـل بضع[٣]، وبي ميز مؤمنكم من منافقكم، وبي أرخص لكم في صعيد الأبواء، ثم أبي ثاني اثنيـن، الله ثالـثهما، وأبي رابع أربعة من المسلمين، وأول من سمي صديقاً، قبض رسول الله

---

(١) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الرابع، ص ٣٠١.

(٢) ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص ٢٢.

(٣) **بضع**: أي من كل زواج لأن النبي عليه السلام تزوجها بكراً.

وهو عنه راض، وقد طوقه وهف[١] الإمامة، ثم اضطرب حبل الدين فأخذ أبي بطرفيه، ورتق لكم أثناءه، فوقد النفاق، وأغاض نبع الردة، وأطفأ ما حشت يهود، وأنتم يومئذ جحظ العيون، تنظرون العدوة وتستمعون الصيحة، فراب الثأي، وأوزم العطلة[٢]، وامتاح[٣] من المهواة، وأجتحى[٤] دفين الداء، ثم انتظمت طاعتكم بحبله، فولى أمركم رجلاً شديداً في ذات الله –عز وجل– مذعناً إذا ركن إليه، بعيد ما بين اللابتين، عركة للأذاة بجنبه، فقبضه الله، .." [٥].

والسيدة عائشة رضي الله عنها بهذا السرد المتلاحق لسيرتها وسيرة أبيها تسعى إلى إيقاظ مشاعر المستمعين واستمالة عواطفهم والتأثير عليهم بسرد الأحداث المهمة في حياتها وحياة أبيها وتجلية الجوانب المضيئة في مدة حكمه، ومن ثم فإن عليهم حق الأمومة وحق الموعظة.

ويتجلى أسلوب السرد أيضاً في الرسائل التي يتجاوز غرضها الإبلاغ والتهديد وربما كان أغلبها في الاستعطاف والشكوى، كما هي الحال في رسالة نائلة بنت الفرافصة زوج عثمان بن عفان في رسالتها إلى معاوية بن أبي سفيان، إذ قصت عليه حادثة مقتل عثمان – رضي الله عنه – بكل جزئياتها وتفصيلاتها، وتركت القارئ يتمثل الحدث تمثلاً دقيقاً بكل ملامحه وأجزائه ودقائقه ولوحاته، وكأنه يراه معروضاً أمامه: "إن أهل المدينة حصروه في داره وحرسوه ليلهم ونهارهم، قياماً على أبوابه بالسلاح، يمنعونه من كل شيء قدروا عليه، حتى منعوه الماء، فمكث هو ومن معه خمسين ليلة، وأهل مصر قد أسندوا أمرهم إلى علي ومحمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر وطلحة والزبير، فأمروهم بقتله، وكان معهم من القبائل خزاعة وسعد بن بكر وهذيل وطوائف... ثم إنه حصر فرشق بالنبل والحجارة، فجرح ممن كان في الدار ثلاثة نفر معه، فأتاه الناس يصرخون إليه ليأذن لهم في القتال، فنهاهم وأمرهم أن يردوا عليهم نبلهم فما زادهم ذلك في القتل إلا جرأة، وفي الأمر إلا إغراقاً، فحرقوا باب الدار.." [٦].

---

(١) **وهف:** عبء وثقل

(٢) **العطلة:** الدلو المعطلة عن السقاء لانقطاع وزمها – أي السير– فأصلحها والمراد أنه سيطر على الخارجين عن الجماعة.

(٣) **امتاح:** استقى.

(٤) **اجتحى:** استأصل.

(٥) ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص ٢٣.

(٦) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الرابع، ص ٣٠٠.

اســـتندت نائلـــة في رسالتها إلى السرد المتلاحق لتبين الظلم الذي وقع على عثمان بن عفان وتوضح بشاعة الجريمة، ورفض عثمان بن عفان لقتل المسلمين منهم.

ثـــم تابعت نائلة سرد الحادثة بتفصيل دقيق ولعلها نجحت في هذا السرد المفصل لأنها كانـــت شاهد عيان على حادثة مقتله، فكان سردها متلاحقاً ومفصلاً حتى استطاعت أن تنقل ما دار بين الخليفة عثمان وخصومه بكل دقة: "ودخل عليه القوم يقدمهم محمد بن أبي بكر، فأخذ بلحيته، ودعوه باللقب، فقال: أنا عبد الله وخليفته"[١].

وأضـــافت المـــرأة إلى هذه الأساليب أسلوباً آخر تراءى في بعض نصوصها النثرية، وهـــو أسلوب الحوار، فهي تعي ما للحوار من دور في كسر رتابة السرد، وتسريع الأحداث، وإضـــفاء عنصر التشويق، وأكثر ما يتراءى هذا الأسلوب في أدب المناظرات، إذ إن المناظرة تقـــوم أساســـاً علـــى حوار بين طرفين يريد أن يثبت كل منها صحته ومنطقه واعتقاده ورأيه بحضور أشخاص آخرين.

ومـــن أبـــرز سمات المناظرة أدبياً بناؤها الحواري، فالنص منتج من قبل طرفين هما المتـــناظران، علـــى العكـــس من الأنواع الأدبية الأخرى، حيث لا يعبر عن نفسه إلا شخص واحد[٢].

قـــد تكـــون المـــناظرة بين أكثر من طرفين، كما هي الحال في المناظرة التي عقدها القلمـــس الكنانـــي مع هند وجمعة ابنتي الخس في سوق عكاظ، فقد أراد القلمس أن يحكم أيها أفصـــح وأبلغ وأذكى، فوجه لهن أسئلة حول أشياء متعددة مع توحد الصيغة وهي: أيهما أحب؟ وأيهمـــا أبغـــض؟ فكـــان من مناظرتهما: "فأي الرجال أحب إليك يا جمعة؟ قالت: أحب الحر النجيـــب، السهل القريب، السمح الحسيب، الفطن الأريب، المصقع الخطيب والشجاع المهيب، قـــال القلمـــس: كـــيف تســـمعين يا هند؟ قالت: وصفت رجلاً سيداً، جواداً، ينهض إلى الخير صاعداً، ويسرك غائباً وشاهداً، وغيره أحب إلي منه، قال: فقولي؟ قالت: أحب الرحب الذراع الطويـــل الـــباع السخي النفاع، المنيع الدفاع، والدهمشي[٣] المطاع، الذي يحل باليفاع[٤] ويهين في الحمد المتاع.. قال: كلتاكما محسنة"[٥].

---

(١) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الرابع، ص ٣٠٠.

(٢) محمد حسين الصديق، **المناظرة في الأدب العربي الإسلامي**، ص ٦٣.

(٣) **الدهمشي**: الكريم.

(٤) **اليفاع**: المرتفع من كل شيء.

(٥) ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص ٥٥.

كشف الحوار في هذه المناظرة عن الشخصيات التي تناظرت فالقلمس ناقد مهمته الحكم بالأفضلية لأحداهن، وهند وجمعة امرأتان على درجة من الذكاء والتمكن من العربية وسعة مخزونهما اللغوي.

ولم يقتصر فن المناظرة على الموضوعات الأدبية، بل كان للأحداث السياسية أثر بارز وحضور في تنامي هذا اللون النثري، إذ إن الجدل والخلاف السياسي والحزبي بيئة ملائمة لانتشار المناظرات ونضجها.

ففي خلافة معاوية بن أبي سفيان ازدهر فن المناظرة، ويتراءى هذا من الأمثلة العديدة للمناظرات، ففي وفادة أم الخير بنت الحريش على معاوية يلقي عليها بعض الأسئلة ليوقع بها، فسألها عن عثمان بن عفان وطلحة والزبير لعلمه أنها ترى فيهم غير رأيه، فقال لها: ما تقولين في عثمان؟ قالت: وما عسيت أن أقول فيه. استخلفه الناس وهم له كارهون، وقتلوه وهم راضون، فقال لها معاوية: "يا أم الخير – هذا والله – أصلك الذي تبنين عليه، فتبادره أم الخير: لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه، والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً، ما أردت لعثمان نقصاً، ولكنه كان سباقاً إلى الخيرات وإنه لرفيع الدرجة"[١].

أدى الحوار في هذه المناظرة إلى كشف مكامن نفس أم الخير، فكانت منحازة لعلي بن أبي طالب – كرم الله وجهه – لكنها على درجة من الذكاء ودقة الملاحظة، فنبهت إلى عدم انتقاصها من شأن عثمان، وهكذا تسير المناظرة في أسئلة يطرحها معاوية على أم الخير، ليكشف موقفها السياسي وانتمائها الحزبي.

ومن الفنون النثرية التي وظفت أسلوب الحوار فن الوصية، فالوصية تقوم أساساً على حوار بين الموصي والموصى إليه، لكن شخصية الموصي تطغى بينما يكون دور الموصى إليه التلقي والفهم.

ومن ذلك ما جاء في وصية ولادة العبدية إذ قامت الوصية كلها على الحوار، قال مهدي بن أبان: "قلت لولادة العبدية– وكانت من أعقل النساء – : إني أريد الحج فأوصيني، قالت: أوجز فأبلغ أم أطيل فأحكم". فقلت: ما شئت، قالت: جد تسد، واصبر تفز"[٢].

انفردت هذه الوصية في أسلوبها القائم على الحوار، فمهدي بن أبان يطلب الوصية من ولادة العبدية لأنها من أعقل النساء، ولاشك أنه لم يخطئ في ظنه بها، فهي على قدر من

---

(١) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص٥٥.

(٢) الآبي، نثر الدر، الجزء الرابع، ص٨٥.

الـــبلاغة، قـــادرة علـــى الإيجـــاز أو الإســـهاب، ثم إنها تعلم أن الإيجاز ضرب من البلاغة، والإسهاب ضرب من إحكام الكلام.

أحاطـــت ولادة العبدية المهدي بن أبان بكلمات نافذة مغرقة في الإيجاز، ولكنها بالغة الأهمية والنفع، ولما أدرك المهدي ما له من الخبرة والتجربة كثف أسئلته: "قلت: فمن أستعين؟ قالت : الله. قلت: من الناس؟ قالت: الجد النشيط، والناصح الأمين.." (١).

أســـهم الحـــوار فـــي جعل الوصية موجزة ومكثفة، كما كشف عن مدى خبرة ولادة العبدية، مما دفع مهدي إلى الاستفاضة في أسئلته.

---

(١) الأبي، نثر الدر، الجزء الرابع، ص٨٥.

٥ ـ الإسهاب والإيجاز:

ـ الإسهاب:

وجدت الباحثة أن سمة الإسهاب في نصوص المرأة النثرية في مدة ما بين عصر صدر الإسلام والعصر الأموي أشيع منها فيما سوى ذلك من العصور، ولا شك أن المسوغ لذلك المنحى الأسلوبي تلك الأحداث التاريخية الجسام التي شهدها هذان العصران، وتلك الخلافات السياسية التي كان مثارها أمر الخلافة، بدءاً من مقتل الخليفة عثمان بن عفان – رضي الله عنه – واقتسام المسلمين في شيع وأحزاب، إبان خلافة علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه – وتناظرهم في حروب أودت بحياة الكثير، وخلفت شرخاً أبى أن يلتئم، فكان ذلك الخلاف السياسي الدامي بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان. وفي ظل هذه الظروف المتعثرة شاركت المرأة العربية في الساحة السياسية مفصحة عن آرائها مؤيدة حزبها ومنافحة عنه، ثم معارضة للحزب الآخر مهاجمة له.

ففي ميدان الخطابة كانت خطبة السيدة فاطمة الزهراء في فدك خير شاهد على ذلك فقد استهلت خطبتها[١] بالحمد والثناء على الله ثم الصلاة على نبيه سيراً على نهج خطباء عصرها، ثم اقتبست من القرآن الكريم آية قرآنية ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم**﴾ [٢] فإن تعرفوه تجدوه أبي دون آبائكم، وأخا ابن عمي دون رجالكم فبلغ النذارة صادعاً بالرسالة، مائلاً على مدرجة المشركين، ضارباً لثبجهم[٣]، آخذاً بكظمهم، يهشم الأصنام، وينكث الهام، حتى هزم الجمع، وولوا الدبر، وتغرى[٤] الليل عن صبحه، وأسفر الحق عن محضه.." [٥].

راحت السيدة فاطمة الزهراء في غاية الغضب تذكر القوم بسمو مكانتها المستمدة من مكانة الرسولﷺ، فهي ابنته وريحانته، وهو الذي وجدهم يهيمون في الظلمات فبددها أمامهم.

---

(١) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص ٣٠.

(٢) سورة: التوبة، الآية ١٢٨.

(٣) الثبج: الصدر، وما بين الكاهل إلى الظهر.

(٤) تغرى: انكشف وطلع

(٥) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص ٣٠.

ثـم تبيـن بعد مقدمة طويلة من الاسترجاع للماضي ما حل بالمسلمين بعد وفاته وما ظهـر بيـنهم مـن نفـاق واضطراب في الصفوف: "... حتى إذا اختار الله لنبيه دار أنبيائه، ظهـرت خلة النفاق وسمل جلباب الدين، ونطق كاظم الغاوين، ونبغ خامل الآفلين، وهدر فنيق المبطلين، فخطر في عرصاتكم، وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه صارخاً بكم، فوجدكم لدعائه مستجيبين، وللغرة فيه ملاحظين، فاستنهضكم، فوجدكم خفافاً، وأجمشكم فألفاكم غضاباً..." [١].

ثـم مـا تلبـث أن تقرع القوم وتؤنبهم، وتبسط الحجة تلو الأخرى، والدليل تلو الدليل مستشـهدة بكـلام الله عز وجل: وهذا كتاب الله بين أظهركم وزواجره بينه، وشواهده لائحه، وأوامره واضحة، أرغبة عنه تدبرون أم بغيره تحكمون، بئس للظالمين بدلاً **﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾** "[٢].

تسـتنكر السـيدة فاطمة صنيع أبي بكر الصديق، وما سار عليه المسلمون، ثم لا تلبث حـتى تلتقط أنفاسها لتصل اللوم باللوم والتقريع بالتقريع، فواصلت خطابها الطويل الذي يفيض أسـى وحـرارة متجهة إلى مجلس الأنصار تعاتبهم على الخذلان وتثير حميتهم، وهي تقول: ويـلاً معشـر المهاجرين أؤبتز إرث أبي؟ أفي الكتاب أن ترث أباك، ولا أرث أبي؟ لقد جئت فرياً، فدونكما مخطومة[٣] مرحولة تلقاك يوم حشرك فنعم الحكم الله، والزعيم محمد، والموعد القيامة، وعند الساعة ينحسر المبطلون، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون"[٤].

وبعـد نفـس خطابـي طويل، يفيض بالمشاعر القوية والعاطفة الثائرة وطرح الأدلة والبراهيـن مع اللوم والتقريع والاستنكار تختم خطبتها بأبيات من الشعر، وهي تبكي على قبر النبي عليه الصلاة والسلام:

قد كان بَعْدكَ أنباءٌ وهَنْبَثَـة ... لو كنتَ شاهدها لَمْ تكثر الخطـبُ

إنّا فقدناك فقْدَ الأرض وابلها ... واختَلَّ أهلكَ فاشهدهُم ولا تغبِ[٥]

توالت الأحداث السياسية والانشقاقات، ومن هذه الأحداث مقتل الحسين بن علي، وفي الـرواية أن ابـن زياد وجه رأس الحسين إلى يزيد، فأمر أن يحضر رأس الحسين في طست وجعل ينكت ثناياه بقضيب وينشد :

---

(١) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص ٣١.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٨٥.

(٣) مخطومة: مربوطة بالزمام.

(٤) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص ٣٢.

(٥) المصدر نفسه، ص ٣٢.

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل

قالـت زينب بنت علي : صدق الله ورسوله يا يزيد:﴿**ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى أن كذبـوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون**﴾(١). أظننت يا يزيد حين أخذ علينا بأطراف الأرض وأكناف السماء فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى أن بنا هواناً على الله وبك عليه كرامة، وأن هـذا العظم خطرك فشمخت بأنفك، نظرت في عطنك، جذلان فرحاً حين رأيت الدنيا مستوسقة لك، والأمور متسقة عليك، وقد مُهِّلت ونُفِّسْت وهو قول الله تبارك وتعالى: ﴿**ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خيرٌ لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مُهين**﴾"(٢).

واجهـت زينـت بنت علي يزيد بن معاوية بكل جرأة وثبات معقبة على سوء صنيعه بالحسـين، فـبادرته بالآية الكريمة التي تعرض بمن فعلوا السوء وكذبوا بآيات الله، ثم أخذت علـيه غلـظ معاملـته لنسـاء آل بيت الرسول عليه السلام وحفيداته، إذ سقن إليه كما تساق الأسـارى، وهـي تفوت عليه فرصته متنبهة إلى أنه ارتكب إثماً، والله يمهله ليزداد إثماً حتى يأخذه عذاب مهين.

وتـتابع حديثها مستنكرة أن يكون فعله من شيم العادلين، فكيف يأسر بنات رسول الله ﷺ ويسـوقهن من بلد لآخر يتعرض لهن الأعادي ويتشوفهن القريب والبعيد من غير ولي أو حام، وهي لا تستغرب منه هذا الصنيع، فقد أراق دماء ذرية النبي عليه الصلاة والسلام، "أمن العدل يا ابن الطلقاء تخديرك نساءك وإماءك، وسوقك بنات رسول الله ﷺ قد هتكت ستورهن، وهن مكتئبات، تحدي بهن الأباعر، وتحدو بهن الأعادي من بلد إلى بلد، لا يراقبن ولا يؤوين، يتشوفهن القريب والبعيد، ليس معهن ولي من الرجال؟ وكيف تستبطأ في بغضتنا من نظر إلينا بعيـن الشـنف والشنآن، والإحن والأضغان؟ أتقول: ليت أشياخي ببدر شهدوا، غير متأثم ولا مسـتعظم وأنـت تنكـث ثـنايا أبي عبد الله بمخصرتك؟ ولم لا تكون كذلك وقد نكأت القرحة واستأصلت الشأفة، بإهراقك دماء ذرية محمد ﷺ ونجوم الأرض من آل عبد المطلب؟ ولتردن

---

(١) سورة الروم: الآية ١٠.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٧٨.

انظر ابن حمدون، **التذكرة الحمدونية**، تحقيق: إحسان عباس، وبكر عباس، المجلد السادس، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ص ٢٦٣.

على الله وشيكاً موردهم ولتورن أنك عميت وبكمت ولم تقل: لأهلوا واستهلوا فرحا"[1].

بعد هذا التقريع والتأنيب واللوم والعتاب لم تفتر مشاعر زينب بنت علي، بل توجهت إلى بارئها بالدعاء بأن يأخذ لهن حقهم وينتقم لهن يوم القيامة إذ أن الحاكم يومها الله عز وجل والخصم محمد عليه الصلاة والسلام فتشهد عليه بالذنب جوارحه: "اللهم خذ لنا بحقنا، وانتقم لنا ممن ظلمنا، والله ما فريت إلا في جلدك، ولا حززت إلا في لحمك، وسترد على رسول الله ﷺ برغمك، وعترته ولحمته في حظيرة القدس يوم يجمع الله شملهم ملمومين من الشعث، وهو قول الله تعالى:﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون* فرحين بما آتاهم الله من فضله**﴾[2]. وسيعلم من بوأك ومكنك من رقاب المؤمنين إذا كان الحاكم الله تعالى والخصم محمد ﷺ وجوارحك شاهدة عليك، فبئس للظالمين بدلاً، وأيكم شر مكاناً وأضعف جنداً، مع أني والله يا عدو الله وابن عدوه أستصغر قدرك، وأستعظم تقريعك..." [3].

ثم تذكره بما فعل أبوه وما أثاره من خلافات، فورث يزيد منه قتل ذرية النبي عليه الصلاة والسلام، إلا أن زينب على يقين بربها، وعلى ثبات من أمرها فتتجه إلى الله بالشكوى والدعاء وتختتم خطبتها بالدعاء لأهلها بالجنة. فتقول: "وقد وجدت أفضل زاد زوّدك معاوية قتلك ذرية محمد ﷺ فوالله ما اتقيت غير الله، ولا شكواي إلا الله، فكد كيدك، واسع سعيك، وناصب جهدك، فوالله لا يرخص عنك عار ما أتيت الدنيا أبداً، الحمد لله الذي ختم بالسعادة والمغفرة لسادات شبان الجنان وأوجب لهم الجنة، أسأل الله أن يرفع لهم الدرجات، وأن يوجب لهم المزيد من فضله فإنه ولي قدير"[4].

نلحظ مما سبق أن السيدة زينب أسهبت إسهاباً لافتاً في خطبتها فراحت تقرع يزيد مرة تلو الأخرى، وتسوق له الأدلة والشواهد القرآنية ثم تفصلها، مما أدى إلى طول خطبتها، فقد راحت تسترجع أحداثاً مضت فوضعتها في تقريعها ليزيد وسياسته، ثم راحت تقص عليه مسير نساء بيت رسول الله وكيفية سفرهن، وما اعترض لهُنَّ في الطريق، وتواترت الأحداث بين قص واستذكار للماضي وتقريع وتأنيب ثم دعاء بالمغفرة، مما أفسح للخطبة وطول فيها.

---

(١) ابن حمدون، **التذكرة الحمدونية**، ص ٢٦٣.

(٢) **سورة آل عمران**: الآيتان ١٦٩-١٧٠.

(٣) ابن حمدون، **التذكرة الحمدونية**، ص ٢٦٤.

(٤) **المصدر نفسه**، ص ٢٦٤.

يمكـــن القول إن ظاهرة الإسهاب بدت جلية في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي فـــالأحداث السياسية والخلافات والانشقاقات في فرق وأحزاب أدت إلى حاجة ملحة للإسهاب، ولا ســـيما فـــي الخطابة، بينما تراوحت الرسائل والوصايا والمناظرات بين الإسهاب والإيجاز حيناً، ومالت إلى الإيجاز في الأغلب.

وفـــي العصـــر العباســـي اعتنـــت المرأة بالأدب النثري عنايتها بالشعر، فكانت تقيم المجـــالس وتعقـــد الندوات الأدبية، وتناظر الأدباء فكانت نصوصها نثرية متفاوتة بين الإيجاز والإســـهاب، وكانت مثلاً في الرسائل تكتفي أحياناً بإشارات أو كلمات أشبه ما تكون برقية، في حين أطالت في بعض رسائلها، وجنحت إلى التكرار في بعض المفردات أو التراكيب والجمل، وكذلك ببسط الأدلة وشرحها.

ـ الإيجاز:

يـــبدو أن المرأة العربية الأديبة كانت تعي ما للإيجاز من أثر على مستمعيها، وكانت تعـــي فـــي الوقـــت نفسه موضع الإيجاز فتوجز، والإسهاب فتسهب، وقد حكمها بذلك أمران: الموقف أو الموضوع، ثم النوع الأدبي الذي تتناوله.

اتبعـــت المرأة نهج الخطباء من الرجال في كل عصر، متمثلة سمات أدبهم الفنية، ففي ميدان الخطابة تراوحت خطبها بين الإيجاز والإسهاب، على أن الإيجاز في أدبها الخطابي في العصـــر الجاهلـــي تمثل في قصر العبارة، كما هو واضح في سجع الكواهن، ولعل ذلك عائد لاعـــتمادها الأســـلوب المسجع وكثرة عبارات القسم القصيرة، كما في خطبة الزبراء: "واللوح الخافق، والليل الغاسق، والصباح الشارق..." (١).

وفـــي صـــدر الإســـلام ولا سيما في عصر الخلفاء الراشدين، كان ظهور المرأة أكثر جلاءً، فانطلقت تخطب في جمع غفير من الرجال والنساء، متأثرة بالأوضاع السياسية الطارئة في البلاد والحروب والفتن والأحزاب المتناحرة، فقوي فكرها السياسي والثقافي، وانتهجت في ذلـــك ســـبيلاً، فكانت خطبها تتسم بالإيجاز حيناً، وبالإسهاب حيناً آخر، وفق ما يقتضيه المقام والحـــال، على أن الإيجاز أبرز ما تمثل في بعض خطب عائشة عند وفاة أبيها: "رحمك الله يا أبـــت، فلئـــن أقـــاموا الدنيا لقد أقمت الدين حتى وهي شعبه، وتفاقم صدعه، ورجفت جوانبه، انقبضت عما إليه أصغوا، وشمرت فيما عنه ونوا، وأصغرت من دنياك ما أعظموا، ورغبت

---

(١) القالي، الأمالي، الجزء الأول، ص ١٢٦-١٢٧.

بديـــنك عمـــا أغفلـــوا، أطالوا عنان الأمل، واقتعدت مطي الحذر، فلم تهتضم دينك، ولم تنس غدك، ففاز عند المساهمة قدحك، وخف مما استوزروا ظهرك"[١]. وهكذا جاءت خطبة عائشة في يوم الحكمين وبعد وفاة أبيها موجزة إذا ما قيست بخطبها الأخرى.

وتـــتجلى ســـمة الإيجـــاز في الرسائل والوصايا والأمثال أكثر من غيرها من الفنون النـــثرية، ومـــن أمثلة الإيجاز في الرسائل ما تبادلته السيدة عائشة بنت أبي بكر – رضي الله عنها – وأم سلمة – رضي الله عنها – مع علي بن أبي[٢] طالب ومعاوية بن أبي سفيان[٣].

فرســـالة عائشـــة بنت أبي بكر إلى معاوية بن سفيان حملت في كلماتها القليلة المعاني الكثيرة، إذ اقتصر غرضها على الإبلاغ والتهديد، فكان ذلك سبباً في الإيجاز: "أما بعد فإن من يعمل بمساخط الله يصر حامده من الناس ذاماً له، والسلام"[٤].

اتسمت رسالة عائشة –رضي الله عنها – بالإيجاز من غير إخلال بالمعنى، إذ احتوت رســـالتها أهـــم عناصـــر الرســـالة، ولـــم تبدأ بالبسملة على الرغم من أنها كتبت في العصر الإسلامي، لكن المسوغ لذلك هو أن غرض الرسالة هو التهديد والوعيد، وموقف السيدة عائشة مـــن معاويـــة بن أبي سفيان لم يجعلها تبدأ بالبسملة واكتفت بعبارة البعدية، ويشكل المتن قلب الرســـالة التـــي جعلـــته السيدة عائشة ينبض بمعان كثيرة حملتها بين طياتها الجملة الشرطية ليتحقق المراد.

ونجحت المرأة العربية في المدة المدروسة في تكثيف عبارتها مع القدرة على الإبلاغ والتوصيل، فقد بعثت عائشة– رضي الله عنها – رسالة إلى الأشتر: "أما بعد فإنك أول العرب شـــب الفتـــنة، ودعـــا إلى الفرقة، وخالف الأئمة، وسعى في مقتل الخليفة، وقد علمت أنك لن تعجز الله حتى يصيبك منه بنقمة وينتصر بها منك للخليفة المظلوم، وقد جاءني كتابك، وفهمت ما فيه، وسيكفنيك الله، وكل من أصبح مماثلاً لك في ضلالاتك وغيك إن شاء الله"[٥].

وقد كان لاحتدام الخصومات السياسية التي ازداد لهيبها بين الإمام علي ومناوئيه وفي مقدمـــتهم معاوية أثر واضح في تفاوت الرسائل التي كتبتها المرأة بين الإيجاز والإسهاب، فقد اقتضـــت الظروف السياسية أثناء الفتنة الأهلية وبعدها تحبير الرسائل الموجزة، إلى جانب تلك

---

(١) ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص ٢٨.

(٢) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الرابع، ص ٣١٧.

(٣) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، ص ٢١٩.

(٤) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الأول، ص ٥٩.

(٥) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، الجزء السادس، ص ٢٥٥.

الرسـائل الطويلـة، إذ قد يكون الإيجاز أبلغ الدلالة على أداء ما يرمي إليه الخصوم ورؤساء الكتل السياسية المتناحرة[١].

ولما كانت الوصية شبيهة في مضمونها بالخطبة، فقد جرت بما هو قريب من مجراها في الأسلوب، إذ تراوحت بين الإيجاز والإسهاب فمن وصايا الزواج في العصر الجاهلي التي تتسم بالإيجاز وصية إحدى الأعرابيات لابنتها ليلة زفافها، واللافت للنظر في هذه الوصية أنها احتوت دلالات وتراكيب مباينة للوصايا في العصر الجاهلي، إذ قالت: "اقلعي زج رمحه، فإن أقر فاقطعي اللحم على ترسه، فإن أقر فضعي الإكاف على ظهره، فإنما هو حمار"[٢].

ربما كانت هذه الوصية كما سبق في الفصل الثاني تعريضاً غير مباشر بالرجل، فهي لا ترضى له أن يكون مسلوب الإرادة، بل توجهه إلى أن يحافظ على رجولته مشيرة إلى عدة الحرب التي يعتز بها الرجل العربي آنذاك، وتجعل منه فارساً، ولربما خاضت هذه الأم تجربة زوجـية فاشـلة، ولـم ترد أن تطيل لئلا تنفر ابنتها من الزواج مع حرصها على رسم طريقة موجزة لمعاملة الزوج لتضمن لها استمرار الحياة الزوجية.

وفضلاً عن هذه الوصية، نجد وصايا أخرى تمتاز بعباراتها الموجزة المكثفة، أشارت الأم فيها إلى أولى أوليات الحياة الزوجية وعوامل ديمومتها وتحقيق السعادة، فقد أوصت امرأة مـن بنـي أسـد ابنتها ليلة زفافها: "ادني سترك، وأكرمي زوجك، واجتنبي الإباء، واستنظفي بالمـاء"[٣]. اسـتطاعت هذه المرأة الأسدية الحكيمة أن تجمع في أربع عبارات عوامل الحياة الزوجية وهي : صونها لنفسها، وإكرام زوجها، وطاعته، والتجمل له.

وفي صدر الإسلام لم يكن حظ الوصية من الاهتمام كغيرها من الفنون، إذ إن العصر شـهد أحداثاً تاريخية وسياسية جسيمة متمثلة بالفتن والحروب والأحزاب، فكانت الخطابة أكثر استيعاباً لهذه الأحداث فضلاً عن اهتمام المؤرخين والنقاد بالنصوص الأدبية التي تجسد الحدث التاريخي والسياسي أكثر من غيرها من النصوص.

ولعل وصية هند بنت عتبة لابنها معاوية حين استعمله عمر بن الخطاب – رضي الله عـنه– على الشام من أشد الوصايا إيجازاً وأكثرها تكثيفاً: "يا بني، إنه قلما ولدت حرة مثلك،

---

(١) غـانم جـواد، **الرسائل الفنية في العصر الإسلامي حتى العصر الأموي**، مطبعة أسعد، بغداد، ١٤٠٠هـ/ ١٩٧٩م، ص١٤٧.

(٢) ابن قتيبة، **عيون الأخبار**، الجزء الثالث، ص ٧٧.

(٣) الأبي، **نثر الدر**، الجزء الرابع، ص ٨٩-٩٠.

وقــد استعملك هذا الرجل فاعمل بما وافقه أحببت ذلك أم كرهته"[١]. بدأت هند وصيتها بإعلاء شــأن ابنها لتزيده ثقة بنفسه، ثم طلبت منه طاعة الخليفة سواء أحب أم كره، حرصاً منها على تثبيت دعائم ولاية ابنها.

وفــي العصر الأموي كانت الوصايا أقرب إلى الإيجاز، على اختلاف أغراضها، فقد أوصــت أعرابــية بــنات عمهــا: "السعيدة منكن يتزوجها ابن عمها، فيمهرها تيسين، وكلبين وعيريــن ورحييــن، فينــب التيســان، وينهق العيران، وينبح الكلبان، وتدور الرحيان، فيعج الوادي، والشقية منكن من يتزوجها الحضري فيكسوها الحرير، ويطعمها الخمير، ويحملها ليلة الــزفاف علــى عود، تعني سرجاً"[٢]. تحمل هذه الوصية ترغيباً في الزواج من الأقارب رغم شح الحال، وتفضيلهم على الغرباء الذين لا تعرفهم ولا تعرف أطباعهم.

ولــم يخــتلف العصــر العباســي في شطره الأول عما سبقه من العصور في تفاوت الوصــايا بين الإيجاز والإسهاب، بل إننا نجد المرأة لما هي عليه من البلاغة تخير من توصيه بين الإيجاز أو الإسهاب، كما فعلت ولادة العبدية مع مهدي بن أبان وقد استوصاها وهو قاصد الحــج: "أوجز فأبلغ أم أطيل فاحكم"[٣]. وكان أول ما أوصت به أبان الكرم والصبر، فقالت: "جــد تسد، واصبر تفز"[٤]. وكان أبان يطلب الزيادة فتوصيه ويوجه إليها الأسئلة : قلت: فمن أستعين؟ قالت: الله، قلت: فمن الناس؟ قالت: الجلد النشيط والناصح الأمين"[٥].

وتتمــثل هــذه السمة الأسلوبية أيضاً في الأمثال ولعلها كانت في الأمثال ركناً أساسياً تعــتمد علــيه إلــى جانب الإصابة في المعنى، ولا يتجاوز المثل العبارة المركزة المكونة من بضــع كلمــات، ولعــل ما اتسمت به من الإيجاز ضمن لها الحفظ والشيوع والانتشار، وفي المقابل فإن الإيجاز جعل بعض الأمثال غامضة غير مفهومة ما لم تعرف قصتها.

وقــد تعدد أنواع الإيجاز في الأمثال، فمنه إيجاز بحذف قصة المثل وبقاء المثل بلفظه دالاً علــى المعــنى مــثل قولها: "بيتي يبخل لا أنا"[٦]. ومنه إيجاز بحذف الفعل والإبقاء على

---

(١) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الأول، ص ١٢.

(٢) **المصدر نفسه**، الجزء الثالث، ص ٤٧٠.

(٣) الآبي، **نثر الدر**، الجزء الرابع، ص ٨٥.

(٤) **المصدر نفسه**، الجزء الرابع، ص ٨٥.

(٥) **المصدر نفسه**، الجزء الرابع، ص ٨٥.

(٦) الميداني، **مجمع الأمثال**، الجزء الأول، ص ١٢٠.

المفعول المطلق المسبوق بهمزة استفهام غرضه التوبيخ مثل: "أغيرةً وجبناً"[١]. وتقديره أتجمع غيرةً وجبناً. ومنه إيجاز بحذف حرف النداء مثل قولها: "أصبح ليل"[٢]. وتقديره أصبح يا ليل.

للإيجاز في المثل وظائف تعبيرية وتأثيرية أيضا، إذ إن ظاهرة الإيجاز تعبر عن رغبة المتكلم في اختصار زمن التكلم إما لأن المتكلم شخص حكيم يقدر الوقت فيكون كلامه موجزاً أو لأنه في مقام لا يسمح له بطول المقال[٣].

وفضلاً عن ذلك، فإن الانتقال من اللفظ القليل إلى المعنى الكثير يولد إدهاش السامع، وهذه وظيفة تأثيرية بارزة في المثل، فالإيجاز مقوم أساسي في الأمثال، وبه تتمكن الأمثال من تحقيق مقوماتها الأخرى كالسيرورة وعدم التغير"[٤].

٦ ـ التكرار:

اتخذت المرأة العربية من أسلوب التكرار في اللغة وسيلة لتأكيد المعنى وتعميقه في نفوس متلقيه، حلية تزين بها النص، وقد غلب على النصوص تكرار المعنى أكثر من اللفظ، وقد جاء ذلك في المواقف التي تحتاج إلى تفصيل وتثبيت في نفوس المتلقين.

استعملت المرأة العربية أسلوب التكرار في الخطب والوصايا أكثر من غيرها من الفنون، ولعل مرد ذلك إلى أن الخطب والوصايا يحتاج فيها الأديب إلى بسط وتفصيل ومن ثم تثبيت هذه المعاني في نفوس متلقيه.

فمن تكرار المعنى دون اللفظ ما جاء في خطبة أم الخير بنت الحريش يوم صفين: "إن الله قد أوضح الحق، وأبان الدليل ونور السبيل"[٥]، لم تكتف أم الخير باستعمال حرف التوكيد إنّ أو حرف التحقيق قد، بل عمدت إلى تكرار الكلمات المختلفة، والتي تحمل المعنى نفسه: "أوضح" و"أبان" و"نور" تأكيداً منها للمعنى المراد.

وقد يكون التكرار جملة بالترادف، كما في خطبة حفصة بنت عمر بن الخطاب – رضي الله عنهما– بعد وفاة أبيها: "فلم يزل سراجه زاهراً، وضوءه لامعاً، ونوره ساطعاً"[٦].

---

(١) الميداني، **مجمع الأمثال**، الجزء الثاني، ص ٦٧.

(٢) **المصدر نفسه**، الجزء الثاني، ص ٤٩٤.

(٣) السالم عبد الرب السلفي، "**الخصائص الأسلوبية للمثل**"، ص ٩٣.

(٤) **المرجع نفسه**، ص ٩٤.

(٥) ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص ٥٤.

(٦) **المصدر نفسه**، ص ٤٣.

فقد تكرر المعنى في الجملة الأولى في جملتين متتاليتين لتحقق قيمة دلالية، وهي التأكيد، وقيمة بلاغية صوتية من خلال السجع.

تبدو هذه الظاهرة الأسلوبية جلية في فن الوصايا، فالموصية تهدف إلى تأكيد وصاياها، وإقناع المتلقي، فتلجأ إلى التكرار أسلوباً، ومثال ذلك ما جاء في وصية أعرابية لابنتها في ليلة زفافها: "أي بنية، أوصيك فاحفظي وصيتي، وأنصحك فاقبلي نصيحتي"(١).

لابد أن هذه الأم تدرك قيمة الزواج وضرورة الحفاظ على نجاحه، وذلك بأخذ العبرة وقبول النصيحة، فأرادت أن تشغل ذهن ابنتها بوصيتها وتشعرها بقيمتها فأكدت قيمة الوصية بجملتين مترادفتين.

أما في الرسائل، فقد اقترن استعمال التكرار بغرض الرسالة، فالرسائل التي غرضها الإبلاغ مالت إلى الإيجاز والابتعاد عن أسلوب التكرار، بينما جنحت الرسائل التي هدفها الاستعطاف إلى استعمال التكرار، وقد أدى بها إلى ذلك غرض الاستعطاف، إذ إن المرسل يهمه كسب العطف والعفو، فيلجأ إلى تكرار المعنى وتأكيده. ومن ذلك رسالة السيدة زبيدة إلى المأمون تستعطفه، فقد كررت الجملة نفسها بلفظ مختلف، فقالت:" كل ذنب يا أمير المؤمنين – وإن عظم – صغير في جنب عفوك، وكل زلل وإن جل – صغير عند صفحك"(٢).

ومثل ذلك رسالة جارية إلى المأمون في إهدائه تفاحة تحثه على الاهتمام والعناية بتلك الهدية: "حتى ترمقها بعين الجلالة، وتلحظها بمقلة الصيانة"(٣).

يخلص الدارس أن التكرار الذي استعملته المرأة في الكلمات والجمل لم يأت عشوائياً، إنما اهتدت إليه وعمدت إلى توظيفه في خدمة النص ليحقق قيماً دلالية وبلاغية.

٧ ـ الاقتباس والتضمين:

حرصت المرأة في العصر الإسلامي خاصة، وما تلاه من عصور، على تزيين كتاباتها بالآيات القرآنية بما يضفي عليها سمات القوة والجزالة، وما يعينها على تأييد أفكارها وتأكيدها ودعم وجهات نظرها، وقد فسر ابن الأثير غاية الاقتباس من القرآن، فقال: "إذا ضمنت الآيات في أماكنها اللائقة بها، ومواضعها المناسبة لها فلا شبهة فيما يصير للكلام من

---

(١) الوشاء، **الفاضل في صفة الأدب الكامل**، ص ٢٢٤.

(٢) الطبري، **تاريخ الطبري**، الجزء العاشر، ص ٢١٣.

(٣) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء السادس، ص ٢٨٨.

الفخامـــة والجـــزالة والـــرونق، ... وأيضـــاً فإن الآية الواحدة تقوم في بلوغ الغرض وتوفيه المقاصد ما لا تقوم به الكتب المطولة والأدلة القاطعة[1].

برزت هذه الظاهرة الفنية في عهد الخلفاء الراشدين إثر الفتن والاضطرابات السياسية فـــي المجـــتمع الإســـلامي آنـــذاك، بـــدءاً من عهد عثمان رضي الله عنه حتى نهاية العصر الإســـلامي، إذ تناولت المرأة من فرائد القرآن الكريم النفيسة ما يعزز آراءها ويدعمها، ويقوم حججهـــا ويـــنقض أفكار خصومها، ومن أولئك النسوة اللواتي أبن بلسان فصيح ولغة سليمة، وقلـــب ثابـــت علـــى الإيمان ومؤمن بالحق السيدة عائشة بنت أبي بكر، إذ كانت عالمة بأمور دينها قارئة لكتاب ربها، فوقفت في وجه جماعة نالت من أبيها: "... وكان غزير الدمعة، وقيذ الجوانح، شجي النشيج، ويستهزئون به ﴿**الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون**﴾"[2]. فاستشهدت عائشة بهذه الآية الكريمة تقريعاً لتلك الجماعة وتأنيباً لها.

ومنهـــن أيضاً السيدة فاطمة بنت الرسول عليه السلام التي خطبت في الناس يوم فدك فافتتحـــت كلامها بالآية القرآنية: ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم**﴾.[3] أرادت السيدة فاطمة أن تذكر القوم بسيد المرسلين وتنبههم إلـــى صـــلتها به، ومن ثم صلتها بهم إذ لا تستحق منهم هذه الفعلة، ثم أخذت تدافع عن حقها وتقـــدم لكل فكرة آية تؤكد بها فكرتها فترى أن ما فعلوه فتنة وعقابها وخيم كقوله: ﴿**وإن جهنم لمحيطة بالكافرين**﴾[4].

ثم تؤكد أنهم حادوا عن تعاليم الإسلام، لذا فمصيرهم النار، فقد قال تعالى:﴿**ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**﴾[5].

وتقدر أن حكمهم عليها حكم الجاهلية، مستشهدة بالآية الكريمة:﴿**أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون**﴾[6].

---

(١) ابـــن الأثير، **من المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، اختار النصوص وقدم لها سمر روحي الفيصل، الجزء الثالث، وزارة الثقافة، دمشق، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ص ٢٠٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٥.

(٣) سورة التوبة: الآية ١٢٨.

(٤) سورة التوبة: الآية ٤٩.

(٥) سورة آل عمران: الآية ٨٥.

(٦) سورة المائدة: الآية ٥٠.

وتجـدر الإشارة إلى أن الاقتباس من القرآن الكريم والاستشهاد بآياته غالباً ما جاء في الخطـب، إذ يقـدم الخطيـب الدلـيل والحجـة على صحة ما يقول ويعتقد، وإلى جانب ذلك استشهدت به المرأة في الرسائل فنائلة زوج عثمان بن عفان افتتحت رسالتها إلى معاوية بالآية الكـريمة:﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله**﴾(١).

وفـي العصر الأموي استشهدت المرأة بالقرآن الكريم في غير موضع، وأبرز ذلك ما كـان في حادثة مقتل الحسين، فهذه أم كلثوم تخطب في أهل الكوفة الذين غدروا به، وأخلفوا العهد، فتستشهد بآيات القرآن الكريم – بعد أن نعتتهم بالغدر والخيانة – الدالة على هذه الصفة قوله تعالى:﴿**كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم**﴾(٢). إذ قدمت الآية تأكيداً لهذه الصفة الممقوتة التي وجدتها في أهل الكوفة.

وفـي الخطـبة نفسها نجد أم تسوق الأدلة القرآنية دليلاً تلو الآخر، فتؤكد سوء فعلتهم وعظـم ذنـبهم حـتى تكـاد السماء والأرض والجبال لا تتحمله: ﴿**لقد جئتم شيئاً إداً * تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً**﴾(٣).

وقـد اسـتطاعت المرأة العربية بما أوتت من فصاحة وبيان أن تدرج الآيات القرآنية الكـريمة في ثنايا كلامها من غير أن تنص على ذكرها حتى تبدو كأنها وحدة متماسكة، وهذا يـدل علـى قدرة المرأة على معالجتها للقضية التي تريد بفكر وثقافة العصر الذي تعيش من جهـة، ومعرفتها وشدة حفظها وإدراكها للقرآن الكريم وتدبر معانيه والاستشهاد به في مواضع الاستشهاد من جهة أخرى.

وفضـلاً عـن ذلك، فإن كانت أم كلثوم نصت في خطبتها السابقة على بعض الآيات القرآنية فقد جاءت بعضها في ثنايا كلامها دون نص منها.

اقتباس من قوله تعالى:﴿**وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله**﴾(٤).

وهـذا يشـير إلـى ما تمتلكه من مهارة في وضع الآيات بالمواضع الملائمة لها من الخطبة، حتى ليحسبها من لا يحفظ القرآن أن الكلام كله لها، وقولها في الخطبة نفسها: "كـلا

---

(١) سورة الحجرات، الآية ٩.

(٢) سورة النحل: الآية ٩٢.

(٣) سورة مريم: الآيتان ٨٩-٩٠.

(٤) سورة البقرة، الآية ٦١.

أمـــا الـــزرقاء، فقـــد استرســـلت في خطبتها التي ضمنتها الأمثال والحكم فقالت: "إن المصـــباح لا يضيء في الشمس، والكوكب لا يقد في القمر"[١]. ولعلها تريد بذلك أن الحق لا يقاس بالباطل وعلي لا يقاس بمعاوية وأمثاله[٢].

وقالـــت: "إن البغل لا يسبق الفرس وإن الزق[٣] لا يوازن الحجر... ولا يقطع الحديد إلا الحديد"[٤].

ومـــن الطـــريف أن يأتـــي النص النثري كاملاً أمثالاً وحكماً متتالية مناسبة للموضع والحـــال، مثل ما كان في رسالة مُنية إلى قابوس إذ كتبت له: "من سن سنة فليرض بأن يحكم علـــيه بها، ومن سأل مسألة فليرض من العطية بقدر بذله، لكل عمل ثواب، ولكل فعل جزاء، ومن بدأ بالظلم كان أظلم، ومن انتصر فقد أنصف، والعفو أقرب إلى العقل أو غير مسيء من أعتب، وغير مذنب من طول، مع المخض تبدو الزبدة. عند تناهي البلاء يكون الفرج، كل ذي قـــرح يشـــتهي دواء قرحه، كل مطمع منتظر، كل آت قريب، مع كل فرحة ترحة، ومن خبث سنخة[٥] غلظ كبده، ونام حقده، الموت أروح من الهوى، اليأس أول سبب الراحة، السحرة أنفذ مـــن الشـــعر، دواء كل محب حبيبه، مع اليوم غد، كما تدين تدان استشف الله لما بك، واسأله المدافعة عنك"[٦].

وقـــد يكون الأمر أكثر طرافة إذا عرفت أن قابوسا رد على رسالتها بالمثل في رسالة كلها حكم وأمثال متتابعة من غير شرح أو تعقيب وكلها مناسبة لمقتضى الحال.

٨ـ مزج الشعر بالنثر:

اعتنـــت المرأة العربية بما أنتجته من أدب نثري ومن مظاهر عنايتها تطعيم النصوص النـــثرية بأبيات شعرية، لتضفي بذلك قيماً جمالية وفنية، فيجد السامع فيها روعة النغم وتنويع الإيقاع الصوتي واستراحة للسامع.

---

(١) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص ٥٠.

(٢) صادق أينه وند، الأدب الملتزم في الإسلام، ص ١٤٣.

(٣) الزق: صغار ريش الطائر.

(٤) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص ٥٠.

(٥) سنخة: أصله.

(٦) ابن قتيبة، عيون الأخبار، الجزء الأول، ص ١٣٦.

ناسبت المرأة بين مضمون النص النثري، وما أنشدته من أبيات شعرية في سياق أدبها النثري، فهذه صفية المنقرية ترثي الأحنف بن قيس في جمع غفير من الناس بأبلغ العبارات وأشدها تأثيراً خاتمة كلامها بأبيات من الشعر:

عَلَيْكَ سَلامُ اللهِ قَيسُ بن عاصِمٍ ... وَرَحْمَتُهُ ما شَاءَ أنْ يَتَرحَّمَا

فَمَا كَانَ قَيْسٌ هُلْكُهُ هُلْكُ وَاحِدٍ ... ولكِنَّهُ بُنْيَانُ قَوْمٍ تَهَدَّمَا

سَلامُ امْرِئٍ أوْدَعْتَهُ مِنْكَ نِعْمَةً ... إذَا زارَ عَنْ شَحْطٍ بِلادَكَ سَالمَا[1]

لاغرو في استشهاد المرأة الشعر، فهو من ثقافتها العربية الأصيلة، كما أن تأثيره في النفوس بعيد المدى، ثم إن الشعر والخطابة معاً يتشابهان في الاستمالة وتأييد الدعاوى[2]. أكدت صفية بهذه الأبيات من الشعر غرض الرثاء، ثم عمدت إلى التأثير أكثر في نفوس مستمعيها.

ومن ذلك أيضاً ما ذيلت به فاطمة الزهراء خطبتها في فدك، فراحت بعد خطبة مطولة تلتقط أنفاسها، وتستجمع قواها، فتختم خطبتها ببيتين من الشعر:

قَدْ كَانَ بَعْدَكَ أنْبَاءٌ وهَنْبَثَةٌ ... لَوْ كُنْتَ شَاهِدَها لَمْ تَكْثُرِ الخُطَبُ

إنَّا فَقَدْنَاكَ فَقْدَ الأرْضِ وَابِلَها ... واخْتَلَّ أهْلَكَ فاشْهَدْهُمْ وَلا تَغِبُ[3]

لقد صورت السيدة فاطمة الزهراء عظم مصيبها نثراً، ثم كثفت هذا المعنى في بيتين من الشعر، ولا غرابة في ذلك فهي ابنة سيد قريش وأفصحهم.

لم تكتف المرأة بأن تختم نصوصها النثرية بالشعر، بل نجدها تراوح أحياناً بين الشعر والنثر فتسوق الفكرة أولاً نثراً، ثم تصوغها شعراً، كما فعلت عاتكة بنت غانم، إذ ذكرت أشراف بني هاشم واحداً واحداً نثراً ثم مدحتهم شعراً فقالت: ومنا عبد مناف المؤثر وفيه قال الشاعر:

كَانَتْ قُرَيْشٌ بَيْضَةً فَتَفَلَّقَتْ ... فالمُحُّ خَالِصُها لِعَبْدِ مُنافِ

وولده هاشم الذي هشم الثريد لقومه وفيه يقول الشاعر:

عَمْرُ العُلا هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ ... وَرِجَالُ مَكَّةَ مُسْنِتُونَ عِجَافا[4]

---

(١) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص ٦٧.

(٢) أحمد الحوفي، أدب السياسة في العصر الأموي، الطبعة الخامسة، (د. ت)، ص ٣٧١.

(٣) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص ٣٢.

(٤) الجاحظ، المحاسن والأضداد (منسوب)، ص ١٤٥.

امتلكت السيدة عاتكة بنت غانم زمام الفصاحة والبلاغة، فاستطاعت أن تنشأ الفكرة نثراً ثم تترجمها شعراً، وأحاطت بفن النثر والشعر، ولعلها نهجت هذا النهج لتثبت أن لديها قدرات لغوية في تصرف فنون القول والكلام نثراً وشعراً.

كما وظفت المرأة العربية الشعر في مناظراتها، فكانت تبسط حججها لخصمها ثم تنشأ الشعر إذ تجد فيه فرصة أرحب لإطلاق العاطفة التي تمتلكها ثم تجده وسيلة للتأثير.

ومن ذلك ما ختمت به أروى بنت عبد المطلب مناظرتها مع معاوية بن أبي سفيان، عندما راحت تذكر صفات علي بن أبي طالب وتقرع معاوية بن أبي سفيان وتتهمه بتضييع الأمانة وخيانة الله في ماله عندما استنكر عليها ما طلبته من مال، وفي تلك اللحظات جاشت نفسها بالبكاء، فأنشأت تقول:

ألا يا عَيْنُ وَيحَكِ أسْعِدِينَا	ألا وابكِي أميرَ المُؤمِنِينَا
زُرِينَا خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايا	وَفارسُهَا ومَنْ رَكِبَ السَّفِينَا
ومَنْ لبسَ النِّعَالَ أو احتَذَاها	ومَنْ قَرَأَ المَثَانِي والمِئِينَا[1]
إذا استَقْبَلْتَ وَجْهَ أبي حُسَينٍ	رَأيْتَ البَدْرَ رَاعَ النَّاظِرِينَا
ولا واللهِ لا أنْسى عَلِيّاً	وُحُسْنَ صَلاتِهِ في الرَّاكِعِينَا
أفِي الشَّهْرِ الحَرَامِ فَجَعْتُمُونَا	بِخَيْرِ النَّاسِ طُرّاً أجْمَعِينَا[2]

نجحت أروى بنت عبد المطلب في التأثير على مستمعيها بهذه الأبيات. فكان أن أمر لها معاوية بستة آلاف دينار وقال لها : يا عمة أنفقي هذه فيما تحبين، فإذا احتجت، فاكتبي إلى ابن أخيك، يحسن صفتك ومعونتك إن شاء الله[3].

وفي مناظرة أخرى، بين سودة بنت عمارة ومعاوية بن أبي سفيان يتبين سعة مخزون سودة من الشعر، فهي قادرة على نظم الشعر، كما تروي شعر الآخرين، ففيما جرى بينهما من حوار، تذكير لها بما صنعه أخوها في موقعة صفين فأجابته متمثلة ببيت الخنساء: صدق فوك، لم يكن أخي ذميم المقام، ولا خفي المكان، كان والله كقول الخنساء:

وإنَّ صَخْراً لَتَأتَمُّ الهُدَاةُ بِهِ ... كأنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأسِهِ نَارُ[4]

---

(١) المئين: السور الطوال.

(٢) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص ٤٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ٤٨.

ثم اشتكت إليه عامله بشر بن أرطأة في سوء سياسته وذكرت ما في قومها من العزة والمـــنعة، فطلبت إليه أن يعزله أو يخرج قومها عن طاعته، وما كان من معاوية إلا أن هددها فأطرقت تبكي ثم أنشأت تقول:

صلى الإلهُ عَلى جِسْمٍ تَضَمَّنَـــهُ قبْراً فأصْبَحَ فيهِ العدلُ مَدْفونا

قَدْ حَالفَ الحقُ لا يَبْغِي بهِ بَدَلاً فصَارَ بالحَق والإيْمَان مَقرُونا[1]

نلحـــظ أن المرأة العربية في العصر الأموي عمدت إلى تطعيم نثرها بالشعر أكثر من العصـــور السالفة، ولعل السبب في ذلك أنها تواجه خصوماً في تلك الظروف السياسية السائدة فـــتواجههم بالنثر حيناً وبالشعر حيناً آخر، كما تستنهض هممم حزبها وتؤثر به على مشاعرهم وعواطفهم.

أما في الشطر الأول من العصر العباسي، فقد كانت هذه الظاهرة بارزة في أدب طبقة الجـــواري لا سيما أن النخاسين كانوا يحفظونهن الشعر ليزيدوا في أثمانهن، فقد كانت الجارية تكتـــب النثر إلى جانب نظم الشعر بل قد تجمع بينهما أحياناً كما فعلت جارية في رسالة بعثتها إلـــى المـــأمون تهديه تفاحة فبعد أن أسهبت في وصف التفاحة وذكر محاسنها وأقوال العلماء والفلاسفة فيها، وصفتها في أبيات من الشعر:

حُمْرَةُ التُفاح مَعْ خُضْرَتِهِ أقْرَبُ الأشياءِ منْ قوْسِ قُزَحْ

فعَلى التّفاح فاشْرَبْ قَهْوَةً واستَقِنِيْها بِنَشَاطٍ وَقَـــــرَحْ

ثُمَّ غَنَّ الآنَ كَي تُطْرِبَنَي طَرْفُكَ الفَتَّانَ قَلبي قَدْ جَـرَحْ[2]

ومن الطريف أن تنهي هذه الجارية رسالتها بالدعاء للخليفة بشطر بيت لكثير عزة وهو:

هَنِيئاً مريئاً غيرَ داءٍ مُخَامِرِ

وعجزه: لعزة من أعراضنا ما استحلت[3]

---

(١) ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص ٤٨.

(٢) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء السادس، ص ٢٨٩.

(٣) **المصدر نفسه**، ص ٢٨٩.

اللغة :

تبيـــن بعد النظر في نصوص المرأة النثرية أن معجمها اللغوي غني، رفدته بثقافة كل عصـــر وكـــل مناســـبة، فمـــا وهنت كلماتها، ولا لانت معانيها، بل تخيرت ألفاظها، واهتمت بمعانيها لتقدم للقارئ والمستمع نصاً لا يشوبه ضعف أو هزل.

وفي الوقت نفسه، فإن لغتها تفاوتت بين الفخامة والجزالة والسهولة حيناً، وبين التكلف والغمـــوض والوضوح حيناً آخر، وما من شك بأنها اختارت لغتها بعناية ملائمة لسمة العصر وظروفه.

ففـــي العصـــر الجاهلي، اتسمت لغة المرأة بالجزالة والفخامة، وبلغت أحياناً كثيرة حد التعقـــيد، كمـــا فـــي ســـجع الكهان، وقد تعمدت التعقيد لتضفي على كلامها نوعاً من الغرابة والغمـــوض، كما في خطبة سلمى الهمذانية في حريم المرادي: "إن حريماً لمنيع الحَيْز[1]، سيد مَزيـــز[2]، ذو معقل حَريْز، غير أني أرى الحُمَّة[3] ستظفر منه بعثرة، بطيئة الجبرة، فأغِرْ ولا تَنكَع[4]...". [5]

تميزت ألفاظ الكاهنات معجمياً بأنها غامضة غريبة ليست في متناول الجميع، كما تدل بعـــض النصـــوص النـــثرية أن لدى المرأة في ذلك العصر حصيلة لغوية وافرة، حتى لنجدها تعـــرض مـــا لديها من لغة وأدب وقدرة على البيان والفصاحة فتجلس للمباريات الأدبية، كما فعلـــت هند وجمعة ابنتا الخس في مجلس مع القلمس، إذ أراد أن يعرف أيهما أفصح، فانبرى لســـان كل واحدة منهما تجيب عما يسأل وتصف الأشياء بلغة جزلة تنم عن عناية باللغة، ومن ذلـــك مـــا وصفت به هند ما تبغض من الفرس: "أبغض السريع البَهْر[6]، البطيء الحَصَر[7]، السَّكِيت الظَّفر[8]..." [9].

---

(١) الحيز: الناحية.

(٢) مزيز: فاضل

(٣) الحمة: القدر.

(٤) تنكع: تتردد

(٥) القالي، الأمالي، الجزء الأول، ص ١٢٧.

(٦) البهر: انقطاع النفس.

(٧) الحصر: ارتفاع الفرس مع العدو.

(٨) الظفر: الوثوب في ارتفاع.

(٩) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص ٧٢.

ولعل السبب في ذلك يعود إلى مراعاة مقتضى الحال، إذ إنهما في مباراة لغوية تفرض على كل واحدة منهما أن تختار من الألفاظ أدقها وأجزلها، ومن المعاني أعمقها وأدلها.

أما في العصر الإسلامي، فقد علمنا أن القرآن الكريم أثر في جميع جوانب حياة المرأة حتى أدبها الذي اصطبغ بالطابع الإسلامي، فاستعملت الألفاظ والمعاني الإسلامية، كما في خطبة حفصة بنت عمر بعد وفاة أبيها: ".... مشرداً للكفر عن موطنه، ونافراً له عن وكره، ومثيراً له من مجثمه، حتى فتح الله – عز وجل– على يديه أقطار البلاد، ونصر الله بقدمه، وملائكته تكنفه، وهو بالله معتصم، وعليه متوكل، حتى تأكدت عرى الحق عليكم عقداً، واضمحلت عرى الباطل عنكم حلا..." (١).

نلمح في خطبة السيدة حفصة الألفاظ الدينية مثل: الكفر – عز وجل – الحق – الباطل. وكذلك استعملت المعاني الدينية مثل: وهو بالله معتصم وعليه متوكل.

والنماذج الدالة على هذه السمة كثيرة خطباً ورسائل ووصايا، فهذه أم سلمة في رسالتها إلى عائشة بنت أبي بكر تورد مجموعة من الألفاظ والمعاني الدينية مثل: صلى الله عليه وسلم – القرآن – أم المؤمنين – الجهاد(٢).

وفي رسالة نائلة بنت الفرافصة نجد ألفاظاً دينية تشيع في ثنايا رسالتها فتطبعها بالطابع الإسلامي مثل: الإسلام – الكفر – أمير المؤمنين – مسلم– الآخرة – المسجد – الخليفة(٣).

وفضلاً عن ذلك فقد تميزت ألفاظها بالقوة والجزالة، فقد قالت عائشة رضي الله عنها في أبيها: "فرد نشر الدين على غره، ولم شعثه بطيه، وأقام أوده بثقافة، فابذقر بوطأته، وانتاش الدين فنعشه.." (٤). لقد جاءت ألفاظ عائشة جزلة قوية لا تخلو من غرابة واضحة.

ونجدها أحياناً تحمل نصها أخباراً تاريخية إسلامية، كما فعلت أم الخير بنت الحريش عندما أشارت إلى أخبار أحد وبدر وحنين استعملت المفردات المعبرة عن روحية الإسلام مثل: اليقين – الصبر – التقوى – الجنة– النار – الآخرة – الدنيا– ورسول الله ووحيه(٥).

---

(١) ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص ٤٤.

(٢) انظر ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الرابع، ص ٣١٦-٣١٧.

(٣) **المصدر نفسه**، الجزء الرابع، ص ٣٠٠.

(٤) ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص ١٩.

(٥) **المصدر نفسه**، ص ٥٤.

ولـــم تكتف بذلك بل منحت ألفاظها إيحاءً جديداً متأثرة بأسلوب القرآن الكريم، ففاطمة الزهـــراء رضـــي الله عنها في خطبتها في فدك [١] أكثرت من ذلك، فقد استخدمت الأمر مثل: طيـــبوا، طأمـــنوا، أبشروا – وهي أفعال توحي بالسعادة والطمأنينة واللين والبشارة لكنها في تركيـــبها منحتها معنى مغايراً، ونقلتها من السعادة إلى الشقاء، فطيبوا أرادت بها التذوا بتوزيع أنفســـكم أشـــلاءً، وطأمنوا أي لينوا للفتنة خضوعاً، وأبشروا أي افرحوا بالقتل، إن هذا التوسع فـــي الاســـتعمال هو أسلوب قرآني لتطوير دلالة اللفظة العربية ولقد أجادت فاطمة في انتقاء مفرداتها الموحية[٢].

أمـــا في العصر الأموي فقد جاءت ألفاظ الخطابة واضحة ميسورة لا خشونة فيها ولا غـــرابة، مع جزالة وقوة، وذلك لما اكتسبته من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والسليقة التي لم تفسد بعد[٣].

فهـــذه أم كلثوم تخطب في الناس بكل جرأة وثبات وقوة تعبير وجزالة ألفاظ فتقول : "ألا هل فيكم إلا الصَّلَفَ والشَّنَفَ وملَقَ[٤] الإماء وغَمْز الأعداء...." [٥].

وهكـــذا جاءت ألفاظ المرأة في العصر الأموي ألفاظ جزلة، ومعانيها دالة، وقد عمدت أحـــياناً إلـــى اســـتعمال الجزل من اللفظ لتثبت لنظرائها أنها على درجة من العلم والإحاطة، كحديـــث لـــيلى الأخيلـــية أمـــام الحجاج يطلب منها أن تصف الفجاج فقالت: "الفجاج مُغْبَّرة، والأرض مُقْشَـــعرَّة، والمُبْركُ مُعْتَلٌّ، وذو العيال مُخْتَلٌّ، والهالك للقَلٌّ، والناس مُسْنِتُون، رحمة الله يرجون، وأصابتنا سنون مجحفة مُبْطِلة، لم تدع لنا هَبْعاً، ولا رَبْعاً، ولا عاطفة، ولا نافِطة، أذهبـــت الأمـــوال وفرَّقـــتِ الـــرجال، وأهلكتِ العيال"[٦]. فأعجب الحجاج والحضور بحديثها وشعرها وأقر بصلتها.

إن الـــناظر فـــي نصوص المرأة النثرية يجدها تعكس روح العصر وظروفه، فألفاظها ومعانـــيها فـــي كـــل عصر متسقة مع طبيعة كل عصر وأحداثه، ففي عهد عثمان بن عفان – رضـــي الله عنه – ومقتله جاءت ألفاظها ومعانيها معبرة عن هذه الفتنة، وكذلك في العصور

---

(١) ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص ٣٣.

(٢) صادق أينه وند، **الأدب الملتزم في الإسلام**، ص ٩٦.

(٣) محمد أبو زهرة، **الخطابة أصولها، تاريخها في أزهى عصورها عند العرب** ، ص ٣٠٦.

(٤) **ملق**: مجامعتهن.

(٥) ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص ٤١.

(٦) القالي، **الأمالي**، الجزء الأول، ص ٨٥.

التالـية، ففـي العصر العباسي تأثرت لغة المرأة الأدبية بما شاع في ذلك العصر من ظروف وظواهـر كظاهـرة القـيان فـي وصية أم الأوقص: "يا بني إنك خلقت خلقة لا تصلح معها لمجامعة الفتيان في بيوت القيان"[١].

(١) ابن قتيبة، **عيون الأخبار**، الجزء الثالث، ص ٣٢٢.

البناء الفني:

تكـــاد أغلب نصوص المرأة النثرية من خطب ووصايا ورسائل ترتسم خطاً واحداً في بـــنائها الفني، فالخطبة تبنى من ثلاثة أجزاء أولها المقدمة وهي ضرورية، إذ تعد مدخلاً تمهد فـــيه المـــرأة لأفكارها اللاحقة، ومن ثم تلفت انتباه السامعين، وقد جاء اهتمام المرأة بالمقدمة لأنها أول ما يطرق السمع، وعليها يتوقف نجاح الخطبة في جذب اهتمام السامعين والاستحواذ على إصغائهم.

اخـــتلف نمـــط المقدمة في نثر المرأة من عصر لآخر، ففي العصر الجاهلي غالباً ما كانـــت الكاهـــنة تستفتح خطبتها بالقسم، كما استهلت الزبراء خطبتها: "واللوح الخافق، والليل الغاســـق، والصـــباح الشارق، والنجم الطارق، والمزن الوادق.." [١]. اتخذت الزبراء من القسم مقدمة لخطبتها لتوحي للمستمعين بصحة كلامها وصدقه.

أمـــا القسم الثاني من الخطبة فيشكل المتن أو الموضوع، وهو من أهم أقسام الخطبة، لأنـــه مـــدار الخطـــبة والمجال الذي يتم فيه تحليل الأفكار ومناقشتها وتفصيل القول وتدعيمه بالبراهيـــن المقـــنعة لإثـــارة الحماسة في نفوس الحاضرين ومحاولة استدراجهم إلى المشاركة الفعالة فيما أعد لهم من المقاصد الجسام[٢].

وأمـــا القســـم الأخير من أقسام الخطبة، فهو الخاتمة، وينبغي أن تأتي موجزة ومناسبة للموضوع إذ إنها آخر ما يسمعه المتلقي ويبقى في نفسه من الخطبة كلها.

شـــهد العصـــر الإســـلامي حضوراً للمرأة في فن الخطابة، وتبوأت مكاناً مرموقاً بين خطـــباء عصرها، فلم تكن المرأة تلقى كلامها جزافاً، بل كانت تعد لذلك بتأن وروية، واهتمت ببـــناء خطبتها، فمهدت بمقدمة وقفت عندها وقفة تحاكي فيها مشاهير الخطباء، فنوعت فيها إذ اســـتفتحتها بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله، كما جاء في الرواية لخطبة فاطمة يوم فدك: "فافتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول الله ﷺ"[٣].

وقـــد تبدأ خطبتها بالدعاء كما بدأت السيدة عائشة خطبتها على قبر أبيها: "نَضَّرَ الله – يا أبت – وجهك، وشكر لك صالح سعيك"[٤].

---

(١) القالي، **الآمالي**، الجزء الأول، ص ١٢٧.

(٢) زبـــير دراقي، **المستقصى في الأدب الإسلامي**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ص ٦٧.

(٣) ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص ٣٠.

(٤) **المصدر نفسه**، ص ٢١.

فـــي حين أنها في بعض الأحيان كانت تبدأ خطبتها بآية من القرآن الكريم، لأنها تدرك ما للقرآن عند المسلمين من هيبة وإنصات، وهي بذلك تضمن استماع الجمهور إليها، فبدأت أم الخـــير بنت الحريش خطبتها بقوله تعالى:﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم**﴾[١].

قـــد تكتفي بالحمد أحياناً وتباشر موضوعها في مثل خطبة السيدة زبيدة تهنئ المأمون بالخلافة، فتقول: "الحمد لله أهنئك بالخلافة..." [٢].

ولعل المسوغ لذلك هو إيجاز خطبتها التي لم تتعد السطرين، إذ لا تجد فرصة للتمهيد فالموضوع التهنئة وهو لا يحتاج إلى تقديم أو تمهيد.

وقـــد تـــبدأ خطبـــتها بتمهيد مناسب للموضوع لتثير حماسة السامعين وتعد عواطفهم للتأثير، وأذهانهم للوعي كما جاء في خطبة عاتكة بنت غانم عندما أرادت أن تفخر ببني هاشم فقالت: "أيها الناس، إن بني هاشم سادت فجادت، وملكت وملُكت، وفضلت وفُضلت، واصطفت واصطُفيت"[٣].

وكانت أحياناً تغاير المألوف في بناء خطبتها، كخطبة فاطمة بنت الرسول عليه السلام أمام نساء المهاجرين والأنصار، إذ لم تبدأ بالبسملة أو الحمد ولم تختم بالاستغفار، وإنما جاءت خطبـــتها اســـتطراد حديـــث وجواباً على سؤالهن عن صحتها، فتحول كلامها إلى تقريع ولوم وتأوه وكشف حقائق إذ بدأت كلامها: "أصبحت والله عائفة لدنياكم قالية لرجالكم، لفظتم بعد أن عجمتم، شنئتهم بعد أن سبرتهم..." [٤].

وعـــندما بلغت غايتها من اللوم والتقريع صمتت ولم تختم بالاستغفار والتسليم، وربما تكـــون قـــد بدأت بالتحية والبسملة وانتهت بالاستغفار لكن الرواة أسقطوا ذلك، وإلا فالزهراء متألمة محزونة تجاوزت ما درج عليه الخطباء، وبدأت بالقسم لتأكيد المعاناة[٥].

أمـــا المتـــن فهـــو صلب الموضوع ولبه إذ تصرح فيه عما تريد مراعية فيه الوحدة الموضـــوعية والترتيـــب والوضوح، وفي أثناء ذلك نجدها تقدم الأدلة وتشرح وتفصل وتعلل، وتـــرد على الخصوم وتناقضهم أحياناً، فهذه عكرشة بنت الأطرش بعد أن افتتحت كلامها بآية

---

(١) سورة الحج، الآية ١. وانظر: ابن طيفور، بلاغات النساء، ص ٥٤.

(٢) الآبي، نثر الدر، ص ٧٠.

(٣) الجاحظ، المحاسن والأضداد (منسوب)، ص ١٤٥.

(٤) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص ٣٧.

(٥) صادق أنينه وند، الأدب الملتزم في الإسلام، ص ٩٣.

قرآنـــية راحـــت ترسم صورة محببة للجنة إذ لا موت فيها ولا هرم: "إن الجنة دار لا يرحل عنها من قطنها، ولا يحزن من سكنها"[١].

ثـــم تناولت أهل الشام بالشتم والذم وذكر صفاتهم: "إن معاوية دلف إليكم بعجم العرب، غلف القلوب، لا يفقهون الإيمان ولا يدرون ما الحكمة..." [٢].

وبعـــد ذلـــك تحرض المهاجرين والأنصار على القتال وملاقاة أهل الشام وتنهاهم عن الـــتواكل وتذكـــرهم بانتصاراتهم في بدر: "فالله الله عباد الله في دين الله، وإياكم والتواكل، فإن في ذلك نقض عروة الإسلام، وإطفاء نور الإيمان، وذهاب السنة، وإظهار الباطل"[٣].

أمـــا الخاتمـــة فلـــم تغفـــل المرأة الاهتمام بها إذ أنها آخر ما تلقى من آذان السامعين وأذهـــانهم وغالـــباً ما كانت تختم خطبتها بالدعاء بمثل ما ختمت حفصة بنت عمر خطبتها بعد وفاة أبيها: "ألهمنا الله وإياكم طاعته، وإذا شئتم ففي حفظٍ وكلاءته" [٤].

وعلـــى دأبهـــا سارت زينب بنت علي في خطبتها عند مقتل الحسين، فبعد أن قرعت وأنبـــت بثت شكواها إلى الله واتجهت إليه تدعوه لنصر قومها: "والحمد لله الذي ختم بالسعادة والمغفرة لسادات شبان الجنان، فأوجب لهم الجنة، أسأل الله أن يرفع لهم الدرجات، وأن يوجب لهم المزيد من فضله، فإنه ولي قدير"[٥].

ولـــم يخـــتلف بناء الوصية عن بناء الخطبة، فالمقدمة والمتن والخاتمة، إذ تحدثت في المقدمـــة للموصي توالي السنين وتعاقبها وكثرة خبرتها وتجاربها في الحياة، وهي بذلك تهيئ الأذهـــان للاقتناع، وتختص بافتتاحية لا بد منها كقولها، أي بني أو بنية، وتريد بذلك التنبيه. ثم تقـــدم لمحة لأهمية الوصية بالنسبة للإنسان، وخاصة إذا كان قليل الخبرة والتجربة ولم تعركه الأيام.

---

(١) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص ٨٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٨٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ٤٤.

(٥) المصدر نفسه، ص ٤٠.

فهـــا هي أمامة بنت الحارث في وصيتها المشهورة تقول لابنتها: "أي بنية، إن الوصية لـــو تركـــت لفضل أدب أو مكرمة في حسب لتركت ذلك منك، ولزويتها عنك، ولكنها تذكرة العاقل..." (١).

وقـــد تطلـــب أحياناً من ابنها أن يسمع وصيتها ثم يعيها لتحفظه من الوقوع في الزلل خاصـــة إذا كـــان يريد السفر، كما طلبت أعرابية من ابنها يريد السفر أن يسمع وصيتها: "قف عليّ كي أوصيك، وع وصيتي، فإنك إن وعيتها كنت محبباً محفوظاً"(٢).

ثـــم تقـــدم وصاياها ومجمل نصائحها وإرشاداتها في متن الوصية بتسلسل ومنطق، إذ تقـــدم الوصـــية ثـــم تبين الدليل أو التفسير لذلك، فأمامة بنت الحارث في وصيتها لابنتها ليلة زفافهـــا تقـــدم الوصية ثم تفسر لها لتقع في نفسها موقعاً حسناً ولتكون أكثر إقناعاً: "أما الأولى والثانـــية فالصـــحبة بالقناعة والمعاشرة بحسن السمع والطاعة، فإن فيهما رضى الرب وراحة القلب"(٣). وهكذا في بقية وصيتها.

ومـــن الملاحظ في الوصايا النثرية أن التحية تأتي ذيلاً لها في معظم الأحيان، فتكون في مقام الخاتمة لها، إذ يجد الموصي في ذلك قفلاً مناسباً ينهي به جمله المتلاحقة.

وكذلـــك نهـــج المـــرأة في خواتيم وصاياها فأمامة بنت الحارث أنهت وصيتها بقولها: "واســـتودعك الله والسلام عليك"(٤). وفي وصية الأعرابية لابنها يريد السفر في رواية عن أبي عبيدة معمر بن المثنى تنهي وصيتها بالدعاء لها: "واستودعك الله"(٥).

أمـــا الرســـائل تخـــتلف عـــن هذين اللونين من فنون النثر في البناء إذ نبدأ بذكر اسم المرســـل والمرســـل إلـــيه في صدر الرسالة، ثم السلام وبعده تتكئ على لفظة أما بعد وكأنها مفـــتاح القـــول، كما في رسائل أم سلمة إلى عائشة ورد عائشة عليها: "من عائشة أم المؤمنين إلى أم سلمة، سلام عليك"(٦).

---

(١) الوشاء، **الفاضل في صفة الأدب الكامل**، ص ٢٢٣.

(٢) **المصدر نفسه**، ص ٢٢٢.

(٣) **المصدر نفسه**، ص ٢٢٤.

(٤) **المصدر نفسه**، ص ٢٢٤.

(٥) الجاحظ، **البيان والتبيين**، ص ٧٢.

(٦) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الرابع، ص ٣١٧.

وفـــي رسالة عائشة إلى زيد بن صوحان: "من عائشة أم المؤمنين إلى ابنها الخالص زيد بن صوحان، سلام عليك، أما بعد..." (١).

لاحظـــت الباحـــثة خلو بعض رسائل المرأة من التحية واقتصرت على لفظة أما بعد، كرســـالة عائشة بنت أبي بكر إلى معاوية بن أبي سفيان إذ باشرته بقولها: "أما بعد ، فإنه من يعمل بمساخط الله يصر حامده من الناس ذاماً له، والسلام"(٢).

وربمـــا كان السبب رغبتها في إشعار معاوية بغضبها من بداية الرسالة، وفعل معاوية وأتـــباعه أحال دون تحقيق السلام للأمة، فإن عاد إلى رشده وعدل عن فكره حل السلام عليه الذي ختمت به رسالتها.

ونظـــير هذه الرسالة رسالة السيدة زبيدة إلى المأمون التي خلت من البسملة والتحية، ولـــم تنـــته بالسلام أو الدعاء مع أن غرضها الاستعطاف الذي يستوجب منطقياً البدء بالتحية والانـــتهاء بها كذلك، لكن قد تكون سقطت من الرسالة، ولم يصل إلينا إلا النص نفسه. فبدأت رسالتها: "كل ذنب يا أمير المؤمنين –وإن عظم– صغير في جنب عفوك.." (٣).

ويقـــع المتن بين المقدمة والخاتمة، وفيه تفصح المرأة عن الأمر الذي من أجله كتبت رسالتها، فهذه عائشة في رسالتها إلى زيد بن صوحان تذكر فيها أولاً مكانة زيد وشرف نسبه، ثـــم تذكـــره بمقـــتل عثمان وتخبره بأنها قادمة إليه، وتطلب منه تثبيط الناس عن علي بن أبي طالـــب، وأخيراً تملي عليه أوامرها بعدم مغادرته مكانه إلا بأمر منها:" فإن أباك كان رأساً في الجاهلية، وسيداً في الإسلام، وإنك من أبيك بمنزلة المصلي من السابق، يقال كاد أو لحق، وقد بلغك الذي كان في الإسلام من مصاب عثمان بن عفان، ونحن قادمون إليك، والعيان أشفى لك مـــن الخـــبر، فإذا أتاك كتابي هذا فثبط الناس عن علي بن أبي طالب وكن مكانك حتى يأتيك أمري"(٤).

نهجـــت المـــرأة العربية نهج السابقين في بناء فنون النثر من خطب ووصايا ورسائل، وكذلـــك فـــي الأمثال أيضاً إذ أنها تقتصر على المثل، ولا نجد مورد المثل أو مضربه إلا في قصة المثل وحكايته، كما مر معنا.

---

(١)ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الرابع، ص ٣١٧.

(٢) **المصدر نفسه**، الجزء الأول، ص ٥٩.

(٣) الطبري، **تاريخ الطبري**، الجزء العاشر، ص ٢١٣.

(٤) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الرابع، ص ٣١٧.

إن المـــراد مـــن المثل الحال الذي قيل فيه والمقام الذي يستشهد به، ولذلك فإن بعض الأمثال لم يعرف قائلها أو حتى إلى أي عصر تنتمي.

أمـــا المـــناظرات فتقوم على سؤال وجواب، إذ ترتبط بالحوار والشخصيات من غير مقدمات كمناظرة هند وجمعة ابنتي الخس عند القلمّس[1].

(١) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص ٧٠.

الصورة الأدبية:

للغـــة دورها الإيجابي في توجيه الفكر والتأثير فيه، كما أن للفكر فعاليته المتميزة في توجـــيه اللغة وإعادة تشكيله لعلاقتها أثناء تشكيله لنفسه[١]، فالكلمات بوصفها رموزاً لها القدرة علـــى توجيه أفكارنا وتنظيمها، أي أن اللغة ليست مجرد نظام إشاري أو مجرد وسيلة تنعكس الحـــياة فيها وإنما هي وسيلة لبث النسق والنظام في الحياة نفسها[٢]. وليست الصورة الفنية إلا مظهراً من مظاهر هذه الفعالية الخلاقة بين اللغة والفكر[٣].

تعـــد الصورة الفنية طريقة خاصة من طرق التعبير أو وجه من أوجه الدلالة تنحصر أهميتها فيما تحدثه في معنى من المعاني من خصوصية وتأثير[٤].

وقـــد أدركت المرأة العربية الأدبية أن نصها الأدبي لا ينضج فقط بسلامة لغته وجمال أســـلوبه وإحكام بنائه فحسب، بل تدرك أن التصوير الفني حاجة ملحة يكتمل به العمل الأدبي فيخرج للمستمع والقارئ في أحسن وأبهى صورة.

لـــذا فقـــد اســـتعملت المرأة العربية التشبيهات والاستعارات والكناية في غير موضع، وامتازت صورتها الأدبية ببساطتها المستمدة من واقعها ومحيطها والأحداث التي تعيشها، ومن الجديـــر بالذكـــر أن خـــيالها الأدبي لم يقصر في عصر من غير آخر بل اتخذت منه في كل عصر وسيلة للتعبير عن معانيها وأفكارها.

اســـتمدت المـــرأة العربـــية في العصر الجاهلي صورها من البيئة البدوية وفي معظم الأحـــيان تأتي الصورة مستوحاة من مظاهر الحياة الحسية، إذ سارت المرأة العربية على نهج الأولين في تشبيههم بالجبال عزاً وبالنجوم الزواهر شرفاً وبالحصى عدداً[٥].... إلخ.

---

(١) جابـــر عصفور، **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب**، الطبعة الثالثة، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ص ٣١٩.

(2) Eichards (I.A.), The Philosophy of Rhetoric, Oxford University Press, New York, 1967, p. 134.

(3) W.A. Shible, Analysis of Meraphore in the Light of W.M. Urbans Theories Mouton, 1971, pp. 28-33.

(٤) جابـــر عصفور، **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب**، الطبعة الثالثة، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ص ٣٢٣.

(٥) زكـــريا صـــيام، **الأدب العربي في العصر الجاهلي وصدر الإسلام**، الطبعة الثالثة، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م، ص٢١١.

فـإذا ما وقفنا عند خطبة للكاهنة شعثاء التي وصفت فيها الأخوة السبعة نلمح تشبيهات واسـتعارات رائعة ولطيفة كقولها: ".... وأما الذي يليه فالغمر، بحر غمر يقصر دونه الفخر، نهـد صـقر، وأمـا الـذي يليه فثواب، سريع الجواب، عتيد الصواب، كريم النصاب، كليث الغاب"[١].

شـبهت شعثاء غمر بالبحر كناية عن كرمه، ثم شبهت ثواب في شجاعته بالليث، وهي بهـذه التشـبيهات والكـنايات المستمدة من الطبيعة تحاول إقناع خود بن مطرود بالزواج من أحدهم.

ومن ذلك قول سلمى الهمذانية: "والخفو[٢] والوميض[٣]، والشفق كالأحريص[٤]" [٥].

شبهت سلمى الهمذانية لون الشفق المائل إلى الصفرة بلون الإحريص – أي العصفر– ولعل البعض يتساءل ما علاقة هذا التشبيه بموضوع النص.

هناك علاقات خارجية تربط الصورة بالأديب، وقد يساعدنا فهم تلك العلاقات على فهم الصـورة[٦]. إذ أن الكواهـن يحرصـن على إضفاء نوع من التهويل وادعاء معرفة الغيبيات لإضفاء القداسة على كلامهن وكأن الريح والشفق عندما تقسم بهما تشعر المستمعين بأنها على صلة واتصال بالريح والشفق حتى وقت اصفراره.

وفـي ميدان الوصية، اهتمت المرأة الأديبة بالصورة الأدبية لتسهم في تحقيق المعاني وتثبيـت الأفكار في نفوس أبنائها وبناتها، فقد استعانت أمامة بنت الحارث بالاستعارة لتوضح لابنتها معاني لا تدركها لقلة خبرتها في الحياة، فقالت لها: "إنك خلفت العش الذي منه درجت، والموضع الذي منه خرجت إلى وكر لم تعرفيه"[٧].

شـبهت أمامة بيت الأهل بالعش الذي يوفر لها الراحة والسعادة إذ لا خوف فيه لأنهم أهلها وكذلك شبهت بيت الزوج بالوكر الذي لا تعرف ما فيه لأنها تجهل صفات من يسكنه.

---

(١) الميداني، **جمع الأمثال**، الجزء الأول، ص ١٧٢-١٧٣.

(٢) **الخفو**: الهواء

(٣) **الوميض**: الخفي اللمعان.

(٤) **الاحريص**: العصفر.

(٥) القالي، **الأمالي**، الجزء الأول، ص ١٢٦.

(٦) حسـني عـبد الجلـيل يوسف، **التصوير البياني بين القدماء والمحدثين**، دار الآفاق العربية، القاهرة ، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص ٢٦.

(٧) الوشاء، **الفاضل في صفة الأدب الكامل**، ص ٢٢٤.

وفـــي العصر الإسلامي لم يقيد خيال المرأة، كيف وهو الذي فك قيدها وحرر فكرها، وســـما بها أما فاضلة، وزوجة مطيعة، وأختاً وابنة كريمة، فكما تنامت شخصيتها تنامى خيالها الأدبـــي، فهذه السيدة عائشة بنت أبي بكر – رضي الله عنهما – تقدم صوراً أدبية متفردة، ففي خطبـــتها يـــوم الحكميـــن وهي ترثي أباها وتشهد حال المسلمين يوم التحكيم بين علي بن أبي طالـــب – كـــرم الله وجهه – ومعاوية بن أبي سفيان وصفتهم بأنهم "أطالوا عنان الأمل"[١]. إذ نســـوا الآخـــرة الباقية وراحوا يتناحرون في الدنيا الفانية، وقد مثلت هذا المعنى بالاستعارة إذ شـــبهت الأمـــل في الدنيا بالدابة التي تربط بحبل طويل لترعى في مكان رحب، ثم اتبعت هذه الصورة الأدبية بصورة أخرى في حق أبيها: "اقتعدت مطي الحذر"[٢]. إذ وصفت سياسة أبيها واهتمامه بالآخرة دون الدنيا فشبهت الحذر الذي اتصف به والتزمه بالشيء الذي يمتطى.

ومـــن النساء اللواتي اعتنين بالصورة الأدبية أم الخير بنت الحريش، إذ إنها صورت أهل الشام في يوم معركة صفين بالحمر المستنفرة التي تتخبط هولاً وفزعاً لا تدري أي طريق تســـلك، فقالـــت تخاطب قومها وتحثهم على القتال: "وكأني بكم غداً لقد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة لا تدري أين تسلك بها في فجاج الأرض"[٣].

يعـــد المجاز نوعاً من التوسع في التعبير يعين الأدباء، ويفتح أمامهم السبل التي تأخذ بـــيدهم ليعـــبروا عـــن أفكارهم، وما تجيش به نفوسهم من المعاني التي لا يمكن للغة بما في ألفاظهـــا مـــن دلالات وصفية أن تعبر عنه، والتشبيه من أهم الوسائل التي تساعد على تحقيق هذه الغاية[٤].

وقـــد أدركـــت المرأة ذلك فاتخذت من التشبيه وسيلة فنية تمثل بها المعاني وتصورها ليكون لها موقعها في النفوس التي تتلقاها.

وقـــد أسعفت شاعرية الخنساء أن تبرع في صورتها الأدبية نثراً فها هي تدفع بأبنائها بـــنفس رضيّة إلى ساحة الوغى تحثهم على خوض المعركة بكل شجاعة واستبسال وقد شبهت

---

(١) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص ٢٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٤.

(٤) توفيق الفيل، فنون التصوير البياني في البلاغة العربية، الطبعة الثانية، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ١٤١٢ هـ/ ١٩٩١م، ص ٧١.

الحـــرب عـــند ابتدائها بالمرأة ترفع عن ساقيها تتهيأ للسير قدماً أو لخوض الماء، فقالت: "وإذا رأيتم الحرب شمرت عن ساقها، وضربت بأوراقها فتيمموا وطسيها"(١).

ولـــم تكتـــب المرأة العربية رسائلها بصورة عجلى بل تأنت وتروت لتلائم بين المعنى والصـــورة الأدبية في لغة سليمة وصياغة محكمة فقد كتبت أم سلمة – رضي الله عنها – إلى عائشـــة بنـــت أبي بكر –رضي الله عنها– وهي تحاول ردها عن الخروج "جهاد النساء غض الأطراف"(٢).

وكذلك فقد كنّت المرأة العربية عن بعض المعاني كقول عائشة بنت أبي بكر – رضي الله عـــنها – لزيد بن صوحان : "فإن أباك كان رأساً في الجاهلية"(٣). كناية عن الشرف وعلو المكانة.

وفـــي العصر الأموي وجد خيال المرأة فضاءً رحباً في رسم صورة بديعة، فاستعملت التشـــبيهات والاستعارات والكنايات، ففي خطبة أم كلثوم عند مقتل الحسين تقرع أهل الكوفة: "وهل أنتم إلا كمرعى على دمنة وكفضة على ملحودة"(٤).

شـــبهت أم كلـــثوم أهـــل الكوفة في حسن منظرهم وسوء منبتهم بالمرعى على دمنة، وشبهتهم بالفضة المدفونة التي لا ينتفع بها.

إن المـــرأة العربية الأديبة لا تسعى إلى مجرد إفهام السامع كما يفعل المتكلم المعهود في الغرض من كلامه، وإنما تحقق زيادة على ذلك انفعالاً لديه، وإنّ هذا الانفعال ثمرة لإحدى وسيلتين : خلق صورة أو صور في خيال السامع ينفعل لتخيلها وتصورها وحمل السامع على تصور شيء آخر ينفعل به(٥).

أمـــا الكـــناية فهـــي مـــن فنون البلاغة التي استوقفت المرأة فاستعملتها في نصوصها النـــثرية، كالأعرابية التي وقفت في الناس تستجديهم: "حدرتنا إليك سنة اشتد بلاؤها، وانكشف غطاؤها"(٦) كناية عن القحط.

---

(١) الوشاء، **الفاضل في صفة الأدب الكامل**، ص٢٢٠.

(٢) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء الرابع، ص ٣١٨.

(٣) **المصدر نفسه**، الجزء الرابع، ص ٣١٧.

(٤) ابن طيفور، **بلاغات النساء**، ص ٤١.

(٥) كـــامل حسن البصير، **بناء الصورة الفنية في البيان العربي**، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص ٥٣.

(٦) التوحيدي، **البصائر والذخائر**، الجزء الخامس، ص ٦٧.

وعـــندما أوصـــت المـــرأة في ذلك العصر لم تشغلها الوصية عن التصوير الأدبي بل ســـاقته فـــي تعابـــيرها لـــتؤكد به المعنى وتقر به من نفوس أبنائها وبناتها، كما أوصت تلك الأعرابـــية ابنـــتها لـــيلة زفافهـــا بالابـــتعاد عن الغيرة، لأنها من أخطر المشكلات الزوجية، فصورتها بالمفتاح الذي يؤدي إلى الطلاق: "وإياك الغيرة المفرطة فإنها مفتاح الطلاق"(١).

وفـــي العصر العباسي نلمح الصورة الأدبية واضحة جلية في نصوص المرأة النثرية، ولعـــل استقرار الحياة وترفها ساهم في نمو خيالها، فجارية المأمون مثلاً تبعث له رسالة تهديه فيها تفاحة وتصف هذه التفاحة: "وخفت أن يرميها الدهر بسهمه"(٢). إذ صورت الدهر ونوائبه بالصـــياد الحـــاذق الـــذي يرمي بسهمه فيصطاد فريسته. ولتقرب هذه الهدية من نفس الخليفة جعلـــت تصـــورها صوراً رائعة ومحببة للنفس وممتعة للنظر: "وقد اجتمعت فيها ألوان قوس قزح"(٣). إذ شبهت لون التفاحة بين الحمرة والخضرة والصفرة بألوان قوس قزح الجميلة.

ورغـــم مـــا يتمـــيز به بالمثل من إيجاز شديد، إلا أن المرأة زيّنته بالصور الفنية، ولا ســـيما التشبيه، ولعل اعتمادها التشبيه دون غيره من الصور الفنية يعود إلى كون أصل المثل ضـــرب لتشبيه حالة بحالة أخرى، ومنها " كفاقئ عينه"(٤). و" ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدخل"(٥)، و"مرعى ولا كالسعدان"(٦).

يتضح مما سبق أن المرأة العربية ألفت الصورة الأدبية ووظفتها في نصوصها النثرية توظيفاً يخدم الفكرة والمعنى واستثارة المشاعر والاهتمامات.

---

(١) الوشاء، **الفاضل في صفة الأدب الكامل**، ص ٢٢٤.

(٢) **المصدر نفسه**، ص٢٢٤.

(٣) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، الجزء السادس، ص ٢٨٨.

(٤) الميداني، **مجمع الأمثال**، الجزء الثاني، ص ١٩١.

(٥) **المصدر نفسه**، الجزء الأول، ص ١٧٢.

(٦) **المصدر نفسه**، الجزء الثاني، ص ٣٢٣.

الخاتمة

توصلت الدراسة إلى جملة من النتائج، تلخصها الباحثة على النحو الآتي:

أولاً : استساغت المرأة العربية منذ جاهليتها الشعر وقرضته، والتذّت النثر ونسجته، إلا أن أغلب نثرها كان مصيره الضياع، واقترن ما بقي منه بحادثة تاريخية أو سياسية أو دينية، أو اقترن بشخصية مرموقة لها حضورها السياسي أو الاجتماعي، ويعد ما بقي منه قليلاً إذا ما قورن بشعرها من ناحية، وقليل جداً إذا ما قورن بنثر الرجل من ناحية أخرى، ولعل السبب في ذلك يعود إلى قلة التدوين في العصر الجاهلي، واهتمام الرواة والنقاد بأدب الرجل دون المرأة، وانشغال المرأة العربية بشؤون أسرتها وبيتها.

ثانياً : تبين من استقراء نصوص المرأة العربية النثرية أنها طرقت فنون النثر أجمعها، فألقت الخطب السياسية والاجتماعية والتأبينية، وقد التزمت فيها بأصول الخطبة وسماتها وحاكت مشاهير الخطباء من الرجال، كما وجهت الوصايا إلى أبنائها وبناتها فكانت وصاياها ناضجة أغلبها في وصايا الزواج والسفر، وفي بعض المناسبات السياسية.

ثالثاً : شاركت المرأة في الأحداث التاريخية والسياسية وعبرت عن اعتقادها وفكرها السياسي بكل جرأة وشجاعة وكانت نصوصها النثرية أشبه وثائق تاريخية سجلت الأحداث.

رابعاً: نوعت المرأة العربية في أسلوبها فتراوح بين الإنشائي والمرسل والمصنوع حيناً، وبين السرد والحوار حيناً آخر، والإيجاز والإسهاب، وقد تأثرت في العصر الإسلامي بالقرآن الكريم والحديث الشريف فاقتبست منه، ومزجت الشعر بالنثر في بعضها الآخر زينة لنصوصها واستراحة للقارئ.

خامساً: استعملت المرأة العربية التشبيهات والاستعارات والكنايات أما نعتها فتراوحت بين الجزالة والفخامة حيناً وبين السهولة والوضوح حيناً آخر.

والحمد لله في البدء والختام،،

المصادر والمراجع:

أولاً:

١ـ القرآن الكريم.

٢- الآبي، أبو سعيد، منصور بن الحسين (ت ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م): **نثر الدر**، تحقيق: محمد علي قرنة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٣- الأبشيهي، شهاب الدين، محمد بن أحمد (ت ٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م): **المستطرف في كل فن مستظرف**، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٤- ابن الأثير، ضياء الدين، أبو الفتح، نصر الله بن محمد (ت ٦٣٦هـ/١٢٣٨م) **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، اختار النصوص وقدم لها سمر روحي الفيصل، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٦م.

٥- الأربلي، أبو الحسن، علي بن عيسى بن أبي الفتح (ت ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م): **كشف الغمة في معرفة الأئمة**، قدم له السيد أحمد الحسيني، الطبعة الأولى، منشورات الشريف الرضي، طهران، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٦- الأصفهاني، أبو الفرج، علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م): **الأغاني**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م.

٧- ابن أعثم، أبو محمد أحمد بن أعثم (ت ٣١٤هـ/ ٩٢٦م): **الفتوح**، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٨- الألوسي، أبو الفضل، شهاب الدين السيد محمود شكري (ت ١٢٧٧هـ/ ٧٤٤م): **بلوغ الأرب**، الطبعة الثانية، (د.ت) (د.م).

٩- ابن بكار، الزبير بن بكار (ت ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م): **الأخبار الموفقيات**، تحقيق سامي مكي العاني، الطبعة الأولى، منشورات الشريف الرضي، طهران، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

١٠- التوحيدي، أبو حيان، علي بن محمد (ت ٤١٤هـ/ ١٠٢٣م): **البصائر والذخائر**، تحقيق وداد القاضي، دار صادر، بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

١١- الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م): **البيان والتبيين**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

١٢- الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م): **المحاسن والأضداد**، (منسوب)، قدم له وبوبه وشرحه علي أبو ملحم، الطبعة الثانية، دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

١٣- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م): **الإصابة في تمييز الصحابة**، الطبعة الأولى، دراسة وتحقيق وتعليق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

١٤- ابن حجه الحموي، تقي الدين أبو بكر علي بن محمد (ت ٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م) **ثمرات الأوراق في المحاضرات**، شرحه وضبطه مفيد محمد قميحة، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.

١٥- ابن أبي الحديد، عز الدين أبو حامد بن هبة الله، (ت ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م): **شرح نهج البلاغة**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، ١٩٩٣م.

١٦- الحصري، أبو إسحاق، إبراهيم بن علي القيرواني (ت ٤٥٣هـ/ ١٠٦١م): **زهر الآداب وثمر الآداب**، تحقيق زكي مبارك، دار الجيل، بيروت، (د.ت).

١٧- ابن حمدون، أبو المعالي محمد بن الحسن، (٥٦٢هـ/ ١١٦٧م) **التذكرة الحمدونية**، تحقيق إحسان عباس وبكر عباس، دار صادر، بيروت، (د.ت).

١٨- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م)، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق شعيب الأرناؤط وحسين الأسد، الطبعة العاشرة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

١٩- ابن رشيق القيرواني، أبو علي، الحسن بن رشيق (ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م): **العمدة في محاسن الشعر والنثر**، تحقيق محمد قازان، الطبعة الثانية، مطبعة الكاتب العربي، دمشق، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

٢٠- ابن سلام، محمد بن سلام الجمحي (ت ٢٣١هـ/ ٨٤٥م): **طبقات فحول الشعراء**، قرأه وشرحه محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، (د.ت).

٢١- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ/ ١٥٠٥م): **تحفة المجالس ونزهة المجالس**، الطبعة الأولى، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م.

٢٢- ابن الضبي، العباس بن بكار (١٢٩-٢٢٢هـ/ ٧٤٦-٧٣٧م)، **أخبار الواقدات من النساء على معاوية بن أبي سفيان**، تحقيق سكينة الشهابي، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٢٣- الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م): **تاريخ الطبري**، تحقيق محمد أبو الفضل، الطبعة السادسة، دار المعارف، القاهرة، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

٢٤- ابن طيفور، أبو الفضل، أحمد بن أبي طاهر (ت ٢٨٠هـ/ ٨٩٣م): **بلاغات النساء**، الطبعة الأولى، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

٢٥- العاملي، بهاء الدين محمد بن حسين الحارثي (ت ١٠٣١هـ/١٦٢٠م): **الكشكول**، الطبعة الأولى، دار الكتب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٢٦- العاملي، بهاء الدين محمد بن حسين الحارثي (١٠٣١هـ/ ١٦٢٠م) **المخلاة**، نسقه وفهرسه ووضع هوامشه محمد خليل باشا، الطبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م.

٢٧- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد الأندلسي (ت ٣٢٨هـ/ ٩٣٩م): **العقد الفريد**، تحقيق أحمد أمين ورفاقه، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م.

٢٨- ابن عساكر، أبو القاسم، علي بن الحسن الشافعي (ت ٥٧١هـ/ ١١٧٥م): **تاريخ مدينة دمشق**، تحقيق سكينة الشهابي، الطبعة الأولى، دمشق، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م.

٢٩- العسكري، أبو هلال، الحسن بن عبد الله (ت ٣٩٥هـ/١٠٠٤م): **جمهرة الأمثال**، تحقيق أبو الفضل وعبد المجيد قطامش، الطبعة الثانية، دار الجيل، بيروت١٤٠١هـ/١٩٨٠م.

٣٠-القالي، أبو إسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦هـ/ ١٩٦٦م): **الأمالي**، الطبعة الأولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

٣١- القالي، أبو إسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦هـ/ ١٩٦٦م): **ذيل الأمالي**، الطبعة الثانية، مراجعة لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

٣٢- ابن قتيبة، أبو محمد، عبد الله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م): **عيون الأخبار**، تحقيق محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٣٣- ابن كثير، أبو الفداء، إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م): **البداية والنهاية**، الطبعة الثانية، مكتبة المعارف، بيروت، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٧م.

٣٤- المبرد، أبو العباس، محمد بن يزيد (ت ٢٨٥هـ/ ٨٩٨م): **الكامل في اللغة والأدب**، حققه وعلق عليه محمد أحمد الدوالي، الطبعة الثالثة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٣٥- المسعودي، علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م): **مروج الذهب**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المكتبة العلمية، بيروت، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

٣٦- المفضـــل بن سلمة (٢٩٠هـ/ ٩٠٣م)، **الفاخر في الأمثال**، تحقيق عبد الحلمي الطحاوي، الطـــبعة الأولـــى، دار إحـــياء الكتب العربية وعيسى الباني الحلبي وشركاه، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م.

٣٧- ابـــن مـــنظور، جمـــال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ/ ١٣١١م): **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م.

٣٨- الميدانـــي، أبـــو الفضل، أحمد بن محمد بن أحمد إبراهيم (ت ٥١٨هـ/ ١١٢٤م): **مجمع الأمثال**، الطبعة الثانية، دار الجيل، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٣٩- ابن هشام، أبو محمد، عبد الملك بن هشام (ت ٢١٨هـ/ ٨٣٣م): **السيرة النبوية**، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

٤٠- الوشاء، أبو الطيب، محمد بن أحمد بن إسحاق (ت ٣٢٥هـ/ ١٩٣٦م): **الفاضل في صفة الأدب الكـــامل**، تحقـــيق يحيى وهيب الجبوري، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٤١- الوطـــواط، أبـــو إسحاق، برهان الدين الكتبي (ت ٧١٨هـ/ ١٣١٨م): **غـــرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة**، دار صعب، بيروت ،(د.ت).

ثانياً المراجع:

٤٢-ائيـــنه ونـــد، صادق ونصر الله، حسن عباس، **الأدب السياسي الملتزم في الإسلام**، دار التعارف، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

٤٣- الأطرقجـــي، واجـــدة، **المـــرأة في أدب العصر العباسي**، دار الرشيد، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٤٠٢هـ/١٩٨١م.

٤٤- بـــروكلمان، **تاريخ الأدب العربي**، نقله إلى العربية رمضان عبد التواب، راجع الترجمة السيد يعقوب تامر، الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.

٤٥- البستاني، بطرس، **أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام**، دار مارون عبود، (د.ت).

٤٦- البصـــير، كمـــال حسن، **بناء الصورة الفنية في البيان العربي**، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٤٧- بنمسعود، رشيدة، **المرأة والكتابة سؤال الخصوصية وبلاغة الاختلاف**، الطبعة الأولى، أفريقيا الشرق، السودان، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

٤٨- البواب، سليمان سليم، **مئة أوائل من النساء**، الطبعة الثانية، دار الحكمة، دمشق، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

٤٩- بيهم، محمد جميل، **المرأة في حضارة العرب والعرب في تاريخ المرأة**، الطبعة الأولى، دار النشر للجامعيين، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م.

٥٠- تقي الدين، السيد، **من أدب الجاهليين والإسلاميين**، دار نهضة مصر، القاهرة ، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٣م.

٥١- الثقفي، يوسف بن علي، **أهمية الأمثال في تراث الأمة**، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

٥٢- الجندي، درويش، **الرمزية في الأدب العربي**، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ت).

٥٣- جواد، غانم، **الرسائل الفنية في العصر الإسلامي حتى العصر الأموي**، مطبعة أسعد، بغداد، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٥٤- حسن، علي إبراهيم، **نساء لهن في التاريخ الإسلامي نصيب**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٣٦٠هـ/١٩٥٠م.

٥٥- الحسون، محمد، **أعلام النساء المؤمنات**، الطبعة الأولى، منشورات أسوة، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٥٦- حسين، طه، **في الأدب الجاهلي**، دار المعارف، القاهرة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٥٧- حسين، عبد الكريم محمد، **الأمثال عند العرب طبيعتها ومنهج دراستها**، الطبعة الأولى، منشورات مركز المخطوطات والتراث والوثائق، الكويت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

٥٨- الحكيمي، محمد رضا، **أعيان النساء عبر العصور المختلفة**، الطبعة الأولى، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٥٩- حور، محمد إبراهيم، **تربية الأبناء في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي**، الطبعة الأولى، مكتبة المكتبة، أبو ظبي، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

٦٠- الحوفي، أحمد، **فن الخطابة**، الطبعة الخامسة، دار نهضة مصر، القاهرة، (د.ت).

٦١- الحوفي، أحمد، **أدب السياسة في العصر الأموي**، الطبعة الخامسة، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٦٢- أبو الخشب، إبراهيم، **الأدب الأموي صورة رائعة من البيان العربي**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٨١م.

٦٣-خليف، مي يوسف، **الشعر النسائي في أدبنا القديم**، مكتبة غريب، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
٦٤- خليفة، محمد، **الأدب والنصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي**، الطبعة الأولى، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
٦٥- دراقي، زبير، **المستقصى في الأدب الإسلامي**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
٦٦- الدروبي، محمد محمود، **الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري**، الطبعة الأولى، دار الفكر، عمان، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
٦٧- الدروبي، محمد محمود وجرار، **صلاح، جمهرة توقيعات العرب**، الطبعة الأولى، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
٦٨- درويش، محمد طاهر، **الخطابة في صدر الإسلام**، دار المعارف، مصر، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.
٦٩- الدليمي، محمد نايف، **جمهرة وصايا العرب**، الطبعة الأولى، منشورات دار النضال، بيروت، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
٧٠- أبو زهرة، محمد، **الخطابة، أصولها، تاريخها في أزهى عصورها عند العرب**، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، دمشق، ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م.
٧١- زيدان، جرجي، **تاريخ التمدن الإسلامي**، مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت).
٧٢- سلامة، عبد الحافظ محمد، **المرأة**، الطبعة الأولى، دار الفكر، عمان، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
٧٣- الشايب، أحمد، **الأسلوب**، الطبعة الثامنة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
٧٤- الشايب، أحمد، **أصول النقد الأدبي**، الطبعة الثامنة عشر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
٧٥- أبي شقراء، كلودا، **نساء عربيات**، الطبعة الأولى، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
٧٦- الشكعة، مصطفى، **الأدب في موكب الحضارة الإسلامية**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٣٧٨هـ/ ١٩٦٨م.
٧٧- صباغ، ليلى، **المرأة في التاريخ العربي**، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

٧٨- الصـــديق، محمـــد حسين، **المناظرة في الأدب العربي الإسلامي**، الطبعة الأولى، مكتبة لبنان، بيروت، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٧٩- صـــفوت، أحمـــد زكـــي، **جمهرة الخطب العربية في العصور الزاهرة**، المكتبة العلمية، بيروت، (د.ت).

٨٠- صفوت، أحمد زكي، **جمهرة رسائل العرب**، المكتبة العلمية، بيروت، (د.ت).

٨١- صيام، زكريا، **الأدب العربي في العصر الجاهلي وصدر الإسلام**، الطبعة الثالثة، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٨٢- ضـــيف، شـــوقي، **الفن ومذاهبه في النثر العربي**، الطبعة الثانية عشر، دار المعارف، مصر، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٨٣- ضـــيف، شـــوقي، **تـــاريخ الأدب العربـــي العصـــر العباسي الأول**، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٨٤- عـــبد الحميد، فايزة، **المرأة في ميادين الكفاح**، وزارة الثقافة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٣٧٦هـ/ ١٩٦٧م.

٨٥- عصفور، جابر، **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب**، الطبعة الثالثة، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٨٦- علـــي، محمـــد عثمان، **في أدب ما قبل الإسلام دراسة وصفية تحليلية**، دار الأوزاعي، د.ت.

٨٧- فايد، عبد الحميد، **المرأة وأثرها في الحياة العربية**، الطبعة الثالثة، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، لبنان، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٨٨- فـــروخ، عمـــر، **تـــاريخ الأدب العربي**، الطبعة الرابعة، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٨٩- الفيل، توفيق، **فنون التصوير البياني في البلاغة العربية**، الطبعة الثانية، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

٩٠- قطـــامش، عـــبد المجـــيد، **الأمثال العربية دراسة تحليلية تاريخية**، الطبعة الأولى، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٩١- كحالـــة، عمر رضا، **أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام**، الطبعة الثانية، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٩٢- كيال باسمة، **تطور المرأة عبر التاريخ**، مؤسسة عز الدين، بيروت، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٩٣- المسلوت، عبد الحميد، **الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام**، الطبعة الأولى، الجامعة الليبية، ١٣٨٢هـ/ ١٩٧٣م.

٩٤- المقدسي، أنيس، **تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي**، الطبعة السابعة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٩٥- المقداد، محمود، **تاريخ الترسل النثري في العصر الإسلامي**، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

٩٦- المقداد محمود، **تاريخ الترسل النثري عند العرب في الجاهلية**، الطبعة الأولى، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

٩٧- مناع، هاشم، **النثر في العصر الجاهلي**، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، بيروت، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

٩٨- المنجد، صلاح الدين، **أمثال المرأة عند العرب ما قالته المرأة وما قيل فيها**، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٩٩- النص، إحسان، **الخطابة في عصرها الذهبي**، دار المعارف، القاهرة، ١٣٧٣هـ/١٩٦٣م.

١٠٠- نصير، أمل، **صورة المرأة في الشعر الأموي**، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

١٠١- اليازجي، كمال، **الأساليب الأدبية في النثر العربي القديم من عصر علي بن أبي طالب إلى عصر ابن خلدون**، الطبعة الأولى، دار الجيل، لبنان، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

١٠٢- يوسف، حسني عبد الجليل، **التصوير البياني عند القدماء والمحدثين**، الطبعة الثالثة، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

ثالثاً: الرسائل الجامعية:

١- بخاري، هويدا، "**شعر المرأة في صدر الإسلام من البعثة النبوية إلى نهاية عصر الخلفاء الراشدين**"، رسالة ماجستير، جامعة حلب، سوريا، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٢- البشايرة، عبد الله حسين أحمد، "**دور المرأة العربية في الحياة العامة في صدر الإسلام حتى نهاية الدولة الأموية**"، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

٣- البشـــيرقط، مصـــطفى، "**الحـــياة الأدبية في مجالس الخلفاء العباسيين حتى نهاية القرن الثالث الهجري**"، رسالة ماجستير، معهد اللغة والأدب العربي، جامعة الجزائر، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

٤- الحليبـــي، خولة عمر، "**فن المناظرات في أدب الترسل في القرن الثالث الهجري**"، رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٥- حمـــدان، هناء نايف، "**النثر في بلاد الشام في العصر الأموي**"، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

٦- سلام، سائدة أحمد، "**المرأة في الأدب النثري في العصر العباسي الأول**"، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

٧- الســـلفي، ســـالم عبد الرب، "**الخصائص الأسلوبية للمثل**"، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة عدن، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٨- طاهـــر، أمـــل، "**المـــرأة فـــي الحياة العربية عند أعلام الشعر الأموي**"، رسالة دكتوراة، الجامعة الأردنية، عمان، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٩- عـــبد الملـــك، محمد، "**الأمثال العربية في العصر الجاهلي**"، رسالة ماجستير، دائرة اللغة العربية وآدابها، جامعة اليرموك، إربد، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

١٠- العلي، فريال، "**فن الخطابة في العصر الأموي دراسة نقدية**"، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

١١- فالح، حسن فالح حسين، "**أسواق العرب في الجاهلية والإسلام حتى نهاية القرن الثالث الهجري وأثرها في اللغة والأدب والأساطير**"، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

١٢- الكعبـــي، ضـــياء عـــبد الله، "**صورة المرأة في السرد العربي القديم**"، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

رابعاً: الدوريات:

١- أرناؤط، عبد اللطيف، بلاغات النساء لأحمد طيفور، **مجلة نزوى**، العدد الثاني، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٢- الأطرقجـــي، رمزية، شهيرات نساء العصر الأموي، **مجلة المؤرخ العربي**، العدد الرابع عشر، بغداد، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٣- بركة، إقبال، إبداع المرأة، **مجلة أدب ونقد**، العدد ١٣٣، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

٤- البيطار، محمد بهجة، المرأة في عهد النبوة وفي عصرنا الحاضر، **مجلة المجتمع العلمي العربي**، المجلد السابع عشر، دمشق، ١٣٦١هـ/ ١٩٤٢م.

٥- رشـــيد، كمـــال، شاعرات العرب، **مجلة الخفجي**، العدد الأول، السنة الثانية عشر، شركة الزين العربية المحدودة، ١٣٧٥هـ/ ١٩٦٥م.

٦- الســـكاكيني، وداد، أدب المـــرأة قديمه وحديثه، **مجلة الرسالة**، العدد ١١١١، السنة الثانية والعشرون، ١٣٧٥هـ/ ١٩٦٥م.

٧- الفـــريح، سهام، الوصايا ومدى تطورها في العصر العباسي الأول، **حوليات كلية الآداب**، الحولية السادسة، جامعة الكويت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٨- المغربي، عبد اللطيف، أثر الجواري في الأدب، **صـــحيفة دار العلوم**، السنة الثانية، الجزء الثالث، ١٣٤٦هـ/ ١٩٣٦م.

٩- النجم، وديعة طه، أضواء على منزلة المرأة في العصر العباسي، **مجلة عالم الفكر**، العدد الأول، المجلد الثامن عشر، الكويت، (د. ت).

خامساً : الدراسات الأجنبية:

1- Eichard (I.A), **The Philosophy of Retoric**, Oxford University Press, NewYork, 1967.

2- Reynold Nicklson, **Aliterary History of Arab**, Compridgeat the University press, 1962.

3- W.A Shible, **Analysis of Mearaphore in the light of W.M Urabans Theories Mouton**, 1971.